

جامعة القاهرة

كلية الآداب

يصدرها قسم التاريخ

المؤرخ المصري

دراسات وبحوث تاريخية محكمة

العدد الخامس عشر

يوليو ١٩٩٥

قواعـــد النشـــر

• ترحب المؤرخ المصرى بنشــــر الأبحـاث والدراســـات الأصليـة ذات المستوى الأكـاديمى الجـاد بعد التحكيم ، فضـلاً عـن مراجعـات وعـرض الكتب الجديدة .

• تقبل المؤرخ المصرى للنشر الأبحـاث التاريخية والحضاريـة المكتوبـة باللغتين العربية والإنجليزية على ألا يزيد عدد صفحـات البحث أو المقـال عن ٣٠ صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة على ورق حجم كوارتر بما فـى ذلك الهوامش والجداول وقائمة المراجع .

• المؤرخ المصرى لا تنشر بحوثاً سـبق أن نشـرت أو معروضـة للنشـر فـى مكان آخر ، وتقوم رئاسة التحرير بإخطـار المؤلفين بإجـازة بحوثهم للنشـر بعد عرضها على هيئة التحكيم .

• تحتفظ المؤرخ المصرى لنفسـها بحق القبـول أو رفـض الأبحـاث أيـا كـان قرار هيئة التحيكم .

• النشـر فـى المؤرخ المصـرى متـاح لأعضـاء هيئـة التدريـس بالجامعـات المصرية والعربية والأجنبية وسائر المهتمين بالدراسات التاريخية .

• الآراء الـواردة بالمــؤرخ المصـرى تعبر عن وجهة نظـر أصحابها .



المؤرخ المصرى

العدد الخامس عشر　　　　يوليو ١٩٩٥

المراســلات :

ترسل البحوث والمقالات باسم السيد الأستاذ الدكتور/ **سيد أحمد الناصرى**

رئيس التحرير على العنوان التالى :

كلية الآداب - جامعة القاهرة (قسم التاريخ)

بريد الأورمان - محافظة الجيزة

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية العـدد

إنـه لمن دواعـى السرور أن تسـير القافلـة وتسـتمر مجلـة المـؤرخ المصرى لتلفت إليها أنظار الباحثين فى مجال الدراسات التاريخية رغم ضعف الامكانيات المادية وارتفاع أسعار الورق والطباعة فى الآونة الأخيرة إلا أننا نعتبر صدور واستمرار هذه المجلة العلمية رسالة نتحملها رغم امتلاء الطريق بالأشواك ، لأنها نافذة الإبداع والتعبير العلمى لشباب الباحثين من المؤرخين

كما إنـه لمن دواعـى السرور أن يتقدم أساتذة أجلاء من الأوربيين والأمريكيين يطلبون نشر مقالاتهم فى المؤرخ المصرى . وقد رأينا أن نختار مقالة واحدة بلغة غير عربية لتنتشر فى كل عدد حتى لا يزاحم أحـد الباحثين العرب فى مجلتهم وفى نفس الوقت لا نحرمهم من الاطلاع على وجهة النظر الأوربية .

إن المهمة شاقة وعسيرة غير أنه بالعزيمة والإصرار يهون كل صعب.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولاتحملنا ما لا طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرون .

رئيس التحرير

البحوث والدراسات

صناعة الورق والوراقة

فى بلاد الشام فى العصر الفاطمى

دكتور/ محمـــــد زيود

قسم التاريخ - جامعة دمشق

أسهم الورق إسهاما كبيراً فى حفظ الحضارة ونقلها وتطورها وعد بحق من أهم العوامل الداعمة لها . ولا يقل دوره عن اختراع الطباعة فى تاريخ الحضارة البشرية .

استعمل الإنسان مواد كثيرة فى الكتابة من أقدمها الطين والحجارة ، ثم لحاء الأشجار والعظام والجلود وسعف النخيل ، كما استعمل الحرير الأبيض غالى القيمة فى الكتابة أيضاً ، وتفاوتت الأمم فى ذلك ، فكتب أهل الصين على ورق يصنعونه من الحشيش والكلاء ، وعنهم أخذ الناس صنعة الورق ، وكتب أهل الهند فى خرق الحرير الأبيض ، واستعمل الفرس الجلود المدبوغة من جلود الجواميس والبقر والغنم والوحوش ، كما كتبوا على اللخاف " وهى حجارة بيض رقاق " والنحاس والحديد وغيرها .

واستعمل المسلمون فى كتابة القرآن فى عصر الرسول (ص) اللخاف والعسب فعن زيد بن ثابت (ر) أنه قال عند جمعه للقرآن " فجعلت اتتبع القرآن فى العسب واللخاف " وفى حديث الزهرى " قبض الرسول (ص)

والقرآن فى العُسب "(١) ، والورق جمع واحدة ورقة وجمعه أوراق وجمع ورقات وسمى الرجل الذى يكتب وراقا ، وأطلق عليه القرآن الكريم قرطاساً وصحيفة ويسمى أيضاً الكاغد ، ويقال للصحيفة أيضاً طِرسٌ ويجمع على وطرروس ، ومُهرق ويجمع على مهارق ، وأحسن الورق ما كان ناصع البياض ، واستعلمت أوراق البردى ، وبذلك خطت الحضارة البشرية خطوة واسعة فى تحسين مواد الكتابة ، وكانت صادرات مصر إلى بيزنطة القراطيس(٢) المصرية ، وهى الطوامير التى عدت من خصائص مصر ، وأفضل ما كتب فيه " وهو من حشيش أرض مصر ، ويعمل طوله إلى ثلاثين

---

(١) عسب النخل (بالسين المهملة) وهى الجريد الذى لاخوص عليه واحدها عسيب انظر : القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٢ ص ٥١٥ ، ٥١٦ ط ١ دار الفكر بيروت ١٩٨٧ عن مكتبة دار الكتب المصرية . ، المسعودى : مروج الذهب جـ ٢ ص ٢٠٢ بيروت ١٩٠٨ وطبعة القاهرة ١٩٥٨ م .

النديم الوراق : الفهرست : ص ٢١، ٣١ ، ٣٢ مكتبة خياط بيروت والمطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٨ هـ .

كوكوروكيس عواد : الورق والكاغد : ص ٤٠٩ - ٤١٥ مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق العدد الثالث والعشرون لعام ١٩٤٨ م . وانظر : سيد أحمد على الناصرى : الوراقون والنساجون ودورهم فى الحضارة العربية الإسلامية ص ١٨٠ فقال فى مجلة الدارة العدد الرابع الرياض ١٩٨٩ م .

(٢) البلاذرى : فتوح البدان : ص ٢٤٠ " طبعة دى غويه ليدن ١٨٦٦ م "

القلقشندى : الأعشى جـ ٢ ص ٤٧٦ / ٥١٥ / ٥١٦ .

كوركيس عواد : المرجع السابق ص ٤١٢ .

العدوى : الأمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية : ص ٢٣ . القاهرة ١٩٥٧ م.

ذراعاً وأكثر فى شبر(١) . ولقد توقفت تصدير القراطيس المصرية فى بداية القرن الرابع الهجرى ليحل محله نوع من الورق المصنوع من الكتان سمى الكاغد(٢) وبهذا يقول الثعالبى " أن كواغد سمرقند هى من خصائصها وقد عطلت قراطيس مصر والجلود التى كان الأوائل يكتبون فيها لأنها أنعم وأحسن وأرق ولا تكون إلا بسمرقند ، لصين "(٣) .

(١) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٧٣ / ١٩٤ القاهرة ١٣٢٧ هـ .
البيرونى : تاريخ الهند ص ٨١ .
الخفاجى : شفاء العليل ص ١٨٠ المطبعة الوهابية القاهرة (١٢٨٢ هـ / ١٨٦٦)
الجواليقى : المعرب من الكلام الأعجمى على حروف المعجم " تحقيق أحمد محمد شاكر القاهرة ١٣٦١ هـ ، ص ٢٧٦ .
الصولى : أديب الكتاب : ص ١٠٥ ، ١٠٦ (القاهرة ١٣٤١ هـ / ١٩٢٣ م) .

(٢) لفظ فارسى " والكاغد " بالذال المعجمة لغة فيه ، ولعل الكلمة من أصل صينى وقد ورد ذكر الورق والكاغد ، أو الكاغد ، مرار كثيرة لا تعد ولا تحصى فى المصادر العربية. انظر لادى شير : الألفاظ الفارسية المعربة : ص ١٣٦ (بيروت ١٩٠٨) .
والثعالبى : لطائف المعارف ص ١٢٦ طبعة ليدن ١٨٦٧ م .
البيونى : تاريخ الهند : ص ٨١ .
كوركيس عواد : المرجع السابق ص ٤١٧ .

(٣) الثعالبى : لطائف المعارف : ص ١٢٦ القاهرة ١٩٦٠ م دار إحياء الكتب االعربية .
القزوينى : آثار البلاد ص ٣٦٠ طبعة وستفلد وص ٥٣٦ طبعة بيروت .
النويرى : نهاية الأرب جـ ١ ص ٣٥٤ " طبعة دار الكتاب المصرية ١٩٢٣ " .
جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية ص ١٣٥(ط ٢ ، ١٣٨٧ هـ / ١٩٦٧ م القاهرة) .
وانظر : سيد أحمد على الناصرى مقال مجلة الدراة العدد الرابع لعام ١٩٨٩ الرياض ص ١٨٠ .

يذكر المؤرخين بأن الورق اختراع صينى يعود إلى سنة ١٢٣ ق . م . وعندما فتح العرب المسلمون سمرقند جلبوا إليها من أسرى الحرب الصينين، وكان بعض هؤلاء الأسرى بارعاً فى صناعة الورق فعمل على إقامة صناعة الورق فى سمرقند فى سنة ١٣٤ هـ / ٧٥١ م فنشطت(١) وصدرت للعراق وغيرها من المناطق الإسلامية .

وفى العصر الأموى صنع الورق من الكتان وكان يسمى بالخرسانى(٢) ويعتقد أن مدن الشام صنعت الورق قبل هذا التاريخ فقد صنع فى دمشق وطبرية وطرابلس وحماة ومذيج ، ويستدل على ذلك من بيت شعر لطرفة بن العبد البكرى فى معلقة أن القرطاس ينسب إلى الشام ويقول طرفة :

" وحد كقرطاس الشآمى دمشفر   كسيف اليمانى قده لم يجرد "

وإذا ما صدق طرفة فتكون القراطيس من الصناعات القديمة التى تعود لفترة الجاهلية خلافاً لما ذكره مؤرخو العرب ، وأن دمشق وطبرية كانتا تصدران كميات كبيرة منه على ما أورده المقدسى(٣)

---

(١) الخوازمى : رسائل أبى بكر الخوارزمى ص ٢٥ "ط ١ الأستانة ١٢٩٧ هـ/ ١٨٨٠م.
ياقوت : معجم الأدباء ج ٢ ص ٤١٢ ، " حيث يشير إلى أن جعفر بن الفضل بن الفرات الوزير العباسى أنه كان يستورد الورق من سمرقند " .

(٢) ذكر الزوزنى فى شرح معلقة طرفة أن الشاعر يقصد بقوله كقرطاس الشآمى كقرطاس الرجل الشامى ، وفسره أبو زيد محمد بن الخطاب القرشى فى جمهرة أشعار العرب بقوله أنه شبه خدها بالقرطاس وهو الورق من جهة الشام . انظر كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ٢٢٢ / ٢٤٣ . دمشق ١٩٣٨ م .

(٣) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ١٨٠ / ١٨١ .
كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ٢٢٢ ، ص ٢٤٣ .

وغيره ، ولابد لنا من مناقشة هذه الفكرة التى أوردها بعض الدارسين والباحثين فقد نستنتج من قول طرفة أن القرطاس كان يصنع فى الشام قبل الإسلام ولكنه ليس بالورق وإنما هو نوع من النسيج المصقول المصنع من الحرير ، واستمر تصنيعه كذلك فىالعصر الأموى ، ومن ثم استبدل الحرير بالقطن لأنه أرخص وذلك فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وربما تكون الحاجةالكبيرة إلى القراطيس وخاصة بعد تعريب الدواوين هى التى كانت وراء هذا الابتكار الذى أصبح القرطاس الدمشقى يصنع من القطن(١) .

واستمر الخلفاء باستعمال ورق البردى المصرى لأنه أرخص من القرطاس الشامى القطنى هذا ونظراً للطلب المتزايد عليه فقد منع تصديره إلى بلاد الروم ابتداء من عهد عبد الملك بن مروان وتعريب الدواوين ، وبقى الطلب على القرطاس المصرى متزايد فى العصر العباسى الأول واستمر غالى الثمن ، وقد شكا الناس فى ذلك الوقت من ندرته وغلاء ثمنه(٢) .

ونظراً لأهمية الورق والإقبال الكثير علي استهلاكه فى العصر العباسى الأول أقدم الوزير البرمكى (الفضل بن يحيى سنة ١٧٨ هـ / ٧٩٤ م على

(١) ذكر محمد على : خطط الشام جـ ٤ ص ٢٢٣ أن هذه القراطيس هى الورق وأن يوسف بن عمر استبدل بالحرير ورق القطن الذى منه الورق الدمشقى ، وفى هذه النقلة من كلمة قرطاس إلى الورق ومنهم على أنه الورق فيه شىء من المخاطرة والمجازفة .

(٢) انظر : شاكر مصطفى : التاريخ العربى والمؤرخ جـ ١ ص ٧١ .
انظر : ياقوت : معجم الأدباء جـ ٢ ص ٤٠ .

إقامة أول مصنع للورق فى بغداد(١) ثم أمر أخوه فيما بعد جعفر البرمكى بإحلال الورق محل الرق فى دوواوين الدولة ، وكان أخوه فى السنة نفسها واليا على سمرقند وهذا يوضح لنا أن دخول تركستان فى الفلك السياسى والاقتصادى للعالم الإسلامى سهل هجرة التقنيات الصينية نحو الغرب(٢) الإسلامى . ويؤكد الرأى القائل بانتقال صناعة الورق من الصين إلى سمرقند ومنها إلى بغداد ثم إلى بلاد الشام وغيرها من الأقاليم الإسلامية .

ويقول بعض الكتاب أن صناعة البردى وإعداده للكتابة انتهت نحو منتصف القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ونجد أن ورق البردى المؤرخ ينتهى فى عام ٣٢٣ هـ / ٩٣٥ م ، فى حين أن الوثائق المكتوبة على

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص ٢٠٦ (ط بولاق) وص ٣٨٢ / ٣٨٣ " ط دار الشعب القاهرة .
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ص ٣٥٢ طبعة ١٩٧١ م .
الثعالبى : لطائف ص ١٢٦ .
موريس لومبارد : الإسلام ، ص ٢٢٤ " يذكر أنه جعفر البرمكى "
محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية : ص ١٣٥ .
زيفريد هونكلة : شمس العرب تسطع على الغرب : ص ٤٦ .
كرد على : خطط جـ ٤ ص ٣٤٢ .
(٢) الثعالبى : لطائف : ص ١٢٦ .
موريس لومبارد : الإسلام فى عظمته ص ٢٢٤ .
زيفريد هونكه : المرجع السابق ص ٤٦ .
كوركيس عواد : المرجع السابق : ص ٤٢٦ / ٤٢٧ / ٤٢٨ .

الكاغد يبدأ تاريخها منذ عام[1] ٣٠٠ هـ / ٩١٢ م " وهناك وثيقة تؤكد استعماله قبل سنة ٢٤٠ هـ / ٨٥٤ م[2] "

انتشرت هذه الصناعة بسرعة كبيرة لمواجهة الاستهلاك المتزايد جداً وذلك بسبب كثرة المترجمات والإقبال العام والكبير على اختفاء الكتب وما رافق ذلك من طلب كبير على الورق ، وزادت معامل الورق ، ونقلت مطاحنه إلى بلاد الشام ، وأسست معامل لصنع الورق فى دمشق بعد تأسيس معمل له[3] فى بغداد فى سنة ١٧٨ هـ . ثم تتابعت بعد ذلك مواكب صناعة الورق المتقدمة وزحفت سريعاً ، فأقيمت المعامل فى معظم المدن الشامية أمثال طرابلس وطبرية وغيرها ، وذلك ابتداء من القرن الرابع الهجرى . وهذا ما يشير إليه

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية : ص ١٣٤ / ١٣٥ .

آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٦٠ " نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريدة ط ٢ القاهرة ١٩٤٧ " .

أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية ص ٢٥٨ ترجمة محمد عيسى ومراجعة محمد شفيق غربال مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٩٦٠ .

(٢) هناك نسخة مخطوطة من طبقات خليفة بن خياط المحفوظة فى المكتبة الظاهرية قد قرأت عليهوقد توفى خليفة كما هو معلوم فى سنة ٢٤٠ هـ .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والإجتماعى جـ ٣ ص ٣٢٥ ، القاهرة ١٩٦٥ .

جمال الدين سرور : المرجع السابق ص ١٣٥ .

زيفريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٤٦ .

موريس لومبارد : الإسلام فى فجر عظمته ص ٢٢٤ ، ليدن ١٩٠٦ .

سيد أحمد على الناصرى : المرجع الساق ص ١٨٠ .

المقدسى وغيره(١) ، حيث صادفت زراعة القنب ظروفاً مناسبة فى بلاد الشام ومنذ القرنين التاسع والعاشر أصبح الورق أهم مادة للكتابة فى العالم إن لم تكن المادة الوحيدة(٢) وكان مثل السكر ، يصنع فى مصانع ضخمة وينتج بكميات وفيرة وبنوعيات وألوان مختلفة ، ويبدوا أن صناعة الورق فى العالم الإسلامى كانت بيد الحكومات ، حتى ظهر المصنعون الكبار فى الأزمنة اللاحقة(٣) . ولقد نقل العرب استعمال عجينة الكتان فى صناعة الورق من سمرقند إلا أنه سرعان ما استبعد الكتان فيما بعد وحل محله القطن لأنه أقل كلفة وأكثر انتشاراً(٤) فى الشام وغيرها .

---

(١) المقدسى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم : ص ١٨٠ ، ١٨١ .

آدم متز : الحضارة الإسلامية : جـ ٢ ص ٣٦٠ .

موريس لومبارد : الإسلامى ص ٣٦٠ .

جمال سرور : المرجع السابق : ص ١٣٥ ، ١٣٦ .

محمد كردى على:الإسلامى والحضارة العربية جـ١ص ٢١٥ ط ٢، القاهرة ١٨٩٨.

(٢) أشتور : التاريخ الإقتصادى والإجتماعى للشرق الأوسط فى العصور الوسطى ص ١١٧ / ٢٥٠

" ترجمة عبد الهادى عبلة مراجة أحمد غسان سبانو دمشق ١٩٨٥ م .

موريس لومبارد : المرجع السابق ص ١١٤ .

(٣) أشتور : المرجع السابق : ص ١١٧ ، ٢٥٠ وانظر :

Goitdm : Society : Vol .I. P . 81 . (Los ' Angeles , 1973) .

(٤) جان . بس . ريسلر : الحضارة العربية : ص ١٢٠ " ترجمة غنيم عبدون " الدار المصرية للتأليف والنشر " .

كوركيس عواد : المرجع السابق ص ٤٢١ .

وكانت طرابلس من أهم مراكز صناعة الورق فى بلاد الشام وفاقت سواها من البلدان فى ذلك وقد زارها الرحالة ناصر خسروا وأطرى ورقها "أن أهل هذه المدينة " يصنعون فيها الورق الجميل مثل ورق سمرقند بل أحسن منه(١) " . واشتهر ورقها بمختلف أنواعه المعروفة فى ذلك الوقت من الكاغد والطوامير والقراطيس . وكانت مصانعها تمد المشتغلين ببيع أو نسخ أو تأليف الكتب بكميات وفيرة من الورق بمختلف أنواعه ، وسد حاجة المكتبات من الورق ، وكان لهذا أثره على حركة التأليف والكتابة والترجمة والنسخ التى نشطت فى طرابلس خلال العصر الفاطمى(٢). فكثر فيها الوراقون والمؤلفين، والكتاب ، والمجلدون(٣) وفى سنة ٤٧٢ هـ . قام جلال الملك بن

---

(١) ناصر خسرو : سفرنامه : ص ٤٨ " ترجمة يحى الخشاب بيروت ١٩٧٠ وطبعة القاهرة ١٩٤٥ م " .
حتى : تاريخ سورية ولبنان جـ ٢ ص ٢٣١ "ترجمة جورج حداد وعبد الكريم رافق بيروت ١٩٥٨ م "
حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٥٨٩ القاهرة ١٩٦٤ ترجمة
كوركيس عواد : المرجع السابق : ص ٤٢٩
عمرعبد السلام التدمرى:تاريخ طرابلس السياسى والحضارى عبر العصورص٢٣١ طرابلس لبنان١٩٧٨" والحياة الثقافية فىطرابلس : ص٢٢ط١بيروت ١٩٧٢.
(٢) دى لاسى أوليرى : علوم اليونان وسبل انتقالها إلى العرب ص ٢٦٦ " ترجمة وهيب كامل مصر ١٩٦٢ .
عمر عبد السلام التدميرى : تاريخ طرابلس : ص ٢٥٤ .
(٣) ابن عساكر : تاريخ دمشق مجلد ٤ ص ٢٣٧ تحقيق المنجد ودهان دمشق ١٩٥٤ .
ومجلده ٢٩ ص ١٤٠ جـ ١١ ص ٥٠٧ . وجـ ١ ص ٢٧٣ .
عمر عبد السلام التدمرى : تاريخ طرابلس : ص ٢٥٤ – وكذلك الحياة الثقافية فى طرابلس ص ٢٥ ، بيروت ١٩٧٣ م .

عمار بن أخى أمين الدولة بتجديد " دار العلم " فى طرابلس(١) وبالغ المؤرخين فى عدد الكتب التى كانت موجودة فى مكتبة طرابلس عندما هاجمها الصليبيون (٢) .. ومن المعروف أن الفاطميين قد وضعوا نشر مذهبهم فوق كل أهتماماتهم وعملوا على نشر التشيع وتعليم الدعاة والعلماء والفقهاء وكسبهم ولهذا أكثر من دور العلم ، حتى أصبحت طرابلس مركز هاماً لنشر المذهب الشيعى ونشطت فيها الحركة العلمية . واستمرت دور العلم " فيها تؤدى رسالتها الدينية والفكرية فى أيام بنى عمار أيضاً حتى لقد قيل " أن طرابلس فى زمن آل عمار صارت جميعها دارعلم(٣) "

(١) ابن العديم : الإنصاف والتحرى " فى دفع الظلم والتحرى عن أبى العلاء المعرى نسخة مخطوطة بالخزانة التيمورية رقم ٦١٨٥ تاريخ : ص ٥٠ .
عمر عبد السلام التدمرى : تاريخ طرابلس ص ٢٥٤ .

(٢) ويل ديورنت : قصة الحضارة : جـ ١٥ ص ٣٤ جامعة الدول العربية ١٩٦٥ م.
ابن العبرى : مختصر كتاب البلدان ص ٥٠ بيروت ١٩٥٨ م وطبعة ١٨٩٠ م .
لبيان : مباحث علمية واجتماعية : لجنة من الأدباء جـ ٢ ص ٥٦٢ / ٥٦٣ منشورات الجامعة اللبنانية ١٩٦٩ " بيروت " .

(٣) ابن شداد : الإعلان الخطيرة جـ ٢ ص ١٠٧ تحقيق يحيى عبارة وسامى الدهان ، دمشق ١٩٥٦ ، ١٩٦٢ م .
ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٨٦٥ . طبعة القاهرة ١٢٧٤ .
بيت الحكمة : ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ " الموصل ١٩٧٢ م " لسعيد الديوجى .
أحمد أحمد بدوى : الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية : ص ٢٩٠ طبعة نهضة مصر .
عمر عبد السلام التدمرى : المراجع السابقة والصفحات ص ٢٥٤ ، ٢٤١ ، ٢٢ ، ٢٥ و ص ٣٩ ، ٤٤ ، ٥٤ .

وكان فى هذه المكتبة عدد كبير من النساخ يعملون بصورة دائمة . بلغ عددهم أكثر من مئة وثمانين ناسخاً ، كانوا يعملون بشكل دؤوب لصيانة محتوياتها وتجليد مخطوطاتها وتزيينها وزخرفتها بالذهب والفضة والكتابة عليها بخطوط جميلة وأنيقة، وبولغ فى عدد محتوياتها من الكتب حتى لقد قيل أنها وصلت إلى ثلاث ملايين مجلدا،منها خمسون ألف نسخة من القرآن الكريم وثمانون ألف نسخة تفاسير ، ولهذا فقد اعتقد الصليبيون خطأ أنها لا تحوى إلا القرآن وتفسيره فدمرت المكتبة أثناء الغزو الصليبى لبلاد الشام(١) .

وامتازت طبرية بصناعة الورق أيضاً وقد ذكر ذلك المقدسى البشارى(٢) وأما دمشق وهى أم المدن الشامية ، فقد اشتهرت اشتهاراً بعيداً فى ذلك ، وقد نوه بورقها مؤرخ اليونان(٣) أما المؤرخون العرب والمسلمون فقد مدحوا الورق الدمشقى وأثنوا على محاسنه

---

(١) محمد ماهر حمادة : المكتبات فى الإسلام ص ١٣٣ .

محمد سليم الجندى : الجمع فى أخبار أبى العلاء المعرى وآثاره جـ ١ ص ٢٠٢ دمشق ١٩٦٢ . وانظر :

عمر عبد السلام التدمرى : تاريخ طرابلس ص ٣١٨ .

(٢) المقدسى : أحسن التقاسيم : ص ١٨٠ .

على سليمان : الكتابة والمكتبات عبر العصور ص ٧٥ ، ٧٦ دمشق ١٩٨٥ - مدخل إلى علم المكتبات ص ١٩١ دمشق ١٩٨٦ م .

(٣) محمد كرد على : الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ٢١٥ ،

كوركيس عواد : المرجع السابق ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

وجماله ، فقال أبو البقاء البدرى(١) " وفيها تعمل صناعة القرطاس بحسن صقاله ونقى أوصاله " ونظراً لجودة ورق طرابلس ودمشق وتفضيله على الورق المصنوع فى سمرقند لقيت تجارته رواجاً عظيماً ، وكان يصدر بكميات كبيرة إلى مصر ، وتتحدث إحدى الرسائل عن حمولة ٢٨ جمل (١٤٠٠٠ رطل تقريباً) من الورق تحمل العلامة (أو الماركة المسجلة) الخاصة بابن أمام من دمشق فى الوقت نفسه أرسل هذا التاجر إلى المؤسسة المصرية عشرين بالة من الورق الدمشقى عن طريق البحر(٢) من صور . ويستدل من هذا إلى جانب ما سبق بأن كمية كبيرة من الورق الدمشقى كانت تصدر للخارج ومنها المؤسسات المصرية والأقطار الأخرى " فقد كانت أوربا الشرقية تبتاع ورقها من بلاد الشرق الأدنى مباشرة على ما يشهد بذلك اسم الورق المشقى (شارتا داماسينا"(٣) " .. وقد وصف

---

(١) أبو البقاء البدرى : نزهة الأنام فى محاسن أهل الشام ص ٣٦٣ ، المطبعة السلفية بمصر ، القاهرة ١٣٤١ .

(٢) ناصر خسرو : سفرنامه ص ٤٨ .

المقدسى : أحسن التقاسيم : ص ١٨٠ ، ١٨١

Goitein : Society : Vol. I . P . 81

القلقشندى : الأعشى جـ ٢ ص ٤٨٧ جـ ٦ ص ١٨٨ ، ١٩٤

(٣) محمد كرد على : الإسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ٢١٥ - لومبار : الإسلام ص ٢٢٤ .

كوركيس عواد : المرجع السابق ص ٤٣٠ .

Goitein : Letters . P . 89 .

سيد أحمد على الناصرى : المرجع السابق ص ١٨٢.

محمد كرد على ورق الشام وطريقة صنعه وبين أهم المواد التى تدخل فى صناعته كالخروق البالية والحرير واستبدل ورق القطن الذى منه الورق الدمشقى بالحرير فى سنة ٧٠٦ رجل اسمه يوسف بن عمر كما أشرنا سابقاً ولا يزال فى خزانة دار الكتب العربية (الظاهرية) بدمشق كتاب سطر سنة ٢٦٦ هـ على ورق يظن أنه من الورق الشامى وهو أقدم مخطوط عرف بالشام ولا يزال على متانته(١) .

وكان الورق المعروف بورق الطير الذى تكتب به البطائق وتعلق فى أجنحة الحمام الزاجل صنف من الورق الشامى الرقيق للغاية وفيه وعليه ملطفات الكتب وبطائق الحمام(٢) ، ويعد هذا النوع من الورق مفخرة لتقنية صناعته فى هذه الفترة .

وصنع الورق فى حلب(٣) ، ولشهرة صناعته فيها وكثرته سمى حى من أحيائها حيث أقيمت معامل الورق باسم الوراقة ، وحافظ الورق الحلبى الصقيل المتين على شهرته حتى العصر الحديث . كما اشتهرت مناطق أخرى فى بلاد الشام بصناعة الورق وقامت مصانعه

---

(١) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

كوركيس عواد : المرجع السابق ٤٣٠ .

(٢) القلقشندى : الأعشى جـ ٢ ص ٤٨٧ ، ٤٨٨ .

كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ٢٤٣ .

(٣) القلقشندى : الأعشى جـ ٢ ص ٤٧٦ ، ٤٨٧ ، ١٨٨ ،

كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

فى حمص وحماه(١) ومنبج ، واستمرت هذه المدن بإنتاج الورق فى الأزمنة اللاحقة .

رافق صناعة الورق وازدهارها ظهور طائفة من الناس يعملون بالورق والكتابة والكتب فقد كان الورق عاملا مساعدا على النشاط العلمى وتقدمه ، وكثر المشتغلون بتجليد الكتب ونسخها وبيعها ، ونشطت صناعة الأقلام والبحث عن الحبر(٢) والصمغ واختيار أجودها .

وتقدم فى التجليد ، وظهرت الحاجة إلى الجلود من الغزلان والماعز والعجول ، واستخدم الحرير والديباج والأطلس فى تجليد المصاحف بشكل خاص(٣) . ومهر " كان قد برع فى فن التجليد على الطريقة الشامية وكان فى

---

(١) المصادر والمراجع السابقة والصفحات .

(2) Arnold and Grohman : The Islamic Bo'ok . P. 32 .

راشد البراوى : حالة مصر الإقتصادية فى العصر الفاطمى ص ١٦٢ " مطبعة النهضة المصرية " ١٩٤٨ .

زيفريد هونكه : المرجع السابق ص ٣٩٠ .

انظر كذلك : محمد ماهر حمادة : المكتبات فى الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرها ص ٧٥ ، ط الخامسة مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٨٦ م .

(٣) ياقوت : معجم الأدباء جـ ١٥ ص ٧٧ ، ٧٨ " طبعة القاهرة ١٩٣٦ .

ابن الحاج : المدخل إلى تنمية الأعمال بحسن النيات جـ ٤ ص ٨٧ ،

راشد البراوى : المرجع السابق ص ١٦٢ .

زيفريد هونكه : شمس العرب ص ٣٩٠ .

محمد ماهر حمادة : المكتبات فى الإسلام : ص ٧٥ ، ٧٦ .

رحلاته يطلب لتجليد الكتب كلما نزل فى منطقة ، وعندما زار اليمن ونزل فى عدن أعجب الأهالى هناك بتجليده وكانوا يدفعون له دينارين عن تجليد كل مصحف(1) .

وتعلم المسلمون من المسيحيين(2) جمع الصحف بين دفتى كتاب مشدد، فالنصارى فى بلاد الشام والجزيرة وغيرها كان لديهم من الكتب الدينية المجلدة ما أتيح لبعض العرب رؤيته والإعجاب بالجلود التى كانت تحفظ ما فيها حق الحفظ ، وفكر المسلمون فى اتباع هذه الطريقة وجمع صحف القرآن بين لوحين لحفظهما واستخدموا الأغلفة من الخشب وذلك قبل أن يتعلموا صناعة الجلود واتقانها عن القبط ، لتأخذ عنهم بعد ذلك مدينة البندقية أساليبهم هذه وتتشهرها بدورها(3) فى أنحاء أوربا .

كما ارتبط بالوراقة مهنة الخطاطة ، واشتهر هؤلاء الخطاطون فى العالم الإسلامى واحتلوا مراكز ممتازة فى المجتمع ، وأعجب المؤرخون المؤرخين بمشاهيرهم وأصبحوا يكتبون أسماء من يخط

(1) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ص ٣٢٧ .
Arnold Grohmann' : The Islamic Book , P , 30 .
(2) آدم متز : الحضارة الإسلامية جـ ٢ ص ٣٢٧ ، ٢٣٠ .
زكى حسن : دكتور الفاطميين : ص ١٠٦ .
(3) زكى حسن : تراث الإسلام الجزء الثانى فى العمارة والفنون الفرعية " تأليف أرنولد كرستى وبريجز ، عربه وشرحه وكتب حواشيه : زكى محمد حسن مطبوعات لجنة الجامعيين لنشر العلم " ص ٨٨ بعدها . وانظر :
H . Loubier : Der Buheingand P. 117.

المخطوطة أو الكتابة عليها ، فيما إذا ما لو أرادوا الرفع من أهمية المخطوطة وقيمتها[١] ...

ورافق الوراقة أيضاً مهنة المذهب ، ويلى الخطاط فى المرتبة ويقوم بعملية الزخرفة وكانت العناية تتجه إلى المقدمة "والفاتحة" بحيث تلون وتذهب وتزين بعض المخطوطات وبالرسم والصور ، متأثرة بالصناعة الفارسية[٢] فى هذا المجال . وتقدمت هذه الصناعات وحفظت معظم المخطوطات فى جلود النقوش بديعة الصنعة مما حذا بالمماليك فيما بعد للنسخ على منوالها ، وقام الأوربيون بدورهم بأخذ[٣] هذه الأساليب واستعملوها .

وعرف الناس فى هذه الفترة كثرة الدلالين واقتصرت مهمتهم على البحث عن الكتب النادرة وشرائها ومن ثم بيعها ، ولهذا كانوا يجوبون الأمصار ويبحثون فى الأسواق والمكتبات للحصول على أندرها وأفضلها . وشكل هؤلاء همزة وصل بين تجارة الكتب فى العالم العربى[٤] والإسلامى.

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ق ١ ص ٥٤ مصر ١٩٣٤.

(٢) زكى محمد حسن : كنوز الفاطميين ص ٢٨ (القاهرة ١٣٥٦ هـ / ١٩٣٧) .
عمر رضا كحالة : الفنون الجميلة فى العصور الإسلامية ص ١٧٥ (المطبعة التعاونية بدمشق ١٣٩٢ هـ / ١٩٧٢ م) .

(٣) زكى محمد حسن : الجزء الثانى من تراث الإسلام ص ٨٨ وما بعدها .
عمر رضا كحالة : الفنون الجميلة ص ١٧٥ وما بعدها .

(٤) الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ١ ص ٢٨٨ ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد " القاهرة ١٣٥٤ هـ "
زيفريد هونك : المرجع السابق ص ٣٩١ .

وسبب اتساع استخدام الورق انتشار الكتب فى كل مكان ، وقامت أسواق بيع الكتب والوراقين ، وامتلأت حوانيتها بالناسخين والخطاطين ، وغدت مصدر ورق لعدد كبير من الناس . وألحق فى هذه الفترة معظم الجوامع بمكتبات عامة(١) ، غدت مقصد طلاب العلم للاطلاع عليها والنهل من معارفها .. وزاد الإقبال على هذه الأسواق كل يفتش عن علمه ، فالشاعر، والفيلسوف والفلكى يبحثون عن كل جديد من الكتب وفى هذه الحوانيت كانوا يفتشون ويلتقون فقد استقبل ابن النديم ندماءه وخلانه وتعرف إليهم فى السوق حيث كان وراقاً يعمل تاجراً بالكتب على الرغم من أنه كان عالماً مشهوراً ، ألف "الفهرست" الذى يتضمن أسماء جميع الكتب والترجمات التى ظهرت بالعربية حتى أيامه ، وكانت واجبات الوراق كثيرة إذ كان ينتخب الورق وينسخ الكتب ويقوم بعملية النسخ والتصحيح حتى لا يقع فيه التحريف ومن ثم يجرى عملية التجليد والبيع ، ولقد اشتهرت الوراقة فى هذه الفترة وتدل الكتب التى صدرت وتعدد المكتبات ودور العلم والنهضة الثقافية على مبلغ رقى صناعة الورق وتطورها ونشاط الوراقة وتفننها فالوراقة كانت مهنة محترمة عمل بها علماً أجلاء مؤلفين مشهورون منهم كما أشرنا ابن النديم وكذلك كان ياقوت الحموى وراقاً يبيع الكتب ويقوم بنسخها وغيرهم كثيرون من أكابر العلماء كابن الجوزى وابن القوطى وكانت دكاكين الوراقين ملتقى الأدباء والعلماء ، ولعبت دوراً كبيراً فى تثقيف

---

(١) جلال مظهر : الحضارة العربية أساس التقدم العلمى ، ص ١١١ ، الناشر : مركز كتب الشرق الأوسط مطبعة مخيمر سنة ١٩٦٩ م القاهرة .

المجتمع العربى والإسلامى ، وكان الكثيرون من الوراقين يعرفون بدلالى الكتب(١) .

وكان للاهتمام الكبير بالكتب والمكتبات أكبر الأثر على النهضة التى شملت كل مرافق الحياة ، فقد نهل الجميع من العلوم والمعارف واهتم بها رجال الدين والحكام والأمراء والأغنياء والتجار وعملوا جميعاً بسخاء على دعم النهضة الثقافية ، ويكفى أن نتذكر سيف الدولة الحمدانى ومجالسه وتشجيعه للشعراء والأدباء والإسراف الكبير فى العطاء وضربه الدنانير الخاصة لمنحها للشعراء والأدباء وكان يزن الدينار منها عشرة مثاقيل وجود سيف الدولة يشمل كل من عمل وساهم فى النهضة الحضارية والثقافية بشكل خاص شمل المنشئين والعاملين بكل فن احترمهم الأمير العربى فكانت النتيجة إبداعهم المتميز الذى ظهر فى عصره وكان يضاهى شجاعته فى ساحة الحروب وانتصاراته الباهرة والوقوف فى وجه الأعداء ، وقد اهتم أكثر

(١) النديم : الفهرست – أبو حيان التوحيدى : المقابسات ، ياقوت معجم الأدباء جـ ١١ ص ١٩٤ وجـ ١٨ ص ١٧ .
جلال مظهر : المرجع السابق : ص ١١٨ .
زيفيريد هونكه : المرجع السابق ص ٣٩٠ .
سامى الكيالى : سيف الدولة وعصر الحمدانيين : ص ١٣٥ . دار المعارف بمصر .
محمد ماهر حمادة : المكتبات فى الإسلام ص ٧٧ ، ٧٨ .
على سليمان: الكتابة والمكتبات عبر العصور، ص ٧٢ " مطبعة ابن حيان دمشق ١٩٨٥م .
سيد أحمد على الناصرى : المرجع السابق ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ .

ما اهتم برعاية الأدباء والشعراء وكانت ندوته المشهورة التى كان يقيمها وقت السلم فى قصره حافلة بالعلماء والأدباء والشعراء والفلاسفة يقصدونه من كل صوب يلقون من كرمه ما يدفعهم ذلك إلى تجديد صناعتهم والارتقاء بها ويكفى أن نتذكر كرمه مع أبى فراس عندما أعجب فى بيت واحد بشعره فأعطاه ضيعة بمنبج تغل ألفا دينار ، وما صنع مع المتنبى حين أنشده قصيدة فأكثر له الأمير العربى فى العطاء لحد الإسراف ، وأما قصته مع أبى الفرج الأصبهانى صاحب كتاب الأغانى فقد قدم له ألف دينار معتذراً لقلة هذه المبلغ(١) .

---

(١) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ١٢٢ .

الثعالبى : يتيمة الدهر جـ ١ ص ١٢ ، ١٤ ، ٣٢ .

أبو الفداء : المختصر فى تاريخ البشر ط مصر جـ ٢ ص ١١٤ .

كنار : أخبار سيف الدولة الحمدانى ص ٣٤٧ ، ٣٤٨ .

سامى الكيالى : سيف الدولة وعصر الحمدانيين : ص ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧

مصطفى الشكعة : سيف الدولة الحمدانى : ص ١٥٩ ، ١٨٣ ، الدار المصرية للطباعة والنشر ١٩٥٩ ،

أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ١ ص ١٧٨ ، القاهرة ١٩٦٢ م .

زيفريد هونكة : شمس العرب : ص ٣٩٢ ،

محمد كرد على : الإسلام والحضارة العربية جـ ٢ ص ٢٨٢ / ٢٨٣ .

جرجى زيدان : التمدن الإسلامى ، جـ ٣ ص ١٩٣ ،

حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام جـ ٢ ص ٣٥٢ ،

أمينة بيطار : الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة فى بلاد الشام . دمشق سنة ١٩٨٠ ، ص٣٨٩ .

ويذكر بن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء أن سيف الدولة كان له أربعة وعشرون طبيباً ، منهم عيسى الرقى الذى كلف بالترجمة من السريانية إلى العربية وكان سيف الدولة يعطيه ويغدق عليه أربعة أرزاق(١) ، كما شجع سيف الدولة أصحاب الخط الجميل وأجذل العطاء للخطاطين الماهرين ولهذا فقد ازدادت قصر الحلبة "قصر سيف الدولة فى حلب" بالآيات القرآنية وأبيات الشعر المكتوبة بخط مذهب جميل يثير الإعجاب والدهشة ، وكان سشيف الدولة لفرط إعجابه بصحائف بن مقلة " وهو أخو الوزير أبى على بن مقلة " حيث كان هذا خطاطا لسيف الدولة – كان يصحبها معه حتى وقت خروجة لغزو الروم ، ويذكر بن العديم مشيراً إلى ذلك أن سيف الدولة خسر فى معارك سنة ٣٣٩ هـ / ٩٥٠م خمسة آلاف ورقة بخط أبى عبد الله الحسن بن مقلة(٢) . ولا شك أن حلب فى عهد سيف الدولة احتوت على مكتبة عظيمة كثيرة الكتب وقد ذكر أن مجلس سيف الدولة ضمن ملوك الشعراء وكان منهم الأخوين هما الخالديان: (أبوبكر محمد بن هاشم وأبو عثمان سعيد بن

(١) انظر أمينة بيطار : الحياة السياسية وأهم مظاهر الحضارة فى بلاد الشام ، دمشق وزارة الثقافة والارشاد القومى سنة ١٩٨٠ ص ٣٩٦ . نقلاً عن :ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء جـ ٢ ص ١٤٠ .
أحمد أمين : ظهر الإسلام جـ ١ ص ١٨٦ ، ١٨٧ .

(٢) ابن العديم : زبدة الحلب جـ ١ ص ١٢٢ ،
جرجى زيدان : التدمن الإسلامى جـ ٣ ص ١٩٣ ،
حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى جـ ٢ ص ٣٥٢ ،
الشكعة : سيف الدولة : ص ١٨٧ .

هاشم) وكانا من خواص سيف الدولة وندمائه وتوليا الإشراف على خزانة كتبه(١).

وأورد بن النديم فى كتابه الانصاف والتحرى خبراً مفاده أن خزانة كتب الشرفية التى بجامع حدب نهبت فى فتنة فى بعض أيام عاشوراء بين أهل السنة والشعية وكان ذلك فى زمن أبى العلاء ولم يبق فى خزانة الكتب إلا القليل وجدد الكتب فيها فيما بعد الوزير أبو النجم هبة الله بن بديع وزير الملك رضوان ثم وقف غيره كتباً أخرى بها(٢) .

وكان هذا هو الحال فى العصر المرداسى ، كما لم يقصر بنود منقذ من حيث الاهتمام بالكتب والمكتبات عن سيف الدولة ، ومما يذكر فى هذا الصدد، شغف أسامة بن منقذ بالكتب والمكتبات ويتضح ذلك من ملاحقة أيداها عندما عادت أسرته من مصر فوقعت فى أيدى الأفرنج وخسر الكثيرمن المال فلم يأسف عليه أسفه على ما فقده من الكتب وعددها

---

(١) بيطار : المرجع السابق ص ٣٩١ نقلاً عن ابن العديم : البغية جـ ٨ ورقة ٢٦٤،٢٦٥
وابن الجوزى : الأذكياء : ص ١١٨ – ١١٩ .
مجلة المجمع العلمى بدمشق مجلد ٢٥ ص ٤٩ – ٦٠ .

(٢) بن العديم : بغية جـ ٨ ورقة ٢٦٤ ، ٢٦٥ ،
أبو العلاء المعرى : تعريف القدماء بأبى العلاء ص ٥٥٦ ، ٥٥٧ نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب سنة ١٣٦٣ هـ / ١٩٤٤ م الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٥ .
محمد ماهر حمادة : المكتبات فى الإسلام : ٨٥ .

أربعة آلاف مجلد من الكتب الفاخرة فإن ذهابها على ماقال حزازة فى قلبى ما عشت(١).

وبالغ الفاطميون كثيراً فى اهتمامهم بالكتب ، وينقل المقريزى عن أبى طى قوله أنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار الكتب أعظم من التى كانت فى القاهرة ومن عجائبها أنه كان فيها ألف ومائتا نسخة من تاريخ الطبرى(٢)، وبلغ عدد مجلدتها مليون وستمائة ألف ، بالإضافة لدار الحكمة بالقاهرة وهى التى أسسها الحاكم فى سنة ٣٩٥ هـ وبلغ عدد مجلدتها مائة ألف مجلد .

وفى طرابلس وصل المستوى الحضارى والثقافى فى أوجه فى عصر أسرة بنى عمار وساهم كما سبق القول مصنع ورق طرابلس فى إثراء المكتبات بما يلزمها من كميات وفيرة من القول الأمر الذى كان له الأثر الكبير على حركة التأليف والترجمة والكتابة والنسخ ، وقد أقام أمين الدولة بن عمار " دار علم " جمع من مكتبتها " مايزيد على مائة ألف كتاب " وارتفع

(١) أسامة بن منقذ : الاعتبار ص ٣٥ - ٤٥ - ٦٣ ، تحقيق حتى : برنستون ١٩٣٠ ، عبد الكريم الأشتر : نصوص مختارة من كتاب العتبار لأسامة بن منقذ ص ٣٥ منشورات وزارة الثقافة دمشق ١٩٨٠ م .

(٢) المقريزى : الخطط جـ ١ ص ٤٠٩ القاهرة عن طبعة بولاق ١٢٧٠ هـ ، زكى محمد حسن : كنوز : ص ٢٩ وانظر ص ٢٧ ، ٢٨ ، عمر عبد السلام التدمرى : الحياة الثقافية فى طرابلس ص ٥٧ ، ٥٨ ط . بيروت ١٩٧٢ م . حسن إبرهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية : ص ٤٢٦ وما بعده .

هذا الرقم حتى وصل إلى ثلاثة ملايين فى عهد فخر الملك عمار بن عمار(١).

ولا يفوتنا إلا أن نتذكر هنا ابن العميد وزير البويهيين ومكتبته الرائعه التى زهت بأن خازنها كان المؤرخ الشهير بن مسكوية ، وكان بن العميد يحب الكتب حباً شديداً فقد جمع مكتبة حوت كل علم وكل نوع من أنواع المعارف والأدب ، وظهر طوال حياته مهتماً بها يتفقدها ويغذيها ويشترى لها الكتب ويأمر باستنساخها ، وفاقة بحب الكتب والمكتبات تلميذه إسماعيل ابن عباد المعروف باسم الصاحب بن عباد فجمع مكتبة كبيرة بلغ فهرستها عشر مجلدات(٢) .

---

(١) ابن شداد : الأعلاق الخطيرة جـ ٢ ص ١٠٧ ،
ابن خلدون : العبر جـ ٥ ، ص ٨٦٥ ،
ابن الفرات : جـ ٨ ص ٧٧ ،
عمر عبد السلام التدمرى : تاريخ طرابلس ص ٢٥٤ ، ٣٤١ : الحياة الثقافية ص ٥٦ ، ٥٧ .
محمد عبد السلام التدمرى : الحياة الثقافية فى طرابلس الشام خلال العصور الوسطى ص ٤٤ ط ١ بيروت ١٩٧٢ .
(٢) ابن مسكويه : تجارب الأمم جـ ٦ ص ٢٢٤ ،
ياقوت : معجم الأدباء جـ ٤ ص ٨٤ وجـ ٦ ص ٢٥٨ ، القاهرة ١٩٣٦ و١٩١٥ م.
أحمد امين : ظهر الإسلام جـ ٢ ص ٢٢١ ، القاهرة ١٩٥٨ .
محمد ماهر حمادة : المكتبات فى الإسلام ص ٨٨ ، ٨٩ .

ويعلق ول ديورانت فى قصة الحضارة على ذلك بقوله " وكان عند بعض الأمراء كالصاحب بن عباد من الكتب بقدر ما فى دور الكتب الأوربية مجتمعة " .

ويجب أن نتذكر دائماً من المآثر الهامة لبلاد الشام على الغرب الأوربى نقل الورق إليه ، فخلال بلدها الحروب الصليبية تعلم أسيران فرنسيان فى دمشق سر صناعة الورق ، وعندما عاد إلى بلدهاا نشرا هذا السر ، وعمت بعد ذلك صناعة الورق فى فرنسا(١) وأوربا ، كما كان لمصانع الورق التى أقامه العرب المسلمون فى صقلية والأندلس أكبر الأثر فى نقل هذه الصناعة إلى إيطاليا وبقية بلدان العالم الغربى التى كانت تتزود مباسرة بالورق مما تصنعه معامل الورق فى بلاد الشام لفترة طويلة(٢) .. ومعروف أن الأوروبيين فى القرون الوسطى كانوا يكتبون على رقوق من جلود الحيوانات غالية الثمن ، وكان ثمنها المرتفع عائقاً كبيراً أمام انتشار المؤلفات المكتوبة ، ومع تقدم الزمن أصبحت الرقوق نادرة وقليلة مما اضطر

(١) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ٢٢٣ ،
زيفريد هونكه : شمس العرب ص ٤٦ ،
جاك . س . ريسلر : الحضارة العربية : ص ١٢٠ .

(٢) موريس لومبارد : الإسلام ص ٢٢٤ ،
جلال مظهر : الحضارة الإسلامية ص ١١٠ ، ١١١ وحضارة الإسلام وأثرها فى الترقى العالمى : ص ٣٨٢ " القاهرة " ١٩٧٤ م . ،
زيفريد هونكه : المرجع السابق ص ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٠ ،
جاك . س . ريسلر : الحضارة العربية ص ١٢٠ .

الرهبان إلى صك المؤلفات القيمة لعظماء الرومان والأغريق ليكتبوا مواعظهم الدينية عليها ، ولولا العرب لفقدت أكثر المؤلفات الخالد القديمة ويكفى أن نتذكر فضل العرب فى هذا الميدان(١) . لندرك مبلغ أسهامهم فى الحضارة الإنسانية وقيمته ، وما على الذين يريدون الانتقاص من شأن الحضارة العربية الإسلامية إلا أن يفكروا لحظة واحدة ويتذكروا فى آثار ونتائج هذه الصناعة الخالدة ودور العرب الإيجابى فى النهوض بها وتطورها فقد جاء فى الموسوعة البريطانية(٢) " لما سقطت دولة العرب فى أسبانيا وانتقلت صناعة الورق من أيديهم إلى النصارى الأقل كفاءة منهم انحطت الصناعة وانحط الصنف " .

ويعد أول مصنع لصناعة الورق فى إيطاليا بفريانو سنة ١٢٧٦ وبدأت تصبح صناعته ذات شأن بعد انحطاط صناعة الورق فى أسبانيا . وبعد ذلك بدأت مصانع الورق تظهر تباعاً فى الغرب الأوربى .

---

(١) جلال مظهر : المرجع السابق ص ١١١ ،
لومبارد : المرجع الشسابق ص ٢٢٤ ،
سيد أحمد على الناصرى : المرجع السابق : ص ١٨٢ وما بعدها .
جاك . س . ريسلر : المرجع السابق ص ١٢٠ ،
زيفريد هونكه : المرجع السبق ص ٤٦ ،
كرد على : خطط الشام جـ ٤ ص ٢٢٣ .

(٢) الموسوعة البريطانية : الطبعة الحادية عشرة مادة PAPER
جلال مظهر : حضارة الإسلام وأثرها فى الترقى العالمى ص ٣٧٢ / ٣٨٤ .

الهجرات المغولية إلى مصر
وآثارها الثقافية والاجتماعية فى العصر المملوكى
(٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م)

دكتور / على السيد على محمود
أستاذ مشارك تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب للبنات – الدمام
المملكة العربية السعودية

شهدت مصر طوال العصر المملوكى " ٦٤٨ - ٩٢٣هـ / ١٢٥٠ - ١٥١٧م" هجرات عديدة لكثير من أبناء العناصر المغولية المختلفة، هذه الهجرات امتدت لتشمل العصر المملوكى بشقيه، أى دولة المماليك الأولى أو البحرية، ودولة المماليك الثانية أو الجراكسة، وتفاوتت تلك الهجرات ما بين هجرات جماعية ضخمة تعد بالآلاف، وهجرات صغيرة تعد بالمئات، وهجرات يمكن وصفها بأنها هجرات فردية تعد بالعشرات أحياناً. وكما تفاوتت هذه الهجرات فى أعدادها تفاوتت كذلك فى الدوافع المسببة لها والمؤدية إليها، سواء كانت هذه الدوافع خاصة بأبناء العناصر المغولية نفسها، كالبحث عن مأوى آمن لهم، أو اضطهاد الحكام لهم، أو الصراعات السياسية التى نشبت بين البيوت الحاكمة عندهم؛ أو ما يتعلق بطبيعة هؤلاء المغول ، أو ازدحام الأقاليم بهم. أو منها ما يتعلق بالكوارث الطبيعية وانتشار المجاعات والأوبئة والطواعين، وما كان ينجم عنها من حالات القحط. أو منها ما كان يتعلق بسياسة سلاطين المماليك لتفتيت أعدائهم والترحيب

بالعناصر المناوئة للحكام المغول ، أو للاستفادة من العناصر المغولية كعناصر لها شهرتها وخبرتها الحربية والقتالية، أو ما كان لمصر من جاذبية خاصة فى ذلك العصر نظراً لما تمتعت به من أمن ورخاء واستقرار ومركز دينى ممتاز. وقد كان لأبناء العناصر المغولية آثارهم الواضحةفى شتى مجالات الحياةفى ذلك العصر وبخاصة ما يتعلق منها بالنواحى الثقافية والاجتماعية. وهذا سوف تكشف عنه هذه الدراسة.

وترجع البدايات الأولى لظهور المغول فى مصر إلى أيام السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧-٦٤٧هـ/١٢٤٠-١٢٤٩م) وفى ذلك يقول المقريزى : "فلما كثرت وقائع التتر فى بلاد المشرق والشمال وبلاد القبجاق وأسروا كثيرا منهم وباعوهم تنقلوا فى الأقطار واشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة منهم سماهم البحرية ومنهم من ملك ديار مصر وأولهم المعز أيبك"(١) ومن المرجح أن المقريزى يقصد بذلك ماحدث من جنكيزخان من حروب ومنازعات مع أبناء جنسه حتى يصل إلىغايته وهى زعامة المغول التى تمت له سنة (٦٠١هـ/١٢٠٤م).

وأن يجعل منهم قوة ظن المعاصرون أنها لاتهزم ، وبهذه القوة الخارقة استطاع أن يكتسح البلاد شرقاً وغرباً حتى ترك لأولاده امبراطورية شملت ما بين بحر الصين والبحر الأسود . ثم ما حدث بين خلفاء جنكيز خان من صراعات حول العرش ، وما نجم عنها من تشريد المنافسين والمناوئين أو

---

(١) المقريزى تقى الدين أحمد بن على ت ٨٤٥هـ" : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المسماة بالخطط المقريزية، طبع بولاق ١٢٧٠هـ، جـ٢، ص٢٢١.

بيعهم وأتباعهم لتجار الرقيق([1]). والذين حملهم إلى كثير من أنحاء العالم الإسلامى وبخاصة مصر والشام .

ويستطرد المقريزى حديثه قائلاً : "ثم كان لقطز معهم الواقعة المشهورة على عين جالوت وهزم التتار وأسر منهم خلقاً كثيراً صاروا بمصر والشام ثم كثرت الوافدية فى أيام الملك الظاهر بيبرس وملؤا مصر والشام وخطب للملك بركة بن يوشى بن جنكيز خان على منابر مصر والشام والحرمين فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغل وانتشرت عاداتهم بها وطرائقهم ..."([2]). أو بعبارة أخرى أنه إذا كانت مصر قد عرفت أبناء العناصر المغولية كرقيق تم جلبهم للبلاد أيام الصالح نجم الدين الأيوبى عن طريق تجار الرقيق ، فإن موقعة عين جالوت عام (٦٥٨ - ٦٧٦هـ/١٢٦٠م) أدت إلى دخول أعداد كبيرة منهم إلى مصر كأسرى وسبايا حرب ؛ وفى عهد الظاهر بيبرس البندقدارى (٦٥٨- ٦٧٦هـ/١٢٦٠-١٢٧٧م) ونتيجة لتحالفه مع خان القبيلة الذهبية أو مغول القبجاق والذى كانت بلاده تمتد من تركستان شرقاً إلى شمال البحر الأسود غرباً ، وعاصمتها مدينة صراى فى شمال غرب بحر قزوين ، وتبادل معه الهدايا والبعوث وتزوج ابنته ، وأمر بالدعاء له على منابر القاهرة والقدس ومكة والمدينة ، هذا التحالف كان موجهاً ضد

---

(١) ابن ايبك الدوادارى "أبو بكر بن عبد الله" : الدر الفاخر فى سيرة الملك الناصر، نشر جمعية المستشرقين الألمانيــة ، القاهرة ١٩٧٢، ص٢٧٢ - ٢٨١؛ أحمد مختار العبادى "دكتور" : قيام دولة المماليك الأولى فى مصر الشام، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية، ١٩٨٢، ص١٤٥، حاشية ١.

(٢) فؤاد عبد المعطى الصياد "دكتور" : المغول فى التاريخ ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧٠، جـ١، ص١٦٤ - ٢٢٧.

دولة إيلخانات فارس التى كان يحكمها هولاكو خان وأولاده([1]). وفدت جماعات من مغول القبجاق مستأمنة إلى مصر وهى التى أطلقت عليها المصادر المعاصرة "الوافدية" أو "المستأمنة" ، وجلب هؤلاء المغول معهم نظمهم وعاداتهم التى كان من آثارها الكبيرة فى مصر فى ذلك الوقت بدليل قول المقريزى "ثم كثرت الوافدية أيام الملك الظاهر بيبرس ، فغصت أرض مصر والشام بطوائف المغل وانتشرت عاداتهم وطرائقهم"([2]). ومنذ عهد الظاهر بيبرس شهدت مصر العديد من الهجرات المغولية وحتى قرب أواخر العصر المملوكى الثانى أو دولة المماليك الجراكسة،سواء كانت هذه الهجرات كبيرة أم صغيرة أم هجرات فردية وهذا ما سيوضحه الجدول التالى:

م	السنة	عدد المهاجرين	المصدر
١	٦٥٩هـ	أعداد صغيرة - غير محددة	بيبرس المنصورى: التحفة الملوكية، ص ٧.
٢	٦٦٠هـ	٢٠٠فارس من الأوبراتية	ابن واصل : مفرج ، جـ٢، ص٤٠٦- ٤٠٧؛ المقريزى: السلوك ، جـ١، ص٤٧٣- ٤٧٤.

---

(١) المقريزى: نفسه، جـ٢، ص٢٢١.

(٢) ابن واصل "جمال الدين محمد ت٦٨٧هـ" : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦٠، جـ٢، ص٤٠٩ ، المقريزى : السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٣٦، جـ١، ص٤٦٥.

م	السنة	عدد المهاجرين	المصدر
٣	٦٦١هـ	١٣٠٠ فارس	المقريزى: السلوك، جـ١، ص٥٠.
٤	٦٦٢هـ	جماعتان من المغل	المقريزى: السلوك، جـ١،ص٥١٥.
٥	٦٦٢هـ	جماعة من شيراز	ابن تغرى بردى: النجوم، جـ٦، ص٢١٩.
٦	٦٧٢هـ	الأمير شمس الدين بهادر فى جماعة	بيبرس المنصورى: التحفة، ص٧٨.
٧	٦٧٣هـ	جماعة من أقارب شمس الدين بهادر منهم أبوه	ابن تغرى بردى: المنهل، جـ٣، ص٤٢٧.
٨	٦٧٤هـ	جماعة مع سكتاى وقرمشى	النويرى: نهاية الأرب، جـ٣١، ص٩٠.
٩	٦٧٦هـ	جماعة من التتار من الأبلستين	المقريزى: المقفى الكبير، جـ٢، ص٢٩٤.
١٠	٦٨٠هـ	٢٠٠ فارس بنسائهم وأولادهم	ابن أيبك: الدرة الزكية، ص ٢٤٨.

م	السنة	عدد المهاجرين	المصدر
١١	٦٨٠هـ	مجموعة صغيرة أثناء وقعة حمص	النويرى: نهاية الأرب،جـ٣١، ص٣٢.
١٢	٦٨١هـ	جماعة من أولاد المغل	ابن الفرات: جـ٧، ص٢٥٠
١٣	٦٨٢هـ	١٩ نفراً بصغارهم	بيبرس الدوادار: زبدة الفكرة ، جـ٩، ص٣٢٧.
١٤	٦٨٢هـ	٣٠٠فارس بأسرهم	ابن الفرات : نفسه، جـ٨، ص٢٠٢.
١٥	٦٩١هـ	هجرة أويراتية صغيرة	المقريزى: السلوك جـ١، ص٢٧٦؛ ابن الفرات ٧/ ٢٥٠.
١٦	٦٩٥هـ	ما بين ١٠,٠٠٠- ١٨,٠٠٠ من الأويراتية	النهج السديد: ٥٨٨؛ زبدة السلوك: ١/٨١٢؛ الخطط: ٢/٢٢؛ المنهل: ٦/٣٨١.
١٧	٦٩٨هـ	الأمير سلامش ومعه ٥٠٠	ابن أيبك: الدر الفاخر، ص٩٠٨.
١٨	٧٠٣هـ	الأمير جنكلى بن البابا وأتباعه	ابن كثير : ١٤/١٣٣؛ المنهل : ٥/٢٢؛ النجوم ٩٠/٢٧٦.

م	السنة	عدد المهاجرين	المصدر
١٩	٧٠٤هـ	٢٠٠من المقفزين	السلوك: ٢١/٥، النهج السديد: ٣٠٧.
٢٠	٧١٧هـ	١٠٠ومعهم نساؤهم وأطفالهم	السلوك: ٢/ ١٤٧؛ الدرر: ٢/ ١٧٦؛ ابن الفرات : ٩/ ٤٥٣
٢١	٧١٧-٧٢٨هـ	هروب أعداد كبيرة من مغول فارس إلى مصر	تاريخ الدولة المغولية فى إيران : ٢٢٣ - ٢٢٧
٢٢	٧٢١هـ	الأمير ياورد بن براجوا ومعه جماعة	المقفى الكبير : ٢ / ٢٣٦
٢٣		أخت جنكلى بن الباب ومعها جماعة	السلوك : ٣٣٨/٢
٢٤	٧٢٢هـ	ظهر بغا المغلى وأقاربه	الدرر : ٣٣٧/٢
٢٥	٧٢٨هـ	دمرداش بنجوبان وأتباعه	الدر الفاخر : ٣٤٦-٣٤٨
٢٦	٧٤١هـ	هجرة ضخمة بسبب الطاعون	السلوك : ٥١٥/٢
٢٧	٧٤١هـ	هجرة ضخمة بسبب المجاعة	السلوك : ٢ / ١٤٧ ؛ الدرر : ١٧٦/٢ ؛
٢٨	فى القرن التاسع	وصول أعداد من أبناء المغل	الضوء اللامع : ٣/١٧ ، ٢٨٤

واضح من هذه الإحصائية التى قمنا بها أن الهجرات المغولية إلى مصر فى العصر المملوكى قد بلغت ما يقرب من الثلاثين هجرة ، وهى التى أتيح لنا رصدها من المصادر التى أمكننا الإطلاع عليها ، وأن هذه الهجرات اختلفت فيما بينها من حيث كونها هجرات ضخمة مثل هجرات أعوام (٦٩٥هـ، ٧٤١هـ) وهجرات كبيرة العدد ، مثل الهجرات أعوام (٦٦١هـ ، ٦٩٨هـ ، ٧١٧ - ٧٢٨هـ) ، وهجرات متوسطة العدد مثل هجرات أعوام (٦٦٠هـ ، ٦٨٠هـ، ٦٨٢هـ، ٧٠٤هـ) وهجرات قليلة فى أعدادها (٦٦٢هـ، ٦٧٢هـ، ٦٧٣هـ، ٦٧٤هـ) ولو أنه قدر لنا أن نتعرف على الأعداد الفعلية للهجرات مجهولة العدد لأدركنا ضخامة الأعداد التى وفدت من أبناء العناصر المغولية إلى مصر فى ذلك العصر ، خصوصًا إذا وضعنا فى اعتبارنا الأعداد الكبيرة التى كان يأتى بها تجار الرقيق . نتيجة لبيع هؤلاء المغول أولادهم وبناتهم لهؤلاء التجار ، حيث أدركوا أنه ستكون لهؤلاء فرصة أكبر وأعظم من لو أنهم وفدوا إلى مصر كأحرار ، إذ كانت فرصة الانضمام إلى فرق المماليك السلطانية أمامهم أكبر وأعظم ، فضلاً عن أن هؤلاء المماليك السلطانية كان منهم كبار الأمراء والسلاطين مما يعنى ثروة أكبر ومكانة اجتماعية أفضل(١) .

وهذا ما أشار إليه بعض المؤرخين المعاصرين ، فالمقريزى يذكر أنه بسبب ما كان يتم دفعه فى المملوك الواحد من مبلغ كبير تراوح ما بين ٢٠٫٠٠٠ - ٤٠٫٠٠٠ درهم لذا فقد "فسد بذلك المغل فيما بينهم" ، وفى موضع آخريقول : "فأعطى المغل أولادهم وبناتهم وأقاربهم للتجار ، وباعوهم

(١) ابن واصل : نفسه، جـ٢، ص٤٠٦ - ٤٠٧؛ المقريزى : نفسه، جـ٢، ص٢٢١.

منهم رغبة فى سعادة مصر....." كما أن ابن تغرى بردى يردد نفس المعنى بقوله أنهم أعطوا أولادهم وأقاربهم للتجار رغبة فى السعادة[1] .

وفى تصورنا أن مثل هذا الأسلوب كان بمثابة تهجير لأبناء هذه العناصر من مواطنهم ، أو من البلدان التى استقروا فيها بعد حركة الانتشار الكبيرة التى قاموا بها فى أعقاب غزواتهم الأولى ، يضاف إلى هذا تلك الأعداد التى تم الحصول عليها من الحروب الدفاعية التى شنها بعض السلاطين المماليك على مغول إيران ، ولنأخذ مثلاً على ذلك بما حدث عام (٦٧١هـ / ١٢٧٢م) أيام السلطان الظاهر بيبرس ، فعندما علم أن طائفة من المغول "مقدار ثلاثة آلاف فارس على شط الفرات مما يلى الجزيرة ، فرحل عن منبج يوم الأحد ثامن عشرى جمادى الأول ووصل شط الفرات ، وتقدم إلى العسكر بخوضها ، فخاض الأمير سيف الدين قلاوون الألفى والأمير بدر الدين بيسرى فى أول الناس ، ثم تبعهما هو بنفسه وتبعته العساكر ، فوقعوا على التار فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا تقدير مائتى نفس ، ولم ينج منهم إلا القليل...."[2] .

ومن جهة أخرى يتضح لنا من خلال هذا الجدول أن الهجرات الكبيرة لم يكن آخرها تلك الهجرة الأويراتية التى حدثت عام (٦٩٥هـ) كما يذكر أحد الباحثين المحدثين[3] بل أعقبتها هجرات كبيرة أخرى مثل تلك التى حدثت

(1) David Ayalon : Studies on the Mamluks of Egypt (1250-1517), London, 1977, p. 104.

(٢) السلوك، جـ٢، ص٥٢٥؛ جـ٢، قسم٢، ص٥٢٤- ٥٢٥.

(٣) ابن تغرى بردى "جمال الدين يوسف ت ٨٧٥هـ": النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، الهيئة المصرية ، ١٩٧٢م، جـ٧،

بين أعوام (٧١٧ - ٧٢٨هـ) ، وتلك التى حدثت عام (٧٤١هـ) بسبب انتشار المجاعات والأوبئة والتى أشارت إليها المصادر المعاصرة بأنها كانت هجرة (عالم عظيم)([1]) كما أن هذه الهجرات لم تحدث فى معظمها فى فترة حكم اثنين من سلاطين المماليك وهما بيبرسي البندقدارى ، والعادل كتبغا ، حيث كان الأول منهما معجبًا بالنظم المغولية ، أما الثانى فقد كان نفسه واحدًا من المغول وكما يزعم البعض([2]) بل إنها شملت العصر المملوكى الأول بكامله وامتدت إلى العصر المملوكى الثانى وكما هو واضح من تاريخ هذه الهجرات على الرغم مما تميز به العصر المملوكى الثانى من كثرة أعداد الجراكسة أو العثمانية .

أما عن الدوافع التى أدت إلى هجرة تلك العناصر المغولية إلى مصر فهى متعددة ، يأتى فى مقدمتها ما يتعلق بالشعوب المغولية المختلفة من تتار ، وكرايت، ومركيت ، وأوبرات ، ونايمان ، ومغول ، وقراخطائيين وغيرهم من الشعوب التى وحدها جنكيز خان تحت حكمه، واشتهروا فى التاريخ باسم التتار أو المغول. والمعروف أن الموطن الأصلى لهذه الشعوب امتاز بقسوة المناخ وتطرفه فى معظم أيام السنة ؛ بل هناك أيضًا الرياح الشديدة التى تهب فى معظم أيام السنة ، فتتحمل الحصى ، وترسله إلى مسافات بعيدة ، وتكون بذلك مواجهتها مستحيلة، وأحيانًا تتحول إلى أعاصير عاتية لدرجة يصعب معها بقاء الرجل فى سرجه . مما تتطلب أن تعيش هذه الشعوب فى الأقاليم الشرقية من آسيا عيشة بدوية كلها نزاع وصراع بسبب تنازع البقاء ،

---

(1) David Ayalon : Op. Cit. p. 101.

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ ٢ ، ص ٥١٥ .

واستلزمت هذه الحياة كثرة الهجرة والإنتقال من مكان لآخر([1]) . أو بعبارة أخرى أن الظروف المناخية هذه طبعتهم بطابع القبائل الرحالة التى تنتقل فى فترات متتابعة طلبًا لحياة أفضل ،وعلى هذا الأساس فإنهم عندما جاءوا إلى سلطنة المماليك فى مصر كمهاجرين فقد كان هدفهم الأول البحث لأنفسهم عن مأوى ليطيب لهم العيش([2]) .

ومن الدوافع التى أدت إلى هجرات بعض العناصر المغولية خوف أبناء هذه العناصر من اضطهاد بعض حكام المغول لهم، فالمقريزى فى حديثه عن هجرة الأويراتية إلى مصر عام ٦٩٥هـ يقول: "وكان من خير هذه الطائفة أن بيدو بن طرغاى بن هولاكو لما قتل فى ذى الحجة سنة أربع وتسعين وستمائة وقام فى الملك من بعده على المغل الملك غازان محمود بن خربنده بن إيغانى تخوف منه عدة من المغل يعرفون بالأويراتية وفروا عن بلاده إلى نواحى بغداد فنزلوا هناك مع كبيرهم طرغاى وجرت لهم خطوب آلت بهم اللحاق بالفرات فأقاموا بها هنالك وبعثوا إلى نائب حلب يستأذنوه فى قطع الفرات ليعبروا إلى ممالك الشام فأذن لهم وعدوا الفرات..."([3])

أو بعبارة أخرى فإنه لم يكد بايدوخان يتولى العرش الإيلخانى "١٦ جمادى الأولى ٦٩٤هـ - ٢٣ذى الحجة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٥ - ١٢٩٦م" حتى نازعه الأمير غازان بن أرغون، وكان واليا على خراسان. وكانت النتيجة هزيمة بايدو وقتله حسب أوامر غازان الذى تولى العرش، وأخذ يتعقب أتباع

---

(١) السيد الباز العرينى (الدكتور) : المماليك ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٦٧، ص ٥٩، ٦٠ ، Lbid. Op. Cit. pp.90 - 91

(٢) فؤاد الصياد ، نفسه ، جـ١، ص ٢٥ – ٣٤ .

(14) David Ayalon : Op. Cit. p. 90.

بيدو وهم الأويراتية لينزل بهم أشد أنواع الاضطهاد والعذاب ، ففروا صوب مصر وأظهروا رغبتهم فى اعتناق الإسلام لكى يسمح لهم بدخول البلاد.(١)

ومنها ما حدث عام ٧٠٤هـ أيام الناصر محمد بن قلاوون: " وفيها فى تاسع شهر جمادى الأولى وصل من التتار مقدمين ومعهم نحو من مايتى نفر بنسايهم وأولادهم، وذكروا أن فيهم أربعة من سلحدارية غازان ومن جملتهم ابن سنقر الأشقر، وأخبروا أخبار طيبة". وكان السبب فى هذه الهجرة أنهم فروا بسبب خوفهم من أن تتكشف المؤامرة التى دبرها بعض كبار أمراء المغول - ومنهم هؤلاء السلحدارية - ضد غازان خان بعد هزيمة قواته أمام قوات السلطان الناصر محمد فى وقعة مرج الصفر قرب حمص ٧٠٢هـ ." وكان قد تغير على الأمرا المغل والتوامين من أيام الكسرة وشرع يهددهم ويعنفهم فاتفقوا مع زوجته على هلاكه، فسمته فى منديل..."، فخافوا أن ينالهم أشد أنواع الاضطهاد على يد أخيه خدا بندا الذى خلفه على عرش السلطنة عام ٧٠٣هـ(٢).

ولعلنا لا نغالى فى القول فى أن مثل هذه الهجرات قد شجع عليها نجاح السلطان الناصر محمد بن قلاوون فى اتخاذ بعض مسلمى المغول فى المناطق المتاخمة لحدود سلطنة المماليك مع دولة مغول إيران ، ليكونوا عيونا على هؤلاء المغول؛ فقد أشار ابن أيبك إلى أنه فى أواخر عام ٧٠٣هـ

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٢ .

(٢) أبو الفدا (عماد الدين إسماعيل ت٧٣٢هـ) : المختصر فى أخبار البشر ، القسطنطنية ، ١٢٨٦هـ، جـ٤ ، ص ٣٤؛ عبد السلام عبد العزيز فهمى (دكتور) : تاريخ الدولة المغولية فى إيران، دار المعارف ، ١٩٨١ص ١٨٦ - ١٨٩ .

هاجر الأمير جنكلى بن البابا إلى الأبواب العالية السلطانية ، وصحبته جماعة من كبار التتار، من جملتهم أخو الأميرسيف الدين قطلوبك. وكان الأمير جنكلى بن البابا له مدة يكاتب الأبواب السلطانية الشريفة. بالإضافة إلى أن هذه العناصر كان قد ساءها كثيراً غزوات غازان خان التى أدت خراب كثير من بلاد الشام، بما لا يتفق مع إسلامه، بدليل ما جاء فى الرسالة التى وجهها الملك خدابنده أخو غازان إلى الناصر محمد يقول فيها: "إن أخى غازان ما كان له عقل فى خراب البلاد، وكان مسلم الظاهر كافر الباطن ، وما دخوله الشام برضاي ولا برضا أمراء المغل، فلذلك قتله الله تعالى..."(١)

كما كانت السياسة التى اتبعها سلاطين المماليك الأوائل ابتداء من الظاهر بيبرس، لها أثرها الواضح فى تشجيع المغول على الهجرة إلى الديار المصرية . هذه السياسة كان هدفها الأول هو التغلغل داخل صفوف المغول، واستمالة العناصر المناوئة لنظم الحكم القائمة لديهم، بحيث أمكن الاستفادة من رصد كل تحركاتهم الداخلية، وليكون جهاز المخابرات المملوكى على علم بكل حركاتهم وسكناتهم، سواء كانت هذه الاستمالة عن طريق الترغيب أو الترهيب أو بذل الأموال والهدايا. وهذا ما يفسر لنا هجرة عام ٦٧٢هـ، حيث أشار المؤرخ بيبرس المنصورى إلى أنه عندما كان السلطان الظاهر بيبرس فى دمشق ذلك العام وصل إليه الأمير شمس الدين بهادر فى جماعة من أتباعه هاربا من مغول فارس، وذلك لأنه كاتب السلطان مناصحاً، فاطلعوا على أمره وأمسكوه وأرسلوه إلى الأردو، فهرب وقصد الأبواب السلطانية،

(١) ابن ايبك الدوادارى : نفسه ، ص ١٢٨ : ابن أبى الفضائل (المفضل) : كتاب النهج السديد والدر الفريد فيما بعد تاريخ ابن العميد،نشر بلوشيه،باريس١٩١١م، ص٣٠٧.

فأحسن السلطان إليه وأعطاه إمرة عشرين فارساً فى الديار المصرية(١). وظلت هذه السياسة قائمة حتى بعد توقيع الصلح بين الطرفين عام ٧٢٣هـ، إلا أنها اتخذت إتجاهاً جديداً تمثل فى احتضان المناوئين للحكم والخارجين عليه من أمراء المغول فى فارس بوجه خاص، والجدير بالذكر أن هذا الاتجاه استغله سلاطين المماليك فى الحرب الباردة التى كانت مستمرة بين الطرفين، وكرد فعل مضاد لسياسة المغول فى احتضان الفارين من أوجه السلطنة من أمراء العربان والمماليك.

نذكر من ذلك على سبيل المثال ما حدث عام ٧٢٨هـ أيام الناصر محمد ابن قلاوون فى سلطنته الثالثة،حيث تشير المصادر المعاصرة إلى أنه فى هذا العام كان وصول الأمير دمرداش بن جوبان صاحب الروم وما معها . والذى كان أبوه جوبان قد تزعم مؤامرة للإطاحة بعاهل مغول فارس أبى سعيد لكنه فشل، فما كان من أبى سعيد إلا أن أخذ فى مطاردة أولاد جوبان وأقاربه فى كل مكان، فلم يتردد دمرداش هذا فى مكاتبة الأبواب السلطانية " وسير يسأل المراحم الشريفة السلطانية -التى لازالت ملجأ القاصدين وبحر الواردين- فى الدخول إلى الأبواب الشريفة ، فأنعم مولانا السلطان بالجواب بقبول سؤاله." . وعندما وصل إلى الديار المصرية كان فى صحبته عدد كبير من أتباعه من المغول، فأنزلوا بالقلعة المحروسة،ورتب لهم السلطان الرواتب الكثيرة جداً من ساير المآكل الفاخرة، فأقام دمرداش ومن معه فى أنعم عيش وأرغده(٢).

---

(١) ابن أيبك : نفسه ، ص ١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) بيبرس الدوادار المنصورى (ت ٧٢٥هـ) : التحفة المملوكية فى الدولة التركية ، نشره د. عبد الحميد صالح حمدان ، الدار المصرية اللبنانية ، ١٩٨٧ ، ص ٧٨.

كما كان سطوع نجم أحد أبناء العناصر المغولية فى مصر لدى أحد من السلاطين المماليك سببا فى بعض الهجرات الصغيرة، ولنضرب على ذلك بعض الأمثلة. فابن تغرى بردى فى حديثه عن الأمير جنكلى بن البابا يذكر أنه أصبح عظيم الدولة الناصرية محمد بن قلاوون، ورأس الميمنة بعد الأمير أقوش نائب الكرك، ولم يزل هكذا معظماً مبجلا حتى فى عهد أبناء الناصر محمد إلى أن توفى عام ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م(١). وكان هذا أهم الأسباب فى هجرةعام ٧٢٢هـ، حيث قدم البريد فى هذا العام من دمشق بحضور أخت هذا الأمير من الشرق وصحبتها جماعة تتارية، غير أنها ماتت بعد قدومها بثلاثة أيام فاستدعى الناصر محمد بن قلاوون جماعتها هذه إلى القاهرة وأقطع أفرادها إقطاعات من أجل خاطر الأمير جنكلى(٢). وكذلك الحال بالنسبة للأمير يلبغا اليحياوى الذى حظى كذلك عند أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون، فاستقدم والده الأمير سيف الدين طابطا بن عبد الله وولديه الأمير سيف الدين أسند مر بن عبد العمرى، والأمير قراكز وبعض أهله إلى الديار المصرية(٣). وما يشير إليه ابن حجر العسقلانى فى ترجمته للأمير ظهر بغا المغلى، أحد الأمراء بالديار المصرية والذى حضر إلى القاهرة عام ٧٢٦هـ، فقدمه السلطان وكان يقرأ على السلطان كتب بوسعيد التى ترد بالمغلى ويكتب الأجوبة وكان يفد عليه من أقاربه على مدى الأيام من عشرة إلى مائة فيبرهم ويصلهم وظل هكذا إلى أن توفى عام ٧٣٨هـ(٤).

---

(١) ابن أيبك : نفسه ، ص ٣٤٦ - ٣٤٨ .

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل جـ ٥ ، ص ٢٢ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ص ٢٣٦ ؛ السيد الباز العرينى : نفسه ، ص ٦٢.

(٤) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٦ ، ص ٣٦٨ .

كذلك تشير المصادر المعاصرة إلى أنه كان من نتيجة عقد الصلح بين سلطنة المماليك فى مصر على أيام الناصر محمد بن قلاوون وبين مغول إيران ، أثره الواضح فى جذب أعداد كبيرة من مغول إيران إلى مصر والإقامة بها، لما وجدوه من ترحيب وحسن عيش ، وترغيب من أقاربهم بها، إلى جانب ما لقوه من ترحابٍ من السلطات الحاكمة فى مصر ، والاستفادة منهم ومن خبراتهم الحربية التى أهلتهم للإنخراط فى سلك الجندية ، وتوليهم المناصب المختلفة ، فضلاً عن الإقطاعات والإمرة(١) .

كما كان لكوارث الطبيعة ونكباتها من حدوث قحط شديد أو مجاعات يتبعها فى الغالب انتشار كثير من الأوبئة والطواعين ، أثره الواضح فى هجرات أبناء العناصر المغولية إلى سلطنة المماليك بوجه عام والديار المصرية بوجه خاص ، ذلك لأنها كانت أكثر خصبًا وأوفر ثروة من المواطن التى تسكنها العناصر المغولية المختلفة فى ذلك العصر(٢) خصوصًا وأن دولة الإيلخانيين كان قد أصابها الكثير من الخراب ، وتوقفت المؤسسات الحكومية عن العمل السليم الجاد فى بداية عهد السلطان أبى سعيد ، وانشغال رجال الحكم والبلاط بمشاكلهم الخاصة ، وكثرة تغيير الوزراء ، مما كان سببًا فى إغارة بعض أمراء المغول من حكام الدولة الجغتائية فى التركستان والقبيلة الذهبية فى جنوب روسيا على أطراف الدولة الإيلخانية . ومحاولتهم المتكررة الاستيلاء على السلطة والعرش الإيلخانى ، وجاءت كوارث الطبيعة

(١) ابن حجر العسقلانى (شهاب الدين أحمد ت ٨٥٢ هـ) : الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، حيدر أباد الدكن ١٣٤٨هـ ، جـ٢ ، ص ٣٣٨ .

(٢) ابن حجر : نفسه ، جـ٢، ص ٣٣٧ – ٣٣٨ ؛ جـ٣ ، ص ١٢٦ – ١٢٧ .

لتزيد الطين بلة[1] . ذلك أنه نزل بآسيا الصغرى فى عامى (٧١٨هـ / ١٣١٨م ، ٧١٩هـ / ١٣١٩م) قحط شديد ومجاعة مخيفة ، ثم تلى ذلك عام (٧٢٠هـ / ١٣٢٠م) أعاصير مدمرة وزوابع غريبة[2] وهذا يفسر لنا السبب فى الهجرات التى تمت فى أعوام من (٧١٧هـ / ٧١٨، وحتى ٧٢٨هـ) والتى سبق أن أشرنا إليها . وفى سنة (٧٤١هـ / ١٣٤٠م) وهى السنة التى توفى فيها السلطان الناصر محمد بن قلاوون جاءت موجة كبيرة من الهجرات من أبناء العناصر المغولية بسبب المجاعة التى انتشرت فى بلاد الشرق . فجاء عالم عظيم من المغول حيث وفدوا إلى شواطىء نهر الفرات وإلى أقليم حلب . فتدفقوا إلى إقليم حلب وبعض الأقاليم الأخرى فى بلاد الشام . ووصلت منهم مجموعة إلى مصر ، فأخذ السلطان بعضهم وضمهم إلى مماليكه السلطانية ، وأعطى بعضهم للأمراء[3] .

وأخيرًا تجب الإشارة إلى أنه كان لمصر جاذبيتها الخاصة لدى كل مسلم ، وبوجه خاص منذ أن غدت مقرًا للخلافة العباسية ، مما حفز بعض المسلمين من مغول فارس ، والقفجاق إلى الوفود إليها ، ورغبوا فى الاستقرار فيها من ذلك ما يشير إليه ابن الفرات عام (٦٨١هـ / ١٢٨٢م) فى عهد السلطان المنصور قلاوون من قول : "وفيها وفد إلى خدمة السلطان المنصور بمصر المحروسة شخص من أولاد الأويراتية يسمى الشيخ على كان قد دخل فى دين الإسلام وخدم المشايخ وعانا أسباب الرياضة والإنقطاع

---

(١) فؤاد الصياد : نفسه ، جـ١ ، ص ٣١ ، ٣٣.

(٢) عبد السلام عبد العزيز فهمى : نفسه ، ص ٢٢٢ – ٢٢٣ .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٣ ، ص ٢٥٠ ؛ المرجع السابق : ص ٢٣٠ .

فظهرت له كرامات الفقراء فتبعه جماعة من أولاد المغل فخرج بهم من تلك البلاد إلى الشام ثم إلى الديار المصرية ومثلوا بين يدى الملك المنصور فأحسن إليهم منهم الأقوش وتمر وعمر ثلاثة إخوة وجويان وجماعة رتب الملك المنصور بعضهم فى جملة الخاصكية وتنقلوا إلى الإمرة ثم ظهر من الشيخ على أمور أنكرت عليه فسجن الأقوش ومات تمر وعمر فى الخدمة...."(١) وهناك بعض إشارات فى المصادر المعاصرة عن هجرة بعض أبناء العناصر المغولية من المسلمين إلى مصر ليعيشوا فى منطقة إسلامية بعيدًا عن عبدة الأصنام والكواكب سواء من بلاد التتار الشمالية أو مغول إيران قبل إسلامهم بالكامل(٢).

---

(١) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ص ٥١٥-٥١٦ ؛

David Ayalon : Op. Cit. pp. 101-103.

(٢) ابن الفرات (ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم) : تاريخ ابن الفرات ، تحقيق د. قسطنطين رزيق ، بيروت ، ١٩٤٢ ، جـ٨ ، ص ٩٥ .

أثر الهجرات المغولية فى الحياة الثقافية :

لعبت العناصر المغولية التى جاءت إلى مصر دورًا هامًا وبارزًا فى الحياة الثقافية بشتى جوانبها المختلفة وتأثروا بما شهدته البلاد من ازدهار ثقافى فى ذلك العصر . ولعل أول ما يشد انتباه الباحث هو حرصهم الشديد على المساهمة فى شتى نواحى الحياة الثقافية ، وتشييد كثير من المنشآت الثقافية التى تحمل أسماءهم ، والتى خصصوا لها الكثير من الوقاف حتى تؤدى رسالتها على خير وجه . ولم يكن هذا الحرص قاصرًا على الرجال منهم ، بل شاركهم فيه كثير من النساء كذلك(1). وفى تصورنا أن مبعث هذا الحرص لم يكن اعتناقهم الإسلام فحسب ، بل والعمل على أن ينسى لها معاصروهم ماضيهم المرير ، عندما خرج آباؤهم من مواطنهم الأولى ودمروا مراكز الحضارة الإسلامية الأولى التى دانت لهم بالخضوع(2) كما أنهم كانوا مجرمين بسبب ما اقترفوه هم وآباؤهم من ضروب القسوة البالغة التى أدت إلى انقراض دول ، وذهاب عروش ، وتقتيل آلاف عديدة من السكان ، وتخريب أمهات المدن ، وكان عليهم أن يصلحوا ما أفسدوه هم وأسلافهم ، فضلاً عن أنهم أدركوا أن مركز الدراسات الإنسانية كان قد انتقل إلى مصر بعد سقوط بغداد ، فأقبلوا يساهمون نصيبهم فى إنهاض الحضارة الإسلامية فى شتى مظاهرها(3). فآثارهم المعمارية والتى ظلت قائمة طوال

---

(1) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ9 ، ص ٢٢٦ .

(2) المقريزى : الخطط ، جـ1 ، ص ١١٩ .

(3) فؤاد الصياد : المغولى فى التاريخ ، جـ 1 ، ص ١٢ - ١٥ .

العصر المملوكى تعتبر فى الواقع من أهم الشواهد الحية على مدى إسهاماتهم فى هذا المجال .

لقد تنوعت المؤسسات الثقافية التى بنوها ما بين مكاتب الأطفال (كتاتيب) ، ومدارس أى الكليات الجامعية بمصطلح عصرنا الحديث ، وبيوت للصوفية من زوايا وربط وخناقاوات ، وجوامع وغيرها من الأماكن التى كانت تعقد فيها حلقات التدريس ؛ وقد وجدت هذه المؤسسات التعليمية فى الأوقاف التى حبسوها عليها خير دعامة تشد أزرها ، وتمكنها من البقاء والاستمرار فى أداء رسالتها على الدوام . أو بعبارة أخرى فإن حياة كل من المكتب والمدرسة والزاوية والتربة والمسجد لم تكن رهنا بحياة مؤسسها ، حيث كان يوقف عليها من الأوقاف ما يضمن به لها الاستمرار فى أداء رسالتها عقب وفاته ، وهذه الأوقاف قد تكون أرضًا زراعية أو عقارات أو حوانيت فى الأسواق ، أو حمامات أو رباع تدر دخلاً ثابتًا ينفق منه على صيانتها ودفع مرتبات العلماء وطلبة العلم والصوفية ، والقومية من مؤذنين وخدام وبوابين وفراشين وغيرهم . بالإضافة إلى ما كان ينفق من ريع هذه الأوقاف فى سبيل التوسعة عليهم فى شهور رجب وشعبان ورمضان من كل عام ، وإذا تبقى بعد ذلك شيء فإنه كان على الناظر على هذه الأوقاف أن يصرفه فى وجوه البر والقربات والأجر والمثوبات ثم للفقراء والمساكين أينما كانوا وحيثما وجدوا[1] .

وتأتى المدارس فى مقدمة المؤسسات التعليمية التى قاموا بتشيدها فى مصر فى ذلك العصر . والتى واكبت ازدهار النشاط الفكرى وتنوعه عند

---

(١) المرجع السابق ، والصفحات ذاتها .

المسلمين ، واستوعبت العلوم والدراسات المتعددة ، وعاش فى جنباتها العلماء وطلاب العلم عيشة هادئة مستقرة مكنتهم جميعًا من مواصلة رسالتهم فى انتظام ، وغدت بمثابة جامعات بالمعنى الحديث الذى نعرفه ، سواء من ناحية تنوع الدراسات التخصصية ورقى مستواها ، وقدرتها على استيعاب طلاب العلم الوافدين إليها ، فضلاً عن أنها تميزت غالبًا بمساكن لطلاب العلم والمدرسين ، وغالبًا ما كان يلحق بها سبيل للشرب، يعلوه مكتب (كتاب) لتعليم الأطفال ، بالإضافة إلى وجود مرافق لخدمة النازلين بها(١) .

من هذه المدارس ، تلك المدرسة التى شيدها الأمير - شمس الدين آق سنقر الفارقانى (ت ٦٧٧هـ / ١٢٨٧م) أحد كبار الأمراء أيام السلطان الظاهر بيبرس ، بناها بالقرب من داره داخل باب سعادة بالقاهرة(٢) يقول عنها المقريزى : "هذه المدرسة بابها شارع فى سويقة حارة الوزيرية من القاهرة فتحت فى يوم الأثنين رابع جمادى الأولى سنة ست وسبعين وستمائة وبها درس للطائفة الشافعية ودرس للطائفة الحنفية أنشأها الأمير شمس الدين آق سنقر الفارقانى السلاحدار...."(٣) .

---

(١) كامل جميل العسلى (دكتور) : وثائق مقدسية تاريخية ، طبع عمان ١٩٨٣م، جـ١ ، ص ١٨٠ - ١٢٠ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٨٩ ؛ د. سعيد عبد الفتاح عاشور : (التعليم العالى فى العصور لوسطى) من كتاب بحوث ودراسات فى تاريخ العصور الوسطى ، بيروت ، ١٩٧٢م، ص ٤٣٩ - ٤٤٧ .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى ، الهيئة المصرية للكتاب ، ١٩٧٢ ، جـ٢ ، ص ٤٩٦ .

والمدرسة الحسامية ، التى بخط المسطاح من القاهرة قريبا من حارة الوزيرية ، نسبة إلى الأمير حسام الدين طرنطاى المنصورى (ت ٦٨٩هـ / ١٢٩٠م) نائب السلطنة بديار مصر ، بناها إلى جوار داره وجعلها برسم الفقهاء الشافعية ، وفى منتصف القرن التاسع الهجرى ، الخامس عشر الميلادى كانت موجودة فى مواجهة سوق الرقيق(١) .

والمدرسة الآقبغاوية بجوار الجامع الأزهر ، على يسرة من يدخل إليه من بابه الكبير البحرى ، وفى عصر المقريزى أصبحت داخل باب الجامع على اليسار حيث المكتبة ، بناها الأمير علاء الدين آقبغا بن عبد الله من عبد الواحد الناصرى (ت ٧٤٤هـ / ١٣٤٣م) أحد مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وأخو زوجته خوند طغاى(٢) قرر فيها درسًا للشافعية ، ودرسًا للحنفية ، وجعل فيها عدة من الصوفية ولهم شيخ ، وقرر بها طائفة من القراء لقراءة القرآن الكريم بسباكها ، وجعل لها إمامًا راتبًا ومؤذنًا وفراشين وقومة ومباشرين ، وجعل النظر عليها للقاضى الشافعى بدير مصر ، ووقف عليها حوانيت خارج باب زويلة بخط تحت الربع وقرية بالوجه القبلى(٣) .

والمدرسة الدوادارية ، التى بناها الأمير ركن الدين بيبرس بن عبد الله المنصورى صاحب التاريخ المعروف (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م) ، أوقف عليها عدة أوقاف وعلى وجوه البر المختلفة ، ورتب فيها درسًا للحنفية ، هذه المدرسة بسويقة العزى خارج باب زويلة من القاهرة(٤) . والمدرسة

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٦٩ .
(٢) المصدر نفسه ، جـ ٢ ، ص ٣٨٦ .
(٣) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٢ ، ص ٤٨٠ - ٤٨١ .
(٤) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٣٨٣ - ٣٨٤ .

القراسنقرية تجاه خانقاه سعيد السعداء فيما بين رحبة باب العيد وباب النصر . أنشأها الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى (ت ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م) عام سبعمائة ، وبنى بجوارها مسجدًا معلقًا ومكتبًا لإقراء أيتام المسلمين ، وجعل بهذه المدرسة درسًا للفقهاء الحنفية ووقف على ذلك داره التى بحارة بهاء الدين(١) .

والمدرسة الفارسية ، بخط الفهادين من أول العطوفية بالقاهرة ، فى أرض كانت عليها كنيسة قديمة تعرف بكنيسة الفهادين ، فهدمها الأمير فارس الدين ألبكى فى سنة ست وخمسين وسبعمائة ، وبنى موضعها المدرسة التى نسبت إليه ، ووقف عليها وقفا بمصالحها وبما تحتاج إليه من جميع الوجوه(٢) .

والمدرسة الأيتمشية (هذه المدرسة خارج القاهرة داخل باب الوزير تحت قلعة الجبل برأس التبانة أنشأها الأمير الكبير سيف الدين أيتمش البجاسى ثم الظاهرى فى سنة خمس وثمانين وسبعمائة ، وجعل بها درس فقه للحنفية وبنى بجانبها فندقًا كبيرًا يعلوه ربع ، ومن ورائها خارج باب الوزير حوض ماء للسبيل وربعًا ، وهى مدرسة ظريفة....)(٣) .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ٢٦٣ - ٢٦٤؛ المقريزى : المقفى الكبير ، تحقيق محمد البعلاوى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ١٩٩١م ، جـ٢ ، ص ٥٣١ - ٥٣٣.

(٢) المقريزى : المقفى الكبير ، جـ٢ ، ٣٨٨ .

(٣) المصدر السابق ، نفسه ، جـ٢ ، ص ٣٩٣ .

كما تأتى بيوت الصوفية كأحد المؤسسات التعليمية التى أدت دورًا فى الحياة الثقافية فى ذلك العصر ، إذ كان كل بيت من بيوت الصوفية من زوايا وربط وخانقاوات ، يعتبر بمثابة وحدة ثقافية قائمة بذاتها يتدارس فيه الصوفية كثيرًا من العلوم الدينية سواء فى الفقه كل على مذهبه ، أم علوم القرآن وعلوم الحديث النبوى ، إلى جانب غيرها من علوم العربية والسيرة والأدب ، ويقوم مشايخ الصوفية بدور فعال فى تدريس هذه العلوم وغيرها ؛ بل وفى تعليم الأطفال أحيانًا . بل إن كثيرًا من كبار مشايخ الصوفية قد كان لهم حظ وافر فى النشاط المكتبى ، وتزويد مكتبات بيوت الصوفية بالكثير من مؤلفاتهم العديدة ، أو التى كانت من مقتنياتهم الخاصة والتى حبسوها على تلك البيوت ليستفيد منها طلبة العالم من الصوفية(١).

من هذه البيوت التى بناها أمراء من أصل مغولى نذكر الخانقاه التى تنسب إلى الأمير بهاء الدين أرسلان الناصرى الدوادار (ت ٧١٧ هـ/ ١٣١٧م) أحد مماليك الأمير سلار نائب السلطنة (ت ٧١٠هـ/ ١٣١٠ م) بناها بخط منشأة المهرانى فيما بين القاهرة ومصر ، ورتب بها شيخاً وصوفية، وجعل لها أوقافاً جارية، وكان ينزل إليها من القلعة فى كل ليلة ثلاثاء فيبيت بها، ويحتفل الناس بالحضور إليه(٢) ومنها خانقاه قوصون، هذه الخانقاه فى شمال القرافة مما يلى قلعة الجبل تجاه جامع قوصون أنشأها الأمير سيف الدين قوصون وكملت عمارتها فى سنة ست وثلاثين وقرر فى مشيختها

---

(١) نفسه ، جـ٢، ص٤٠٠.

(٢) العجيمى (حسن بن على بن يحيى ت ١١٠٣هـ) : خبايا الزوايا المعمورة بمكة المشرفة ، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٢٤١٠ تاريخ ، ورقة ١، ٢، ٩، ٣٣.

الشيخ شمس الدين أبا الثناء محمود بن أبى القاسم أحمد الأصفهانى ورتب له معلوماً سنياً من الدراهم و الخبز واللحم والصابون والزيت وسا ئر ما يحتاج إليه حتى جامكية غلام بغلته واستقر ذلك فى الوقف من بعده لكل من ولى المشيخة بها وقرر بها جماعة كثيرة من الصوفية ورتب لهم الطعام واللحم والخبز فى كل يوم وفى الشهر المعلوم من الدراهم ومن الحلوى والزيت والصابون ومازالت على ذلك إلى أن كانت المحن من سنة ست وثمانمائة فبطل الطعام والخبز منها وصار يصرف لمستحقيها مال من نقد مصر وتلاشى أمرها من بعد ماكانت من أعظم جهات البر وأكثرها نفعاً وخيراً(١).

وخانقاه طغاى النجمى ، هذه الخانقاه بالصحراء خارج باب البرقية فيما بين قلعة الجبل وقبة النصر ، أنشأها الأمير طغاى تمر النجمى (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) دوادار الملك الصالح إسماعيل بن محمد بن قلاوون وأخويه الملك الكامل شعبان ، والمظفر حاجى ، كانت من المبانى الجليلة، رتب بها عدة من الصوفية وجعل شيخهم الشيخ برهان الدين الرشيدى وبنى بجانبها حماماً وغرس فى قبليها بستاناً وعمل بجانب الحمام حوض ماء للسبيل ترده الدواب ووقف على ذلك عدة أوقاف .... ومنها رباط الست كليلة المدعوة دولاى ابنه عبد الله التتارية ، زوج الأمير سيف الدين البرلى السلاحدار الظاهرى وجعله مسجداً ورباطاً، ورتب فيه إماماً ومؤذناً وذلك فى ثالث عشرى شوال سنة أربع وتسعين وستمائة (٢) .

---

(١) المقريزى : المقفى ، جـ٢، ص١٧ - ١٨.

(٢) المصدر السابق، الخطط، جـ٢، ٤٢٥.

وتجدربنا الإشارة إلى أن المساجد فى العصر المملوكى قامت بدور فعال فى الحياة الثقافية ، فهى إلىجانب كونها أحد المراكز الثقافية الهامة للتعليم ونشر المذهب السنى ، فهى قلب المجتمع النابض ، وعقله المفكر وإرادته الدافعة وضميره الوازع ، ولعل خير من عبر عن هذه الحقيقة الفقيه المعاصر أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى الفاسى المالكى الشهير بابن الحاج (ت٧٣٧هـ / ١٣٣٦م) . عندما قال إن أماكن التدريس ثلاثة هى البيت والمدرسة والمسجد إلا الفائدة من التدريس فيه أن تظهر به سنة أو تخمد به بدعة أو يتعلم به حكم من أحكام الدين ، والمسجد خير مكان تتوافر فيه الفوائد لأنه موضع مجتمع الناس"(١) .

أما عن الجوامع والمساجد التى قاموا بتشييدها فى مصر ، فنذكر منها الجامع الذى عمره الأمير سيف الدين كراى المنصورى سنة (٧٠١هـ / ١٣٠١م) ، والذى ذكره المقريزى فى خططه باسم جامع كراى وقال عنه: "هذا الجامع بالريدانية خارج القاهرة عمره الأمير سيف الدين كراى المنصورى فى سنة إحدى وسبعمائة لكثرة ما كان هناك من السكن فلما خربت تلك الأماكن تعطل هذا الجامع وهو الآن قائم وجميع ما حوله داثر وعما قليل يدثر..." (٢) ويستفاد مما رواه صاحب بدائع الزهور أنه كان عامراً لغاية التاسع الهجرى ، الخامس عشر للميلاد ، وهو الجامع الذى يعرف باسم جامع الكومى بشارع الوايلية الصغرى بقسم الوايلى بالقاهرة ،

---

(١) نفسه ، جـ٢، ص٤٢٥ الخطط، جـ٢، ص٤٢٨.

(٢) ابن الحاج (أبو عبد الله محمد العبدرى ت ٨٣٧هـ) : المدخل إلى الشرع الشريف على المذاهب، القاهرة ١٩٢٩م، جـ١، ٨٥.

ويعرف بجامع الكومى نسبة إلى الشيخ على أبى منصور الكومى الذى عمل به فترة كبيرة من الزمن(١) .

وجامع الأمير الماس الحاجب الناصرى (ت ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م)"هذا الجامع بالشارع خارج باب زويلة بناه سيف الدين الماس الحاجب وكمل فى سنة ثلاثين وسبعمائة وكان ألماس هذا أحد مماليك السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون فرقاه إلى أن صار من كبار الأمراء"(٢)، وهو لا يزال قائماً فى شارع الحلمية من جهة محمد على، بدأت عمارته سنة(٧٢٩هـ / ١٣٢٨م) وأتمه سنة (٧٣٠ هـ / ١٣٢٩م)(٣).

وجامع قوصون، الذى بناه الأمير الكبير سيف الدين قوصون (ت ٧٤٠هـ / ١٣٣٩م) الذى حضر من بلاد بركة خان، أى بلاد مغول القفجاق صحبة خوند ابنه ازبك التى تزوجها السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة (٧٢٠ هـ / ١٣٢٠م)" هذا الجامع بالشارع خارج باب زويلة ابتدأ عمارته الأمير قوصون فى سنة ثلاثين وسبعمائة وكان موضعه دار بجوار حارة المصامدة من جانبها الغربى تعرف بدار أقواش نميله ثم عرفت بدار الأمير جمال الدين قتال السبع الموصلى فأخذه من ولدها وهدمها وتولى بناءه شاد العمائر واستعمل فيه الأسرى وكان قد حضر من بلاد توريز بناء فبنى متذنتى هذا الجامع على مثال المئذنة التى عملها خواجا على شاه وزير

(١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص٣٢٥.

(٢) ابن إياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور، نشر جمعية المستشرقين الألمانية بالقاهرة ، ١٩٦٠ - ١٩٧٢م ، جـ٢، ص٢٧٧.

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩، ص٢٠٠، حاشية١.

السلطان أبى سعيد فى جامعه بمدينة توريز وأول خطبة أقيمت فيه يوم الجمعة من شهر رمضان سنة ثلاثين وسبعمائة..."(١).

كانت هذه بعض الأمثلة للمنشآت الثقافية التى أنشأها بعض الأمراء المغول الأصل ، والتى تشهد لهم بمدى مساهمتهم فى إثراء الحياة الثقافية فى مصر فى العصر المملوكى بما أدته من دور فى إنهاض الحياة الثقافية، وبما حبسوه عليها من أوقاف ساعدتها على أداء رسالتها فى ذلك العصر، سواء فى حياة واقفيها أو بعد مماتهم.

وباستثناء ما شيده من مؤسسات تعليمية فإن العناصر المغولية الأصل قامت بعدة جهود واضحة فى مجال الحياه الثقافية ، وشاركوا مشاركة فعالة فى كثير من نواحى تلك الحياة. وهنا يجب أن نشير إلىصغار أبناء هذه العناصر الذين كانوا يصلون إلى مصر فى ذلك العصر، وبسبب ما كان يتوسم فيهم من الخير إما لنجابتهم أو ذكائهم أو لميزة يراها فيهم من اشتراهم من السلاطين وكبار الأمراء المماليك فكانوا يلحقونهم بالمكاتب أى الكتاتيب مع أبنائهم ليتعلموا القراءة والكتابة ويحفظوا القرآن وبعض القرآن الكريم وبعض الأحاديث النبوية ، مثال ذلك ما تشير إليه بعض المصادر من أن الأمير سيف الدين قلاوون - ولم يكن قد تولى السلطنة بعد - عندما اشترى بيبرس المنصورى عام (٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م) فقد أرسله إلى المكتب مع أبنائه ولم يدخله الطباق مع سائر المماليك ، فدخل بذلك فى زمرة أرباب الجامكيات

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ٢، ص٣٠٧؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩، ص٢٠٦ - ٢٠٧.

، وهم الذين يمثلون المماليك ذوى المرتبات المنتظمة ، وكانوا يسمون المماليك الكتابية أرباب الجامكيات ، أى المماليك الذين أرسلوا إلى المكتب . وكذلك ما تشير إليه المصادر المعاصرة من أن الأمير سيف الدين كوندك الساقى ، والذى تولى نيابة السلطنة فى عهد الملك السعيد محمد بركة خان الظاهر بيبرس لقى تعليمه وتربى فى المكتب مع الملك السعيد هذا عندما كانا طفلين(1). كما أن الجيل الثانى على الأقل من بناء الوافدين منهم تعلم اللغة العربية، وحفظ القرآن الكريم فى المكاتب وكانت لهم مساهماتهم فى كثير من أوجه النشاط الثقافى فى ذلك لعصر، وهذا ما سوف نوضحه فى السطور القليلة القادمة ، أما عن الجيل الأول من هؤلاء المغول فقد احتفظوا بلغتهم الأصلية كلغة للتخاطب والتعامل فى الحياة اليومية، وعلموها أبناءهم. أو بعبارة أخرى إن هجرات المغول إلى مصر كانت من ذلك النوع الذى يتسم فيه المهاجرون بسمة التكيف مع المهجر، حيث كان كثير من أبناء هؤلاء المهاجرين وأحفادهم يستمرون فى دولة المهجر مكونين بذلك جيلاً من المهاجرين الدائمين أكثر ارتباطاً بالمهجر من ارتباطهم بالوطن الأم(2). لذا لا غرابة أن نسمع عن كثير منهم بعد أن أتموا تعليمهم سواء فى "الكتايب" المكاتب، أم فى الطباق ، أنهم واصلوا تعليمهم وبخاصة فى العلوم الدينية ، فمنهم من حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب وحرص على تجويده، ومنهم من

---

(1) المصدر السابق ، نفسه ، جـ2، ص327 - 347، بيبرس الدوادار : التحفة المملوكية ، ص 7.

(2) ابن الفرات : نفسه ، جـ8، ص 95.

برع فى الفقه والحديث والأدب ونظم الشعر[١] فقد اشتهر الأمير محمد بن جنكى بن البابا المتوفى سنة(٧٤١هـ - ١٣٤٠م) بأنه درس الحديث والطبقات وقارف النظم[٢]. ومن الأمراء المغول الذين كانت لهم مشاركات فى فنون القول وبخاصة إقراض الشعر الأمير سيف نوغاى "توغيه" أحد كبار الأمراء فى عصر الناصر محمد بن قلاوون. فعندما توجه إلى الناصر محمد بعد أن تخلى عن السلطنة، وعندما سأله الناصر محمد عن سبب قدومه فى ذلك الحين إلى عقبة أيلة حيث كان الناصر يتصيد بها فانشأ نوغيه يقول :

أنت المليك وهذه أعناقنا خضعت لعز علاك ياسلطانى

أنت المرجى يا مليك فمن لنا أسد سواك ومالك البلدان

بالإضافة إلى عدة أبيات أخرى، ثم حكى له ما وقع له منذ خرج الملك الناصر من مصر إلى يوم تاريخه[٣] ومنهم من كان شغوفاً باقتناء الكتب فى أنواع العلوم المختلفة ، نذكر منهم على سبيل المثال الأمير بدر الدين بيدار بن عبد الله المنصورى (ت ٦٩٣هـ / ١٢٩٣م) نائب السلطنة بالديار المصرية فى دول الأشراف خليل بن قلاوون. "كان بيدار جليل القدر، ويرجع إلى دين وعقل وعدل وكان يحب جمع الكتب فى انواع العلوم ، واقتنى منها

(١) فتحى محمد أبو عيانة (دكتور) : جغرافية السكان، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٦م، ص ٢٨٤.

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى، جـ١، ص٤٠٤؛ السخارى (شمس الدين ٩٠٢هـ) : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، القاهرة ١٩٣٤ - ١٩٣٦، جـ٣، ص٣٣؛ السيد الباز العرينى؛ نفسه ن ص ٩٤ - ٩٥.

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل، جـ٣، ص١٤١.

جمله واستنسخ جمله أيضاً وكان يحب الفضلاء وأهل العلم ويقدمهم ويكرمهم، وهو الذى خرج على الأشراف خليل بن قلاوون وقتله هو والأمير حسام الدين لاجين..."(١).

ومنهم من حرص على عقد مجالس العلم المختلفة وتقريب العلماء إليه أمثال الأمير الجاى بن عبد الناصرى الدوادار (ت٧٣٢هـ / ١٣٣١م)، أحد مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون الذى كان يحب الفضلاء، ويميل إليهم، ويقضى حوائجهم، وينامون عنده ويبحثون ويسمع كلامهم ويتعاطى معرفة علوم كثيرة..."(٢).

ومن المرجح كذلك أن بعض أبناء العناصر المغولية التى وفدت على مصر كان لهم دراية بالطب، ولعلهم مارسوه فى نطاق الجيش المملوكى، ودليلنا على ذلك ما أشارت إليه بعض المصادر المعاصرة، فقدجاء فى ترجمة الأمير سيف الدين عبد الله الذى توفى عام (٦٨٠هـ/ ١٢٨١م) فى عهد المنصور قلاوون لقب "الحكيمى" أيد غمش بن عبد الحكيمى، يلقب سيف الدين" ، إذ أن لقب الحكيمى" هذا وكما هو معروف من ألقاب النسبة إلى المهنة، وبما يفيد أنه اشتغل حكيماً أو طبيباً، أو كانت له بعض الممارسات الطبية، وهو أحد كبار الأمراء بالديار المصرية ، وكان ضمن جماعة أمراء المغول الذين اتفقوا مع الأمير سيف الدين كوندك نائب السلطنة فى عهد الملك

---

(١) المصدر السابق : النجوم ، جـ٨، ص ٢٥٤.

(٢) المصدر السابق: المنهل ، جـ٣، ص٤٩٣ - ٤٩٤.

السعيد بركة بن الظاهر بيبرس على قتل المنصور قلاوون، وقبض عليه وقتله المنصور قلاوون ضمن من قتل من الأمراء المتآمرين([1]).

وفى القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر الميلادى، أى فى دولة المماليك الثانية أو الجراكسة كان أبناء العناصر المغولية يلعبون دوراً هام فى الحياة الثقافية ، وشاركوا فيها بنصيب وافر، فقد كان منهم بعض كبار الفقهاء فى ذلك العصر، حيث تذكر بعض المصادر المعاصرة منهم: "أحمد بن عبد الله بن الحسن بن كوغان بن عبد الله الشهاب الأوحدى - نسبة لبيبرس الأوحدى نائب القلعة لكون جده لما قدم من بلاد الشرق سنة عشر وسبعمائة اتصل بخدمته وناب عنه بالقلعة فشهر به - القاهرة المقرئ الشافعى الأديب المؤرخ ولد فى المحرم سنة.... ورافق شيخنا (يقصد ابن حجر العسقلانى) فى بعض ذلك وكتب بخطه وبرع فى القراءات والأدب وجمع مجاميع واعتنى بالتاريخ وكان لهجابه وكتب مسودة كبيرة لخطط مصر والقاهرة تعب فيها وأفاد وأجاد وبيض بعضها فبيضها التقى المقرزى ونسبها لنفسه مع زيادات، وله نظم كثير قال شخنا سمعت من نظمه وفوائده... كان بزى الأجناد قليل ذات اليد. مات فى تاسع جمادى الأول سنة إحدى عشرة وثمانمائة..." ([2]) وواضح من هذا النص أن الشهاب الأوحدى هذا من أصل مغولى.

---

(١) المصدر نفسه: المنهل، جـ٣، ص ٣٩ - ٤٤.

(٢) ابن الفرات : نفسه ، جـ٧، ص ٢٣٦.

ومنهم (أحمد بن على بن قرطاى الشهاب أبو الفضل بن العلاء بن السيف المصرى الحنفى سبط محمد بن بتمر الساقى الحنفى ويعرف بسيدى أحمد بن بكتمر ولد فى يوم الأحد ثالث عشرى شعبان سنة ست وثمانين وسبعمائة بالقاهرة ونشأ بها فى ترف زائد ونعمة سابغة وثورة ظاهرة من إقطاع أوقاف كثيرة جداً حتى أن غلته تزيد على عشرة دنانير كل يوم فيما قيل ومع ذلك فلا يزال فى دين كثير لكونه يقتنى الكتب النفسية بالخطوط المنسوبة والجود المتقنة وغير ذلك من الآلات البديعة والقطع المنسوبة الخط وقد اشتغل فى الفنون وأتقن صنائع عدة وبرع فى الفقة وكتب على العلاء بن عصفور فبرع فى الكتابة وفنونها حتى فاق فى المنسوب لا سيما فى طريقة ياقوت...وأكثر النظر فى التاريخ والأدبيات وقال الشعر الجيد وهو ممن قرض سيرة المؤيد لابن ناهض. وكان فاضلاً أديباً شاعراً لطيفاً حسن المحاضرة صبيح الوجه محباً فى الفضائل والتحف ذا ذهن وقاد مع السمن الخارج عن الحد.... توفى عاشر ذى القعدة سنة إحدى وأربعين وثانمائة..." ولقد ظهر له بعد موته من الكتب النفيسة والتحف ما أدهش الناس([1]).

ومنهم (أحمد بن نوكار الشهابى الناصرى نشأ فقرأ القرآن القدورى والمنار وألفية النحو والشاطبية عند فارس الآتى وعرض على شيخنا (ابن حجر العسقلان) والعينى وغيرهما بل عرض على الظاهر جقمق وأنعم على فقيهه بمائة دينار وزاد جامكيته وأخيه، ... واشتغل بالتجويد وغيره وكذا اختص بأخرة بالجلال السيوطى وأخذ عنه فنون ويذكر بصلاح

(١) السخاوى : الضوء اللامع، جـ١، ص٣٥٨.

وورع وتحر عقل وانعزال وتودد وبلغنى أن الأشرف قايتباى جعـل نظر جامعـه باكبش له"(١) هؤلاء وغيرهم ممن تذكرهم المصادر المعاصرة مـن سـلالة العناصر المغولية الذين نشأوا فى الإسلام فى مصر، فحفظـوا القرآن الكريم ودرسـوا الفقه وتتلمذوا علـى أيدى مشـاهير ذلك العصـر فـى النحـو والعربية والحديث، بل إن منهم من اشتغل بعلم الحديث النبوى الشـريف حتّى برع فيه وتولى تدريسه فى المدارس الشهيرة مثل المدرسة الظاهرة نسبة إلـى الظاهر بيبرس(٢).

ونظـراً لطبيعـة العلاقـات المضطربـة بيـن دولتـى الممـاليك فـى مصـر والمغول فى غيران، قبل أن يتـم الصلـح بينهمـا فـى عهـد النـاصر محمـد بـن قلاوون، وما قام به هؤلاء المغول من محاولات متكررة للاعتداء على البلدان الإسـلامية الخاضعـة لسطنة الممـاليك فـى مصـر، فكـان لا بـد لمؤرخينـا المعاصرين من أن يبرزوا هذه الأحـداث، وأن يسـتقصوا أخبـار هـؤلاء القـوم ورصد تحركاتهم بل والحديث عن هجراتهم إلـى مصـر وأسبابها، وتقـاليدهم ورسومهم، لذا اسـتقصى بعـض مؤرخينـا كـل مـا يهمهـم للوقـوف عليـه مـن معلومات من أبناء العناصر المغولية الذين وفدوا إلى الديـار المصريـة. وقيـل منهم من أشار إلى ذلك صراحة. ولنضرب مثلاً بـالمؤرخ موسـى بـن محمـد يحيى اليوسفى المتوفى عام (٧٥٩هـ/ ١٣٥٨م) وهو الـذى نقـل عنـه كثيرون من مؤرخى العصر المملوكى أمثال المقريـزى وابـن تغـرى بـردى، والعيـن،

(١) المصدر نفسه، جـ٢، ص٣٠ - ٣١؛ ابن تغرى بردى: المنهل، جـ١، ص ٣٩٢ - ٣٩٣.

(٢) السخاوى: نفسه، جـ٢، ص٢٤.

وابن حجر وغيرهم ، فقد استفاد من صداقته للأمير سيف الدين أيتمش المحمدى (ت ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥م) حيث أشار اليوسفى إلى أن صداقته لهذا الأمير تعود إلى سنة (٧٠٩هـ/ ١٣١١م)، فقد وفر له سبل الاتصال بكبار رجالات العصر، إضافة إلى أنه كان بمثابة المصدر لكثير من المعلومات عن أخبار المغول "وكان من المحسنين إلىّ ، وسبب تكبيرى بين الناس. وقدمنى للسطان دفعتين والنائب حتى نلت منه كل خير وسمعت منه من الغرائب ما استعنت به على هذا التاريخ وغيره من أمور كانت تتفق له مع السلطان، وما كان يتفق له فى بلاد الرق وغيره"(١).

كذلك يذكر مؤرخنا الشهير ابن تغرى بردى فى حديثه عن الأمير الكبير سيف الدين أسنباى الزردكاشى (ت ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨)، وهو من أعيان المماليك الظاهرية برقوق. ويقول عنه ابن تغرى بردى: "وكان بيننا صحبة أكيدة ، وهو أحد من كنت آخذ عنه تراجم من لا أدركته من الأمراء الظاهرية برقوق وهلم جرا إلى دولة الأشراف برسباى، فكست المقريزى وتكلم أسنباى على الإنصاف إلى أن انصرافا وتفرقا، ثم بعد ذلك سألت عنه من الشيخ تقى الرين فقال: ما رأيت من يحفظ الحوادث والوقائع برمتها مثل هذا..." (٢) وكذلك يقول عن الأمير سيف الدين أسنبغا بن بكتمر البكرى (ت ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م) من مماليك السلطان الأشرف شعبان بن حسين (وكان أميرًا جليلاً ، عارفًا خبيرًا بالوقائع وغيرها ، قديم الهجرة ، ظاهر الحرمة والوقار

---

(١) المصدر السابق، جـ٥، ص ٦٢، ٦٣، ٩٧.

(٢) اليوسفى (موسى بن محمد يحيى ت٧٥٩هـ/١٣٥٨م): نزهة الناظر فى سيرة الملك الناصر، تحقيق د. أحمد حطيط، عالم الكتب بيروت ١٩٨٦، ص ٧ - ٤٥.

والسكون، حسن الكتابة ، طيب الأخلاق ، لين الجانب ، رحمة الله تعالى)([١]).

وتجدر بنا الإشارة إلى أن الدقة التى تتميز بها المعلومات التى زودنا بها المؤرخ بيبرس المنصورى عن المغول والتتار ، ترجع لا إلى أنه مغولى الأصل ، أو لأنه على حد قول ابن تغرى بردى (كان عاقلاً ، فاضلاً ، بارعًا ، عارفًا ، سيوسًا ، ذا مشاركة وفضل وصنف تاريخًا كبيرًا أجاد فيه وأبدع....) فحسب([٢]) بل لأن بيبرس المنصورى استقاها رأسًا من الأمير سيف الدين جنكلى بن البابا ، وهو من كبار الشخصيات المغولية التى وفدت على مصر سنة (٧٠٣هـ/١٣٠٣م) ، ودونها فى واحد من أهم مؤلفاته التاريخية وهو كتاب التحفة الملوكية فى الدولة التركية وبخاصة فى الفترة التى سبقت السنوات من (٦٨٥ – ٧١١هـ) ، والتى كان فيها شاهد عيان بفضل ما تقلده من وظائف وقربه من السلطان([٣]) .

وإذا تركنا الحديث عن بيبرس المنصورى كأحد كبار المؤرخين المغول ، وهو ما سوف نشير إليه فى السطور التالية ، ونظرنا إليه على أنه أحد أبناء العناصر المغولية المتواجدة فى مصر ، والمصادر التى استقى منها بعض مشاهير مؤرخى ذلك العصر كثيرًا من المعلومات التاريخية عن الأحداث التى شارك فيها بيبرس المنصورى بنفسه ، لوجدنا النويرى (شهاب الدين

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٢ ، ص ٤٣٦ .

(٢) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٤٣٦ .

(٣) المصدر السابق نفسه ، جـ٣ ، ص ٤٧٧ .

أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ) ، صاحب كتاب نهاية الأرب يذكر صراحة أنه نقل أخبار تلك الفتنة التى أحدثها علم الدين سنجر للقضاء على العناصر المغولية والانفراد بالسيطرة على العرش خاصة وأن السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان صغير السن حيث كان قد بلغ تسع سنين ، فيقول : "وأخبرنى الأمير ركن الدين بيبرس ، فى ليلة الثامن من شوال سنة سبع وسبعمائة ، أنه ضرب على رأسه بدبوس ، وأرانى أثر الضربة. وكان قد ذكر لى ذلك ، فى أثناء ذكره لسالف خدمة السلطان ، وما لقيه وقاساه"(١) .

وإذا كان الأمير ركن الدين بيبرس الخطائى المنصورى الدوادار مملوك السلطان سيف الدين قلاوون ، والذى جاء إلى مصر عام ٦٥٩هـ فى سن يتراوح ما بين العاشرة والثانية عشرة ، وتربى فيها ، كان واحدًا من المصادر التى استقى منها بعض المؤرخين الذين كتبوا فى التاريخ الحربى بما له من خبرة فى ذلك الميدان . والواقع أن نشأة بيبرس فى وسط مملوكى أتاحت له ميزات كثيرة ، فكان على صلة بالبلاط المملوكى وبالطبقة الحاكمة بدرجة مكنته من الاطلاع على كثير من أمور الدولة . فلم يكن شاهد عيان فقط للأحداث بل شارك مشاركة فعالة فيها ، فاتسمت مؤلفاته بالصدق والمعايشة الحقيقية . كذلك من الملاحظ فى كتاباته شيوع بعض الألفاظ المغولية الأصل مثل كلمة (الإيلجية) أى الرسل الذين يرسلهم الخان المغولى لأحد الأمراء أو الحكام ، وكلمة (جوك) وهى كلمة مغولية أيضًا معناها الجلوس على الركبتين كدليل على الاحترام وتؤدى إلى الحكام دلالة على

(١) بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية ، ص ١٥ – ١٦ .

الخضوع والولاء[١] كما أنه كان واجدًا من المؤرخين الذين أخذ عنهم كثير من مؤرخى العصر المملوكى وبطريق غير مباشر أمثال المقريزى وابن تغرى بردى[٢].....ومن الواضح أنه بعد أن انتهى من تاريخ دولة المماليك على حدة ، فكتب مؤلفه (التحفة الملوكية فى الدولة التركية) فى سنة ٧١٠هـ ، واستكملها حتى سنة ٧١١هـ، وجعلها هدية للسلطان الناصر ، لكى يشرفه بمطالبة هذا التاريخ ويعطره بملاحظاته ويجتلى منه أنوار سلفه الشهيد ويجتنى ثمار تصرفه السعيد . وهذا الكتاب يكشف لنا عن شغف المؤلف بالتاريخ وحبه واعتنائه بسرد الأحداث والوقائع لقيمتها التاريخية فى حد ذاتها. وقد اقتصر فى سرده للأحداث على ذكرها مرتبة حسب السنين الهجرية ، على عادة المؤرخين فى عصره ، دون الخوض فى ذكر من توفى من مشاهير الرجال والأعلام . وفى الفترة الأولى من تاريخه أى ما بين عامى (٦٤٧-٦٨٥هـ) فإنه يقوم بسرد الأحداث المأخوذة ممن سبقه من المؤرخين، أما ما اسمعه من النقلة الذين عركوا الأحداث وعاصرها . وفى الفترة من (٦٨٥ - ٧١١هـ) فهى سرد لشاهد عيان . وهذا التاريخ الذى كتبه فى التحفة قد اقتبسه منه كثيرون ممن خلفه من المؤرخين الذين عاشوا فى القرن التاسع، سواء بصورة مباشرة ، أو بصورة غير مباشرة وكما سبق أن أسلفنا[٣] .

---

(١) النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب ت ٧٣٣هـ) : نهاية الأرب فى فنون الأدب ، تحقيق د. السيد الباز العرينى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م ، جـ٣١ ، ص ٢٧٥ .

(٢) بيبرس الدوادار : زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، الجزء التاسع ، تحقيق د. زبيدة محمد عطا ، الرياض ١٩٨٤ ، ص ٢١ - ٤٩ .

(٣) المصدر السابق ، كتاب التحفة الملوكية ، ص ١٧ .

ولم يكن الأوحدى وبيبرس المنصورى هما فقط ممن اهتم بالتاريخ وتروين الأحداث بل تشير المصادر المعاصرة إلى البعض الآخر ممن اهتم بالتأريخ للفقهاء ورجال الحديث بطبقاتهم المختلفة ، فالصفدى فى كتابه الوافى بالوفيات يذكر أن الأمير ناصر الدين ابن البابا ، محمد بن جنكلى بن البابا ، أحد أمراء الدولة الناصرية محمد بن قلاوون ، الذى توفى بالقاهرة فى شهر رجب سنة إحدى وأربعين وسبعمائة وقد تجاوز الأربعين (كتب طبقة واشتغل فى غالب العلوم ولم يزل مواظبًا على سماع الحديث واختلط بالشيخ فتح الدين (ابن سيد الناس) كثيرًا وعنه أخذ معرفة الناس وأيامهم وطبقاتهم وأسماء الرجال وكان آية فى معرفة فقه السلف ونقل مذاهبهم وأقوال الصحابة والتابعين وهذا أجود ما عرفه مع مشاركة جيدة فى العربية والطب والموسيقى ...وكان يتمذهب بمذهب الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه ...خرج له شهاب الدين أحمد بن أيبك الدمياطى أربعين حديثًا وحدث بها قبل موته وقد شاركته فى بعض سماعاته وسمع بقراءتى بعض تصانيف الشيخ فتح الدين)([١]).

ولعلنا لا نغالى إذ قلنا أنه كان لأبناء العناصر المغولية أثرهم الواضح فى شيوع نوع من الكتابات الخاصة بالفروسية لإرشاد المعلم والمتعلم إلى ما ينبغى معرفته من أصول الفروسية من حيث ركوبه الخيل ورياضتها ، والتدريب على الأسلحة المختلفة من الطعن بالرمح ، والضرب بالسيف ، والرمى بالنبل ، ومزاولة ألعاب الفروسية ، ذلك باعتبار أنهم كانوا من

---

(١) نفسه ، ص ١٤ – ١٧ .

المحاربين الأفذاذ ، ولما أحدثته فتوحاتهم من أصداء كان لها هذا الأثر . ومعظم الرسائل التى وضعت فى هذا المجال ترجع إلى العصر المملوكى الأول، إذ اهتم السلاطين بتعليم المماليك فى الطابق، واقتضت الأحوال وضع رسائل لشرح التداريب الحربية وموضوعات الفروسية . لذا زخرت هذه الرسائل بالمصطلحات الفنية الغربية عن اللغة العربية ، ولم يتقيد مؤلفو هذه الرسائل بجودة أسلوب ولا سلامة العبارة ، فكثرت بها الأخطاء الإملائية واللغوية والألفاظ العامية . وأكثر هؤلاء المؤلفين شغل مناصب حربية فى الدولة المملوكية ، وحرص على تضمين هذه الرسائل مذاهب أساتذة الفروسية ومعلميها فى فنونها المختلفة(١) .

كما استفاد المشتغلون بالتاريخ لفنون القتال وأعمال الفروسية مما كتبه بعض أمراء المماليك من العنصر المغولى ، فالشيخ محمد بن عيسى الحنفى الأقصرائى(ت ١٣٥٠هـ) جمع ما ألفه نجم الدين الأحدب (ت ٦٩٤هـ - ١٢٩٥م) أستاذ جميع مؤلفى كتب الفروسية فى مجال العمل بالرمح ، وبكتوت الرماح (ت ٧١١هـ - ١٣١١م) وغيره من الأستاذين فى كتاب جامع شامل للفروسية والفنون الحربية سماه (نهاية السؤال والأمنية فى تعلم أعمال الفروسية)(٢) . وتنبغى الإشارة إلى أن مؤلفات الفروسية - بصفة عامة - كتبها رجال كانوا فى الغالب ممن اشتغلوا بتعليم ذلك الفن ، أو ممن جمعوا ما

---

(١) الصفدى (صلاح الدين خليل) : كتاب الوافى بالوفيات ، نشر جمعية المستشرقين الألمانية ، فيسبادن ١٩٧٤م، جـ٢ ، ص ٣١ - ٣١١ ، المقريزى : المقفى الكبير ، جـ٥ ، ص ٥٠٨ .

(٢) السيد الباز العرينى : المماليك ، ص ١٤ - ١٥ .

صار قاعدة علمية ونظرية فى مجال الفروسية والفنون الحربية . والقليل منهم فقط ضمن مؤلفه أو مصنفه لوحات ملونة ورسومات تخطيطية تعين القارئ على فهم ما تحويه تلك الكتب...ويرجع ذلك إلى ذيوع اللسان التركى ، وإلى دخول كثير من ألفاظ اللغات المجاورة من فارسية ومغولية فى مصطلح الجيش والبحرية والدواوين([1]) .

وهنا تنبغى الإشارة إلى أن المغول الذين وفدوا على مصر لم يكن لهم تأثير واضح فى مجال الفنون التشكيلية ، بدليل أن المخطوطات المزوقة بالتصاوير التى أنتجتها مصر فى عصر المماليك تمتاز بمحافظتها على التقاليد العربية وبخلوها من التأثيرات المغولية فى سحن الآدميين ورسم الثياب والأدوات المنزلية ، وتمثيل المناظر الطبيعية ولا سيما الأشجار والنبات بروح صينية قريبة من الواقع ، ورسم بعض الحيوانات المغولية كالحصان والهجين، والعناية بالتعبير عن أعضاء الحيوان بمهارة. بالإضافة إلى عناية الرسام المغولى برسم الموضوعات الحزينة التى تمثل الصراع والحرب، وذلك لطبيعة المغول الحربية وحبهم لتمجد أعمال القسوة والعنف([2]) .

أما عن أثر المغول فى الأدب ، فإن الباحث فى الأدب المملوكى فى ذلك العصر سوف يجد أن الشعراء قد رأوا فى المرأة التركية بوجه عام

---

(١) عبد العزيز عبد الدايم (دكتور) : نهاية السؤل والأمنية فى تعلم أعمال الفروسية رسالة دكتوراه بجامعة القاهرة ، لم تنشر بعد ، ص ١١ - ١٤ .

(٢) محمد مصطفى زياد (دكتور) : المؤرخين فى مصر فى القرن الخامس عشر الميلادى ، القاهرة ١٩٦٤م ص ١٠٥ .

والمغولية بوجه خاص صورة مثلى للجمال ، فكثر تغزلهم بهن وإشادتهم بجمالهن ، ويصف محى الدين بن عبد الظاهر إحداهن بوجهها الناصع وشعرها الفاحم ، والتى بدت له كالملكة على كل ما فى الكون من مظاهر الجمال ، فالبدر لا يزيد على حامل لغاشية موكبها ، والنجوم ليست أكثر من حاشية لها ، وهو بتصويره هذا يستمد صورة مما يراه فى المواكب السلطانية، وليس أنسب من أن تكون هذه المواكب مددًا فى رسم صورة هذه الفاتنة المغولية ، فنراه يقول(١) :

أنا فى حب مثلها لا أخاشى   لا ولا أرتضى مقالة واشى
ظبية من بنات خاقان لكن   شعرها منه رأينا النجاشى
غارت الشمس إذ رأتا نهارًا   لا ترىظل شهرها لا تماشى
وإذا فى دجنة قد تبددت   فلديها للبدر حمل الغواشى
أو تمشت فى الليل قلت تراها   هى بدر له النجوم حواشى

سادت معايير الجمال المغولى فأصبح الوجه الأبيض والشعر الفاحم من تمام الجمال ، ولعلنا لاحظنا ذلك فيما مر من أبيات ، كذلك صارت العيون الضيقة مثار فتنة الشعراء ، فيقول سيف الدين بن المشد :

أوقع القلب فى أشد الوثاق   ضيق العين ضيق الأحدق

---

(١) حسن الباشا (دكتور) : الفنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، القاهرة ١٩٦٥ ، حـ١ ، ص ٣٦ ، التصوير الإسلامى فى العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٦٥ ، ٢٠٩ - ٢١٠ .

ويقول الواداعى :

وطرف يضيق ويلاه   من طعنات النجل

ويصور ابن نباته انبهار العذول بجمال هذه العيون الضيقة لدرجة كف فيها عن عذله فيقول :

بهت العذول وقد رأى ألحاظها   تركية الحليم سفيهًا

فثنى الملوم وقال دونك والأسى   هذى مضايق لست أدخل فيها[1]

وفى العصر المملوكى ، شهد المجتمع المصرى بوجه عام ، ومجتمع القاهرة بوجه خاص ازدهار فنون الطرب والغناء وضروب اللهو نتيجة للرواج الاقتصادى الذى عم البلاد معظم ذلك العصر ، من جراء مرور تجار الشرق الأقصى بها بحيث انعكست آثاره واضحة فى إقبال الناس حكامًا ومحكومين على هذه الفنون والملاهى ومتع الحياة ولذاتها . ولم يدخر سلاطين وأمراء المماليك - بصفتهم الطبقة الحاكمة - وسعا فى الإقبال على المطربين والمطربات والعازفين والعازفات ، وتشييد المغانيات وهى قاعات خصصت لسماع الغناء والطرب والاستمتاع بمشاهدة الرقص وسماع الموسيقى[2] كما كثرت الإشارة فى المصادر لمعاصرة إلى ورود أعداد من الجوارى الجنكيات من بلاد مغول إيران كهدايا لسلاطين

---

(١) فوزى محمد أمين (دكتور) : المجتمع المصرى فى أدب العصر المملوكى الأول ، دار المعارف بمصر ، ص٣٠٨ - ٣٠٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٠٩ .

المماليك فى مصر ، أى الجوارى التى يجدن العزف على الجنك وهو آلة وترية تشبه العود(١) .

ومما لا شك فيه أن الجوارى الجنكيات لقين قبولاً لدى الناس من حكام ومحكومين ، فلعبن بألباب الناس عزفًا وجمالاً ، وبذلك أطلقن ألسنة الشعراء يقولون فيهن ما يعن لهم من خواطر يلهبها ذلك افلإحساس بالجمال وحلاوة وبراعة الأداء إلى الإكثار من الشعر الغنائى ، والحديث عن الغناء والمغنين وعن الطرب وآلاته(٢) . كما أن هؤلاء الجوارى وغيرهن من نبات العناصر المغولية استأثرن بالخطوه وذلك لبراعة الكثيرات منهن فى العزف على الآلات المختلفة، نرى ذلك بوضوح فيما نقرؤه من شعر هذا العصر . كما أن الباحث فى الأدب المملوكى فى ذلك العصر سوف يجد حشدًا هائلاً من شعر الغزل والذى يعبر أصدق تعبير عن أثر هؤلاء الجوارى فى الحياة الأدبية . بل وذوق هذا العصر ، ونظرته إلى الجمال ، وبعض ما طرأ على معايير هذا الجمال من تطور وتغيير(٣) .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ١٠ ، ص ٩٦ ؛ محمد زغلول سلام : الأدب فى العصر المملوكى، دار المعارف ١٩٧١ ، جـ ١ ، ٢٨١ - ٢٨٥ ؛ محمد قنديل البقلى: الطرب فى العصر المملوكى ، القاهرة ١٩٨٤م . ص ٤٣ - ٤٤ .

(٢) العمرى (ابن فضل الله ت ٧٤٢هـ) : التعريف بالمصطلح الشريف ، مطبعة العاصمة ١٣١٢هـ ، ص ٢٠٨ - ٢١٥ ؛ المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، قسم ١ ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ ؛ جـ٢ ، قسم ٢ ، ص ٣٤٠ - ٣٤٥ .

(٣) ابن حجر العسقلانى : الدرر الكامنة ، جـ٤ ، ص ١٧٣ .

ويرى أحد الباحثين المحدثين أنه نتيجة لكثرة أعداد الجوارى فى المجتمع المصرى بوجه عام ، ومجتمع القاهرة بوجه خاص فى ذلك العصر ، وما ترتب على ذلك من تغييرات اجتماعية وأدبية ، أن أثمر ذلك العصر فناً جديدًا لم تعرفه الثقافة العربية والإسلامية من قبل ، ألا وهو فن النقد الاجتماعى والدعوة إلى الإصلاح الدينى والاقتصادى ، وأن من حق المكتبة العربية الإسلامية أن تفخر بثلاثة كتب قيمة وفريدة فى موضوعاتها وهى كتاب المدخل إلى الشرع الشريف على المذاهب لمؤلفه ابن الحاج ، وكتاب إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزى ، والكتاب الثالث هو معيد النعم ومبيد النقم لتاج الدين السبكى ، هذه المؤلفات تكشف لنا عن المفارقات العجيبة فى حياة الناس ، وتنتقد ما شاع فى أوساطهم من بدع وعادات رذيلة ، وأخلاق دميمة، وتوجه لهم النصح والإرشاد ، وسهام النقد لكل ما يخالف روح الشريعة وجوهر الإسلام(١) .

كذلك كان لأبناء العناصر المغولية بوجه عام ، وأبناء الأويراتية منهم بوجه خاص أثرهم فى الأدب المملوكى حيث عرف غلمانهم بالجمال حتى كان (يقال لهم البدورة فيقال البدر فلان والبدر فلان) من شدة جمالهم . والمعروف أنهم قدموا إلى مصر فى أوائل عصر السلطان الظاهر بيبرس ، واعتنقوا الدين الإسلامى ، وزاد عددهم زيادة كبيرة فى عهد الملك العادل زين الدين كتبغا ، وأنزلوا بالحسينية ، وقد بهر جمالهم كثيرًا من الشعراء المعاصرين . فهذا هو أحد شعراء المتصوفة وهو تقى الدين السروجى الذى

---

(١) فوزى محمد أمين : نفسه ، ص ٣٧١ - ٣٧٣ .

تدله بحى الحسينية وسكانه ، وكتب قصيدة يعبر بها عن مدى ولعه بهؤلاء الغلمان من المغول ، وقد ذهب فى قصيدته إلى حد ترصيع أبياته ببعض الألفاظ المغولية التى يفهمها معشوقة ويصور لنا المقريزى هذه الظاهرة وهى ظاهرة الغزل بالمذكر حيث يقول : "ولله در الشيخ تقى الدين السروجى إذ يقول من أبيات :

ياساعى الشوق الذى مذ جر	ى جرت دموعى فهى أعوانه
خذلى جوابا عن كتابى الذى	إلى الحسينية عنوانه
فهى كما قيل وادى الحمة	وأهلها فى الحن غزلاته
أمشى قليلاً وانعطف يسرة	يلقاك درب طال بنيانه
واقصد بصدر الدرب ذاك الذ	ى بحسنه تحسن جيرانه
سلم وقل يخشى مسن أى مسـ	ـن اشت حديثًا طال كتمانه
وسل لى الوصل فإن قال بق	فقل أوت قد طال هجرانه(١)

واضح من هذه الأبيات بما لا يدع مجالاً للشك مدى شيوع ظاهرة الغزل بالمذكر فى أدب ذلك العصر ليس هذا فحسب ، بل واضح كذلك مدى شيوع بعض المصطلحات والألفاظ المغولية التى كثرت فى ذلك العصر كلمة (بق) و(اوت) وغيرها من الكلمات التى نقرأها عند شعراء ذلك العصر ، ومؤرخية فابن تغرى بردى يعمد كثيرًا إلى شرح مثل هذه الألفاظ ، وقد سبق

(١) حبشى سيد نصر (دكتور) : المجتمع المصرى فى الشعر المملوكى ، رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر ، ص ٨٣ – ٩٠ .

أن ذكرنا كلمة (جبجى) التى تعنى الزردكاش وهو المشرف على خزائن السلاح ، وكانت مهتمه كذلك إعداد آلات الحصار(١) . واسم (بيبرس) المركب من لفظين هما (باى) و(سرى) ومعناه رأس سعيد أو سعيد الرأس . وكلمة (قصفا) التى تعنى (قصير) وكامة (طرنا) التى تعنى (الكركى) والتى كان يتلقب بها بعض أمراء المماليك . وكلمة (سمز) التى تعنى (سمين) والتى وصف بها بعض أمراء المغول(٢) بل إنه لما يؤكد شيوع اللغة المغولية بين صفوف المماليك من جهة وعامة الناس من جهة أخرى ما يحكيه ابن تغرى بردى عن أحد كبار أمراء المماليك المغولى الأصل وهو الأمير سيف الدين بشتك بن عبد الله الناصرى (ت ٧٤٢هـ / ١٣٤١م) أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون من أنه (كان زائد التيه ، لا يكلم استاداره ، ولا الكاتب إلا بترجمان...)(٣) كما أنه تمت الأستفادة من أبناء العناصر المغولية فى مصر فى ترجمة الكتب الواردة من خانات المغول سواء مغول إيران أم مغول القفجاق ، وإرسالهم فى السفارات إليهم مثال ذلك ما تشير إليه بعض المصادر من أن الأمير سيف الدين أو تامش الذى أرسله الناصر محمد بن قلاون أكثر من مرة إلى العاهل المغولى بوسعيد (وكان أولئك القوم يركنون إلى عقله لأنه كان يعرف بالمغلى لساناً وكتابة ويدرى آداب المغل،....ويعرف بيوت المغل

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٣ ؛ أحمد صادق الجمال : الأدب العامى فى مصر فى العصر المملوكى ، القاهرة ١٩٦٦م . ص ٩ – ٢٨ ؛ فوزى محمد أمين : نفسه ، ص ٣٥٨ .

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٢ ، ص ٤٣٣ .

(٣) المصدر السابق ، جـ٣ ، ص ٥٠٢ ، ص ٢٥٢ ، ص ٣٧٢ ، ٤٢١ ، ٤٣٣ .

وأصولهم ويستحضر تواريخهم ووقائعهم ، وكان إذا جاء من تلك البلاد كتاب إلى السلطان بالمغلى يكتب الجواب عنه بالمغلى ، وإذا لم يكن حاضراً كتبه الأمير سيف الدين طاير بغا...)[1] .

(١) المصدر نفسه ، جـ٣ ، ص ٤٦٧ - ٤٦٨ .

أثر الهجرات المغولية فى الحياة الاجتماعية :

إن الدارس لتاريخ مصر الاجتماعى عصر سلاطين المماليك يجد نفسه أمام عدة عوامل أدت إلى طبع الحياة الاجتماعية فى ذلك العصر بطابع خاص مميز ، وأول هذه العوامل يتمثل فى طبقة المماليك التى دخلت على المجتمع المصرى وحكمته حكمًا مستقلاً مدة تقارب الثلاثة قرون ، وهم الذين لم يختلطوا فى الغالب بالمصريين، ولم يتأثروا بنظمهم وعوائدهم إلا فى حالات قليلة وبقسط محدود . وارتبط بهم أبناء العناصر المغولية الذين هاجروا إلى مصر ، وانخرطوا فى السلك المملوكى . والعامل الثانى هو الحروب الصليبية وما نجم عنها من نمو العلاقات التجارية بين الشرق والغرب ، وأثر ذلك فيما تم تحقيقه للطرفين من ثورة طائلة كانت لها انعكاساتها الواضحة فى مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية فى مصر ، فضلاً عن تأثر المماليك بالنظم الاقطاعية اللاتينية التى اقتبسوها من جيرانهم الصليبيين . أما العامل الثالث فهو إحياء الخلافة العباسية فى مصر على يد السلطان الظاهر بيبرس سنة (٦٥٩هـ) ، وما ترتب عليه من نشاط كبير فى مختلف ميادين الحياتين العلمية والدينية ، وأثره الواضح فى المجتمع المصرى فى ذلك العصر(١) .

إلا أن وجه الأهمية هنا يتمثل فيما كان لأبناء العناصر المغولية من تأثيرات اجتماعية هامة،هذه التأثيرات تبدو أول ما تبدو فيما ظهر فى مصر من أطعمة وأشربة لم تكن معروفة فيها من قبل. فانتشر أكل لحوم الخيل ، وعمرت بها الموائد وبخاصة فى المناسبات المختلفة من أفراح وحفلات ، على الرغم

---

(١) الصفدى : الوافى بالوفيات ، جـ٩ ، ص٤٤٠؛ ابن حجر : الدرر الكامنة ، جـ١، ص٤٥٣.

من أننا لم نسمع عن ظاهرة أكل لحوم الخيل فى الأحوال العادية فى العصور الإسلامية السابقة فى مصر ، بما يؤكد أن هذه الظاهرة التى أدخلها المماليك وتمسكوا بها إنما أتوا بها من مواطن المغول المختلفة وبخاصة مغول القفجاق بحوض نهر الفلجا ، حيث كانت تؤكل لحوم الخيل فى المواسم والأعياد(١) .

كذلك كان لأبناء العناصر المغولية هذه دور كبير فى إدخال بعض أنواع من المشروبات أو الخمور والتى لم تكن معروفة من قبل فى مصر ، مثل مشروب (القميز) أو (القمز) ، والذى لقى إقبالاً من قبل المماليك بوجه خاص منذ بداية العصر المملوكى ، وكان يصنع من ألبان الأفراس والتى يتم تركها فترة لتتخمر ثم يتم تناولها(٢) . وتشير بعض المصادر المعاصرة إلى أن السلطان الظاهر بيبرس كان يشرب القمز حتى قبل وفاته(٣) . وفى عهد من أتى بعده من سلاطين المماليك أصبح هذا المشروب مفضلاً سواء لدى السلاطين أم الأمراء المماليك.ففىأعقاب الانتصار الذى حققه السلطان المنصور سيف الدين قلاوون على التتار فى حمص عام ٦٨٠هـ فإنه (جمع الأمراء والأكابر ومقدمى العساكر فى مجلس اتخذه للأنس والانفساح وأعده للهو والإنشراح، فجلسوا للشراب ودارت عليهم بالقمز الأكواس والأكواب..."(٤) .

---

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك . دار النهضة العربية ، ١٩٦٣ ، ص ٣ - ٧ .

(٢) المقريزى:السلوك ، جـ٢ ، ق ١ ، ص ٢٨٨ ، حاشية ٤٥ المرجع السابق، ص٤.

(٣) مصطفى طه بدر (دكتور) : محنة الإسلام الكبرى ، أو زوال الخلافة العباسية من بغداد على أيدى المغول ، الجيزة ١٩٤٦م ، ص ٥١ .

(٤) ابن عبد الظاهر (محى الدين ت ٦٩٢هـ) : تشريف الأيام والعصور فى سيرة الملك المنصور ، تحقيق د. مراد كامل القاهرة ١٩٦١م ، ص ٢٦٥ .

وكذلك مشروب (التمر بغاوى) نسبة إلى الأمير تمر بغا المنجكى وهو فى الأصل من أسرى المغول ، وكان أول من أدخل هذا المشروب الذى كان يصنع من الزبيب الذى يخلط بالماء، والذى شاع شربه بشكل لم يسبق له مثيل أيام السلطان الظاهر برقوق([1]) وحتى أواخر دولة سلاطين المماليك .

كذلك كان لأبناء العناصر المغولية دور كبير فيما شاع فى ذلك العصر من ملابس كانت جديدة على المجتمع المصرى ، سواء منها ما هو خاص بالنساء أم الرجال . فالمقريزى فى حديثه عن الأمير سيف الدين طغجى الأشرفى المتوفى سنة (٦٩٨هـ / ١٢٩٨م) ، وهو أحد مماليك الأشرف خليل بن قلاوون يقول : "وكان طغجى مليح الصورة حلو الشكل ، فاتخذ الناس تفاصيل برسم النساء وسموها طغجى"([2]) كذلك يذكر ابن تغرى بردى فى ترجمته للأمير سيف الدين أرغون شاه الناصرى (ت ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م) أحد مماليك السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، والذى تم جلبه من بلاد بوسعيد أى مغول إيران ، فحظى عند الناصر وأمره وجعله راس نوبة ، وكان يقترح "فى الملابس أشكالاً غريبة ، ويعمل بيده منها صنائع عجيبة..."([3]) .

أما الأمير سيف الدين سلار بن عبد الله المنصورى (ت ٧١٠هـ / ١٣١٠م) نائب السلطنة فى عهد الناصر محمد بن قلاوون فقد "افتتح بأشياء من

---

(١) بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية ، ص ١٠٥ .

(٢) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص ٦٠٧ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧ ، ص١٢٥، ابن الصيرفى (الخطيب الجوهرى على بن داود) : نزهة النفوس والبدان ، تحقيق د. حسن حبشى ، القاهرة ١٩٧٠م، جـ١ ، ص ٣٦٩.

(٣) المقريزى : المقفى الكبير ، جـ٤ ، ص ٢١ - ٢٦ .

الملابس لم تعرف قبله ، معروفه به..."[١] أى أنه أدخل نوعًا من الأقبية كان يطلق عليها اسم (السلارى) أو (السلارية) وقد ورد وصفه كأحد الأردية الفوقانية ذات الأكمام الضيقة ، وكان من المألوف عمل السلارى من ألوان مختلفة ومن خامات متنوعة ، مثل القطن البعلبكى ، ومن فراء السنجاب الرمادى ، ومن الأطلس ذى الخيوط المعدنية ، وكان يحلى أحيانًا بزخارف غنية فخمة ، وأحيانًا أخرى كانت تنثر عليه اللآلئ والأحجار الكريمة ، ولقد استمر حتى عهد المماليك الجراكسة[٢] .

وهى نفسها (الأقبية التترية) أو (المعاطف التترية) ، التى كان يرتديها أمراء المماليك ، كما يستدل من اسمها أن هذا الثوب كان من اصل أجنبى ، وسمى كذلك لأنه بدلاً من عمل الشقة المستقيمة التقليدية للأقمصة التى كانت تلبس فى العصر الفاطمى ، كان للأقبية التترية كمران تلف الصدر من اليسار إلى اليمين ، بعكس الأتراك الذين كانوا يفضلون الكمر الذى يلف الصدر من اليمين إلى اليسار . وكان القباء يصنع من الصوف ، والأطلس ، والحرير ، أو القطن البعلبكى ، وكان لونه إما أبيض أو مزين باشرطة باللونين الأحمر والأزرق . وله أكمام ضيقة[٣] وقد ذكرها المقريزى فى حديثه عن الأسواق فقال : "استجد الأمير سلار ايام الملك الناصر محمد القباء الذى يعرف بالسلارى ، وكان قبل ذلك يعرف بالبغلطاق . وكانت هذه البغاليق إما بيضاء أو

(١) ابن تغرى بردى : النمنهل ، جـ٢ ، ص ٣١٤ - ٣١٦ .
(٢) المصدر السابق ، جـ٦ ، ص ٨.
(٣) ماير : الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتى ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢ ، ص ٤٤ - ٤٥ .

مشجرة أو أحمر وأزرق مرصعة بالجواهر وهى ضيقة الأكمام على هيئة ملابس الفرنج اليوم ، ولم يزل هذا زيهم إلى أيام الملك المنصور قلاوون فغير هذا الزى بأحسن منه وابطلوا الكم الضيق..."(١) .

كما وجد نوع من لباس الرأس كان خاصاً بالعسكريين يطلق عليه اسم "سراقوج"، وكان يمثل إلى حد كبير الزى التترى المميز. وهو عبارة عن قلنسوة لها شكل مخروطى طويل بحافة مقلوبة إلى أعلى. وتشير بعض المراجع إلى أن هذا السراقوج سرعان ما اختفى من عالم الموضة خلال عصر المماليك البحرية، ثم بعد مضى قرن من الزمان، عاد إلى الظهور فى عصر المماليك الجراكسة كلباس رأس للسيدات(٢).

كما كان لهؤلاء المغول دورهم فى رواج كثير من الأمراض الاجتماعية فى مصر فى ذلك العصر، مثل الزنى واللواط وانتشار البدع والخرافات والاعتقادات الباطلة، إلا أنه تنبغى الإشارة إلى أنه من العسف القول بأن مصر انفردت دون غيرها من البلاد الإسلامية بهذه الأمراض الاجتماعية، فابن حجر يذكر عن بلاد "ابن عثمان" فى أوائل القرن التاسع الهجرى أن الزنا واللواط وشرب الخمر والحشيش كان فاشيا بها. وعندما عاب أحد مشايخ مصر على شيخ أندلسى فى القرن السابع الهجرى أن أهل الأندلس يشربون الخمر ويحبون الشاب، رد عليه الشيخ الأندلسى قائلاً: " أما الشباب فما أشك أن أهل مصر أفسق منا!" فتبسم الشيخ المصرى وسكت(٣). ويذكر ابن تغرى بردى أن اللواط

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٩ – ٤١.

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٩ .

(٣) ماير ، نفسه ، ص ٥٦ – ٥٧ .

أو الشذوذ الجنسى انتشر فى الشرق منذ دخول الخراسانية إلى العراق سنة ١٣٢هـ أى منذ أوائل الدولة العباسية(١). ولقد تحدث المقريزى عن أثر العناصر المغولية صراحة فى انتشار اللواط فقال فى حديثه عن الأويراتية: "وكانوا مع ذلك صورا جميلة، فافتتن بهم الأمراء وتنافسوا فى أولادهم من الذكور والإناث واتخذوا منهم عدة صيروهم من جملة جندهم وتعشقوهم فكان بعضهم يستنشد من صاحبه من اختص به وجعله محل شهوته ثم ما قنع الأمراء ما كان منهم بمصر حتى أرسلوا إلى البلاد الشامية واستدعوا منهم طائفة كبيرة فتكاثر نسلهم فى القاهرة واشتدت الرغبة من الكافة فى أولادهم...."(٢)

كذلك يشير السخاوى إلى مدى الدور الذى لعبوه فى انتشار تلك الأمراض الاجتماعية فيقول فى ترجمته لأحد أبناء المغول وهو " أحمد بن يوسف بن أحمد الشهاب بن الجمال الأستادار التقوى الأصل، القاهرى عوقب مع الرابية وأتباعه ثم قتل فى ربيع الآخر سنة أربع عشرة وكان قد جهزه أبوه أمير الحاج فى سنة إحدى عشرة على وجه يفوق الوصف وعاد فى أول التى تليها، ويقال أنه مبدع الجمال بحيث امتحن أعجمى به ولكنه كان يقنع بالنظر وذهب فى خدمته فى الحجة المشار إليها ماشيا وكان أبوه يعلم ذلك إلا أنه لعلمه بعدم شئ زائد على هذا لم يزجره".(٣)

---

(١) سعيد عاشور : المجتمع المصرى ، ص ٢٢٥ .

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم، جـ٥ ، ص ٤٢٢ ، سعيد عاشور : نفسه ، ص ٢٢٨.

(٣) المقريزى : الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٢ .

كما يذكر ابن تغرى بردى فى ترجمته للأمير سيف الدين بن عبد الله الناصرى "ت ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م" أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون أنه "كان غير عفيف الذيل عن المليح والقبيح، وبالغ فى ذلك وأفرط حتى فى نساء الفلاحين وغيرهم، ورمى بأمور ودواهى من هذه المادة..."(١)

وفيما يتعلق بدورهم فى انتشار كثير من البدع والخرافات والمعتقدات الباطلة، فمن المعروف عن أبناء العناصر المغولية حبهم الشديد لمعرفة الطالع والنبوءات، بحيث أنهم كانوا من السذاجة بمكان، وهذا ما يتضح مما تطلقه عليهم المصادر المعاصرة من أوصاف دالة على ذلك وبخاصة العبارات التى تصف الواحد منهم بأنه "سليم الباطن". أو كان "يخدعه المنجمون".(٢) أو أنهم "كانوا مولعين بالنجوم ، وما يقوله أرباب التقاويم"، وهذه العادة ربما انتقلت منهم إلى السلطان الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقى لدولة سلاطين المماليك "كان مولعا بالنجوم، وما يقوله أرباب التقاويم، كثير البحث عن ذلك.."(٣)

وفى أواخر منتصف القرن الثامن الهجرى، الرابع عشر الميلادى تعرضت مصر لعدة تطورات اجتماعية نجمت عن كثرة أبناء العناصر المغولية بها من جهة، وتأثر الحكم المملوكى بالنظم السائدة عند المغول من جهة ثانية، ونتيجة لعدم وجود إقطاعات لكثير من الأمراء المماليك من جهة ثالثة والذين أصبحوا يرتزقون من مظالم العباد على حد قول المقريزى، وهو كشاهد عيان

---

(١) السخاوى : الضوء اللامع ، جـ٢ ، ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل جـ٣ ، ص ٤٦٧ – ٤٦٩ .

(٣) المقريزى : المقفى الكبير ، جـ٣ ، ص ٢٢ – ٢٣ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٨ ، ص ٣٧ .

لما حدث فى تلك الفترة فإنه يصور لنا فى عباراته التى يقـول فيهـا: "ثـم تقلـص ظل العدل وسفرت أوجه الفجور وكشر الجور أنيابه وقلت المبالاة وذهب الحياء والحشمة من الناس حتى فعل من شاء مـا شـاء....."، ثـم نـراه يفسـر السـر فيمـا حدث آنذاك من أنه فيما يتعلـق بالممـاليك فـإنهم "احتـاجوا فـى ذات أنفسـهم إلـى الرجـوع إلـى عـادة جنكزخـان والاقتـداء، بحكـم الياسـه فلذلـك نصبـوا الحـاجب ليقضى بينهم فيما اختلفـوا فيـه مـن عوايدهـم والأخـذ علـى يـد قويهـم وإنصـاف الضعيف منه على مقتضى ما فى الياسه وجعلوا إليه مع ذلك النظـر فـى قضايـا الدواوين السلطانية عند الاختلاف فى أمور الإقطاعات لينفذ مـا اسـتقرت عليـه أوضاع الديوان وقواعد الحساب.."([١]) أو بعبـارة أخـرى أن سـلاطين الممـاليك ابتداء من الظاهر بيبرس قد ساروا على ما جاء فى الياسه التى وضعهـا جنكيز خان فيما يتعلق بالنظم الحربية، وإنزال العقوبات الصارمة لمن يرتكب جرائم إذ لا تكفى الحدود الشرعية فى ردعهم.([٢]) أما فيما يتعلق بغيرهم من المحكومين ونقصد بهم أبناء الشعب المصرى بطبقاتهم المختلفة فقد "فوضوا لقاضى القضـاة كل ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج وناطوا به أمـر الأوقاف والأيتـام وجعلـوا إليـه النظـر فـى الأقضيـة كتداعـى الزوجين وأربـاب الديون ونحو ذلك.."([٣]) .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧ ، ص ١٧٧ – ١٧٨ .

(٢) المقريزى الخطط ، جـ ٢ ، ص ٢٢١ .

(٣) العمرى : التعريف بالمصطلح الشريف ، ص ١٠٢ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٧ ، ص ١٨٢ – ١٨٣ ؛ السيد الباز العرينى : المماليك ، ص ٢٥٤– ٢٥٥ .

إلا أن الأمور سرعان ما تغيرت فى عهد السلطان الملك الكامل شعبان بن الناصر محمد بن قلاوون "٧٤٦ - ٧٤٧هـ". الذى عين "الأمير سيف الدين بيغوا أميراً حاجباً كبيراً يحكم بين الناس. فخلع عليه فى جمادى الأولى سنة ست وأربعين وسبعمائة فحكم بين الناس كما كان نائب السلطنة يحكم وجلس بين يديه موقعان من موقعى السلطان لمكاتبة الولاة بالأعمال ونحوهم فاستمر ذلك ثم رسم فى جمادى الآخرة منها أن يكون الأمير رسلان بصل حاجبا مع بيغوا يحكم بالقاهرة على عادة الحجاب.. إلى أن كانت ولاية الأمير سيف الدين جرجى الحجابة فى أيام السلطان الملك الصالح صالح بن محمد بن قلاوون (٧٥٢ - ٧٥٥هـ) فرسم له أن يتحدث فى أرباب الديون ويفصلهم من غرمائهم بأحكام السياسة ولم تكن عادة الحجاب فيما تقدم أن يحكموا فى الأمور الشرعية.."(١) .

وهكذا وجد قضاة الشرع أنفسهم مسلوبى الاختصاصات مما سيكون سببا فى الصراعات المستديمة بين أهل الشرع وأهل السياسة، أى بين القضاة والحجاب، هؤلاء الحجاب الذين اعتبروا الحكم بين الناس وسيلة لتحصيل المقررات أى الأموال التى يقررونها على المتخاصمين، لقد عبر المقريزى عن هذه الحالة أصدق وأبلغ تعبير حين قال: "كانت رتبة الحجبة فى الدولة التركية جليلة وكانت تلى نيابة السلطنة ويقال لأكبر الحجبة حاجب الحجاب وموضوع الحجبة أن متوليها ينصف من الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمشاورة السلطان وتارة بمشاورة النائب... وكان حكم الحاجب لا يتعدى النظر فى

---

(١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٢١ .

مخاصمات الأجناد واختلافهم فى أمور الإقطاعات ونحو ذلك ولم يكن أحد من الحجاب فيما سلف يتعرض للحكم فى شئ من الأمور الشرعية.. وإنما يرجع ذلك إلى قضاة الشرع ولقد عهدنا دائما أن الواحد من الكتاب أو الضمان ونحوهم يفر من باب الحاجب ويصير إلى أحد القضاة ويستجير بحكم الشرع فلا يطمع أحد بعد ذلك فى أخذه من يقيم الأشهر والأعوام فى ترسيم القاضى حماية له من أيدى الحجاب ثم تغير ما هنالك وصار الحاجب اليوم اسما لعدة جماعة من الأمراء ينتصبون للحكم بين الناس لا لغرض إلا لتضمين أبوابهم بمال مقرر فى كل يوم على رأس نوبة النقباء وفيهم غير واحد ليس لهم على الإمراء إقطاع وإنما يرتزقون من مظالم العباد وصار الحاجب اليوم يحكم فى كل فى كل جليل وحقير من الناس سواء كان الحكم شرعياً أو سياسيا بزعمهم وإن تعرض قاض من قضاة الشرع لأخذ غريم من باب الحاجب لم يمكن من ذلك ونقيب الحاجب اليوم مع رذالة الحاجب وسفالته وتظاهره من المنكر بما لم يكن يعهد مثله يتظاهر به أطراف السوقة فإنه يأخذ الغريم من باب القاضى ويتحكم فيه من الضرب وأخذ المال بما يختار فلا ينكر ذلك أحد البتة..."(١) وهكذا يتضح لنا مدى الخلل الذى أحدثته التأثيرات المغولية فى المجتمع المصرى فى ذلك العصر، فى واحدة من أهم ما يمس حقوق الإنسان ألا وهى تحقيق العدالة .

كما تنبغى الإشارة إلى ما أحدثته الهجرات المغولية إلى مصر فى ذلك العصر من صراع مرير بين صفوف المماليك أنفسهم، هذا الصراع كان يشتد

---

(١) المصدر السابق ، جـ٢ ، ص ٢١٩ - ٢٢٠ .

عندما تأتى إلى مصر هجرات كبيرة منهم مثل التى حدثت أيام الظاهر بيبرس والعادل كتبغا، بخاصة من الأويراتية وهم الذين أشارت إليهم المصادر المعاصرة باسم الوافدية. ويرى بعض الباحثين المحدثين أنه لا يوجد من بين الأمراء الوافدية من حصل على رتبة أعلى من أمير طبلخاناه باستثناء أيام الناصر محمد بن قلاوون حيث نجد بعضهم قد وصل إلى رتبة أمير ألف.(١) وهناك فى المصادر المعاصرة إشارات تعبر عن هذا الصراع، فالمعروف أن العادل كتبغا (٦٩٤ - ٦٩٦هـ) كان من الأويراتية وقد وصل إلى منصب السلطنة، إلا أن اهتمامه بالوافدين من الأويراتية ومنحهم المناصب والإقطاعات كان أحد الأسباب الهامة فى عزلة من السلطنة. فابن خلدون يذكر ذلك صراحة فى قوله: "كان أهل الدولة نقموا على السلطان كتبغا العادل تقديم مماليكه عليهم ومساواة الأويراتية من التتار بهم فتفاوضوا على خلعه..."(٢) كما أن هذا الصراع يظهر بوضوح فيما أورده المقريزى عندما حدث شجار بين اثنين من أمراء المماليك ، فقال أحدهم للآخر: "أنت واحد منفى وافدى، تجعل نفسك مثل مماليك السلطان.."(٣) هذه العبارة الأخيرة تكشف لنا بوضوح السبب فى ذلك الصراع الذى نجم عن أن فرص الترقى لم تكن مهيأة لجميع المماليك على قدم المساواة، إذ كان الحصول على لقب الإمارة مهيأ للمماليك السلطانية بنسبة أكبر من مماليك الأمراء، وكذلك بالنسبة لمن مسهم الرق، إذ المعروف أن الهجرات المغولية تمثل هجرات لأشخاص من الأحرار. والقلقشندى يؤكد لنا هذه الحقيقة

---

(1) David Ayalon : Op. Cit. pp. 92 - 93.

(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ، القاهرة ١٩٠٩م، جـ٥ ، ص ٤٠٨ .

(٣) المقريزى : السلوك ، جـ٢ ، ص ٢٢ .

عندما يقول عن المماليك السلطانية: "وهم أعظم الأجناد شأنا وأرفعهم قدراً وأشدهم قربا وأوفرهم إقطاعاً، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة"(١) وهذا أشار إليه المقريزى صراحة عند حديثه عن الأويراتية وقدومهم إلى مصر فى عهد العادل كتبغا حيث يقول : "وأظهر العناية بهم وكان مراده أن يجعلهم عونا له يتقوى بهم فبالغ فى إكرامهم حتى أثر فى قلوب أمراء الدولة منه إحنا وخشوا إيقاعه بهم فإن الأويراتية كانوا أهل جنس كتبغا.." ونتيجة لكثرتهم فى مصر وكثرة الرغبة فيهم فقد وقع "التحاسد والتشاجر بين أهل الدولة إلى أن آل الأمر بسببهم وبأسباب أخرى إلى خلع السلطان الملك العادل كتبغا من الملك فى صفر سنة ست وتسعين وستمائة فلما قام فى السلطنة من بعده الملك المنصور حسام الدين لاجين قبض على طرغاى مقدم الأوريراتية وعلى جماعة من أكابرهم وبعث بهم إلى الأسكندرية فسجنهم بها وقتلهم وفرق جميع الأويراتية على الأمراء فاستخدموهم وجعلوهم من جندهم.."(٢) وبهذا تم للعناصر المنافسة لهم من الجراكسة إبعادهم عن فرص الترقى بعد كسر شوكتهم بقتل قادتهم.

ومن العادات المغولية التى أخذت فى الظهور فى مصر فى العصر المملوكى عادة تكريم الابن بذكر نسب الأم، أو الاعتزاز بنسب الأم، وهى من العادات التى عرفت عن المغول فى مواطنهم الأولى وتمسكوا بها حتى فى المهجر، والتى يعكسها لنا من اهتموا منهم بالتأريخ للمغول وسلالتهم فى مصر وعلى رأسهم بيبرس المنصورى، فهو باعتباره واحداً منهم وأدرى بطباعهم

(١) القلقشندى (أبو العباس أحمد) : صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، القاهرة ١٩١٣، جـ٤ ، ص ١٥ - ١٦ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٢ - ٢٣ .

وعاداتهم حرص دائماً على ذكرها كلما أتيحت له الفرصة فى ذلك. ولنضرب مثالا على ذلك بما قاله فى إيراده نسب أم الملك الناصر محمد بن قلاوون وهى مغولية الأصل فقال عنها بأنها: "الخاتون المكرمة بنت سكتاى بن قراجين بن جنغان نوين وهو ابن عم تتجوا المقا المشهور وهؤلاء من الأعيان المشهورين والكبراء المذكورين.." ثم بعد ذلك يورد قصة مجئ بنت سكتاى إلى الديار المصرية، وكأن سكتاى بذلك حظى بشرفين معاً، شرف النسب ثم شرف القدوم إلى مصر ودخوله فى الإسلام وهو ما ينسحب على ابنته أم الناصر محمد(١) وقد سار على دربه كثير من المؤرخين الذين أتوا بعده، فهذا هو المقريزى فى ترجمته للسلطان الناصر محمد بن قلاوون "ت ٧٤١هـ" يقول : "محمد بن قلاوون، السلطان الملك الناصر، ناصر الدين أبو المعالى، أبو الفتح ، ابن الملك المنصور سيف الدين ، الألفى، الصالحى، النجمى، أمة أشلون خاتون بنت سكتاى بن قراجين.."(٢) وابن تغرى بردى يذكر فى حديثه عن نفس السلطان قوله: "وأمه بنت سكتاى بن قرا لاجين جغتاى التتارى. وكان قدوم سكتاى مع أخيه قرمجى من بلاد التتار إلى مصر سنة خمسة وسبعين وستمائة ..(٣) كما أن "النويرى" فى ذكره لحوادث سنة ٦٨١هـ أيام المنصور قلاوون يقول: "وفيها بنى السلطان ببنت سكتاى بن قراجين بن جنغان نوين، وكان سكتاى هذا ، قد ورد إلى الديار المصرية، هو وقرمشى، فى سنة أربع وسبعين وستمائة، صحبة

(١) بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية ، ص ١٠٧ .

(٢) المقريزى : المقفى الكبير ، جـ٧ ، ص ١٦٢ ، ترجمة ٣٢٦٥ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ١٦٤ .

بيجار الرومي، في الدولة الظاهرية. وهذه هي والدة السلطان الملك الناصر"(١) وفي موضوع آخر في حديثه عن الملك الصالح علاء الدين على ابن السلطان المنصور قلاوون الذي توفى سنة ٦٨٧هـ يقول "وخلف ولدا واحداً ، من زوجته منكبك ابنة الأمير سيف الدين نوكبه، وهو الأمير مظفر الدين موسى..."(٢).

كذلك يذكر الصفدي عند حديثه عن عام ٧٣٢هـ قوله وفيها: "دخل ابن السلطان آنوك بن الخوندطغاي على بنت الأمير سيف الدين بكتمر الساقي وكان عرسا عظيماً.."(٣) أما "ابن عبد الظاهر" فهو يشير إلى عادة تكريم الابن بنسب الأم بشكل لا يحتمل أدنى شك، ففي حديثه عن السلطان الناصر محمد بن قلاوون يقول: "وهو من الدار الرومية من العظم القاني، جده لأمه سكتاى بن باجو أكبر عظماء التتار، فجمع الله له أطراف الفخار.." أي أنه ابن سلطان وأمه ابنة أحد عظماء التتار(٤) .

ومن العادات المغولية التي ظهرت في مصر وكثر انتشارها طوال العصر المملوكي، عادة عقد حلقات الصيد إذ المعروف أن المغول كانوا مولعين بها إلى حد كبير ، وكانوا يعنون بها عناية كبيرة كلما فرغوا من القتال، وكانت في الحقيقة هي رياضتهم المحببة إلى نفوسهم، ولكنهم كانوا يتخذونها وسيلة لإعداد أنفسهم إذا ما جد الجد ، فهم في حلبات الصيد يدربون أنفسهم على ما سيفعلونه في وقت الحرب، وكان يشرف على ميادين الصيد كبار الأمراء

(١) النويري : نهاية الأرب ، جـ٣١ ، ص ٩٠ .

(٢) المصدر السابق ، نفسه ، ص ١٥٩ .

(٣) الصفدي : الوافي بالوفيات ، جـ٢ ، ٣٦٩ .

(٤) ابن عبد الظاهر : تشريف الأيام ، ص ١١٠ – ١١١ .

منهم، ومن حملات أيضا يحصل المغول على اللحوم اللازمة لمد الجيش والبلاط، فكانوا إذا ما قتلوا عدداً كبيراً من حيوانات الصيد، أكلوا أكبر قدر منها.(١) وانتقلت هذه العادة إلى المماليك، بل نراهم استخدموا كثيراً من أبناء المغول فى الإشراف على الجوارح من الطيور وغيرها، وسائر أمور الصيد، هذه الوظيفة كان يطلق على من يتولاها أمير شكار.(٢)

كما أن الباحث فى تاريخ المغول يدرك أن من عاداتهم فى التخلص من منافسيهم أو أعدائهم كان عن طريق دس السم له بطريقة أو بأخرى، ومما يؤكد ذلك ما تشير إليه بعض المصادر المعاصرة سنة ٦٨٠هـ / ١٢٨٢م من أن القاضى جمال الدين محمد بن العجمية أتهم بأنه "سم منكوتمر فأخذت أم منكوتمر القاضى جمال الدين وجميع أولاده وذبحتهم"(٣) وغيرها من الإشارات المختلفة التى تدل على انتشار هذه العادة بينهم(٤) ومن يتصفح تاريخ سلاطين المماليك يجد أن هذه العادة أخذت فى الانتشار فى مصر على عهدهم، وبخاصة منذ عهد الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦هـ) الذى قال عنه ابن تغرى بردى: "كان الملك الظاهر رحمه الله يسير على قاعدة ملوك التتار..."(٥) وفى عهد من أتى بعده من السلاطين، نذكر من ذلك مثالا لما حدث فى عصر المنصور

---

(١) فؤاد الصياد : نفسه ، ص ٣٤١ - ٣٤٢ ؛
Poliak : The Influence of Ghingiskhan's Yassa, p. 872
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٥ ، ص ٤٦١ .
(٣) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات ، جـ٧ ، ص ٢٣٥ .
(٤) فؤاد عبد المعطى الصياد : نفسه ، ص ١٩٥ - ٢٢٥ .
(٥) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ ٧ ، ١٨٢ .

قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩هـ)، ففى عام ٦٨٢هـ / ١٢٨٣م فإن الوزير "نجم الدين حمزة بن محمد الأصفونى، وزير الملك المنصور قلاوون الألفى بالديار المصرية... كان له عبد يسمى فرج فاستماله الأمير علم الدين سنجر الشجاعى إلى أن أسقى أستاذه الصاحب نجم الدين سما فتوفى منه فى شهر ربيع الأول.. ثم ضرب الشجاعى فرج عبد الصاحب نجم الدين بالمقارع إلى أن مات" لكى يخفى جريمته، وهذا دليل واضح على أن واحداً من كبار أمراء المماليك كان وراء استخدام هذه الوسيلة لكى يتخلص من منافسه، حتى تتاح له الفرصة فى تولى الوزارة.(١) مما يرجح أن أبناء العناصر المغولية كان لهم أثرهم فى شيوع هذه العادة فى مصر فى ذلك الوقت، وبخاصة فى صفوف المماليك.

كذلك كان لأبناء العناصر المغولية أثرهم الواضح فى الامتداد العمرانى الذى شهدته القاهرة بوجه خاص فى العصر المملوكى، سواء فى القلعة نفسها حيث وجد عدة مساكن لهم وهى التى عرفت فيما بعد باسم خرائب التتر، والتى تكلم عنها المقريزى فى خططه عند وصفه لقلعة الجبل فقال: "وبها مساكن تعرف بخرائب التتر كانت قدر حارة، خربها الملك الأشرف برسباى فى ذى القعدة سنة ثمان وعشرين وثمانمائة.."(٢) وبالبحث عن موقع هذه الخرائب من القلعة تبين أنها كانت واقعة فى الجهة الشرقية من الحوش الداخلى الكبير الذى فيه ثكنات الجيش داخل القلعة بالقاهرة.(٣) ومن هذا يتضح أنه نظراً لكثرة هؤلاء المغول فقد تم تخصيص عدة مساكن لهم داخل القلعة، ولا ندرى متى

(١) ابن الفرات : نفسه ، جـ٧ ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٢) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٠٤ .

(٣) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ١٨ ، حاشية ١ .

كان ذلك، لكن من الراجح أن يكون فى عهد الظاهر بيبرس، وهو الذى حرص على أن يجمع أبناء العناصر المغولية التى وفدت على مصر ويسكنهم بالقاهرة، ولم يرسلهم إلى سواحل بلاد الشام، على الرغم من اهتمامه الشديد بإنزال قبائل محاربة فى هذا الساحل، على غرار مافعل بالتركمان حين أنزلهم فى يافا لحراستها بعد استيلائه عليها سنة ٦٦٦هـ / ١٢٦٧م.(١) وفى باب اللوق كان أثرهم واضحا كذلك فى تعمير هذه المنطقة حيث يقول المقريزى: "وأول ما بنيت الدور للسكن فى اللوق أيام الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى وذلك أنه جهز كشافة من خواصه مع الأمير جمال الدين الرومى السلاح دار الأمير علاء الدين أق سنقر الناصرى ليعرف أخبار هولاكو ومعهم عدة من العربان فوجدوا طائفة من التتر مستأمنة وقد عزموا على قصد السلطان بمصر... فلما وردت الأخبار بذلك إلى مصر كتب السلطان إلى نواب الشام بإكرامهم وتجهيز الإقامات لهم وبعث إليهم بالخلع والإنعامات فوصلوا إلى القاهرة وهم نيف على مائتى فارس بنسائهم وأولادهم فى يوم الخميس رابع عشرى ذى الحجة سنة ستين وستمائة... فأنزلهم السلطان فى دور كان قد أمر بعمارتها من أجلهم فى أراضى اللوق وعمل لهم دعوة عظيمة هناك وحمل إليهم الخلع والخيول والأموال وركب السلطان إلى الميدان وأركبهم معه للعب الأكرة وأعطى كبراءهم إمريات فمنهم من عمله أمير مائة ومنهم دون ذلك ونزل بقيتهم من حملة البحرية وصار كل منهم فى سعة الحال كالأمير فى خدمته الأجناد والغلمان وأفرد لهم عدة جهات برسم مرتبهم وكثرت نعمهم وتظاهروا بدين الإسلام فلما بلغ التتار مافعله السلطان مع هؤلاء وفد عليه

(١) المقريزى السلوك ، جـ١ ، ص ٥٦٥ ، السيد الباز العرينى : نفسه ، ص٥٩-٦٠.

منهم جماعة بعد جماعة وهو يقابلهم بمزيد الإحسان فتكاثروا بديار مصر وتزايدت العمائر فى اللوق وما حوله وصار هنالك عدة أحكار عامرة آهلة... وفى سادس ذى الحجة من سنة إحدى وستين قدم من المغل والبهادرية زيادة على ألف وثلثمائة فارس فأنزلوا فى مساكن عمرت لهم باللوق بأهليهم وأولادهم..."(١)

وفى سلطنة الملك العادل كتبغا وفدت على مصر جماعة من الأويراتية مع كبيرهم طرغاى حيث أنزلوا بالحسينية مما كان سببا فى عمارة هذه المنطقة ، وفى هذا يقول المقريزى: "ولم تعمر هذه الشقة إلا فى الدولة التركية لا سيما لما تغلب التتر على ممالك الشرق والعراق وجفل الناس إلى مصر فنزلوا بهذه الشقة..وعمروا بها المساكن ونزل بها أيضاً أمراء الدولة فصارت من أعظم عمائر مصر والقاهرة... وكانت الحسينية قد أربت فى عمارتها على سائر أخطاط مصر والقاهرة حتى لقد قال لى ثقة ممن أدركت من الشيخة أنه يعرف الحسينية عامرة بالأسواق والدور وسائر شوارعها كافة بازدحام الناس من الباعة والمارة وأرباب المعايش وأصحاب اللهو والملعوب فيما بين الريدانية محطة المحمل يوم خروج الحاج من القاهرة وإلى باب الفتوح لا يستطيع الإنسان أن يمر فى هذا الشارع الطويل العريض طول هذه المسافة الكبيرة إلا بمشقة من الزحام..."(٢) إلا أنه أصابها ما أصاب كثيرا من الأحياء فى القاهرة منذ أواخر القرن التاسع الهجرى، الخامس عشر الميلاد كثير من التدهور وقلة

(١) المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص ٢٢ – ٢٣ .

(٢) المصدر نفسه ، جـ٢ ، ص ٢٢ – ٢٣.

عدد السكان بسبب تدهور الأحوال الاقتصادية وانتشار كثير من الأوبئة والطواعين التى فتكت بكثير من الناس(1) .

ولقد عاش هؤلاء المغول فى أحيائهم الخاصة بهم ، ولم يكونوا بمعزل عن المجتمع المحيط بهم ، فاندمجوا فى الإسلام واختلطوا بأهل البلاد ، كما أخذ كثير من الأمراء أولادهم للخدمة ، وكثرت الرغبة فيهم لجمالهم . وتزوج الناس بناتهم وبخاصة من السلاطين والأمراء والعلماء والتجار ، واندمج بعضهم فى الجيش المملوكى بفرقه المختلفة(2) وكما أثروا فى المجتمع المصرى فإنهم تأثروا به ، هذا التأثير يبدو واضحًا فى أعقابهم حيث تخلوا عن كثير من الأسماء المغولية الأصل ، وتسموا بأسماء إسلامية من الأسماء التى كانت شائعة فى ذلك العصر والمحببة إلى المسلمين ، مثل (محمد) ، و(على) ، و(أبو بكر) ، و(أحمد) ؛ فضلاً عن تلقبهم بالألقاب المضافة إلى الدين مثل (سيف الدين) ، و(بهاء الدين) ، و(شهاب الدين) ، و(ناصر الدين) وغيرها من الألقاب(3) . وفيما يتعلق بالزواج ، فكما أقبل الناس على الزواج من بناتهم ، فهناك إشارات فى المصادر المعاصرة على حرصهم على الزواج من بنات جنسهم ، ولم يصادفنا فى المصادر المعاصرة ما يفيد أنهم تزوجوا من بنات

---

(1) قاسم عبده قاسم : دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، دار المعارف ١٩٨١ ، ص ٣٩ – ١١٨ .

(2) المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص ٨١٣ ، ابن الفرات : نفسه ، جـ٨ ، ص ٢٠٧ ؛ السيد الباز العرينى : نفسه ، ص ٦١ – ٦٢ .

(3) ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ١١ ؛ السخاوى : الضوء اللمع ، جـ٣ ، ص ١٧ – ٤٥ .

الآخرين ، وربما كان الجمال المشهور بينهم السبب فى ذلك[١] . وإن كانت هذه الإشارات قليلة ونادرة إلا أنها تؤكد ما ذهبنا إليه من حرص الرجال منهم على التزوج بزوجات مغوليات ، مثال ذلك ما يشير إليه بيبرس المنصورى – وهو الخبير بهم باعتباره واحدًا منهم – من أن الأمير سيف الدين كوندك الساقى تزوج خالة الملك الصالح بن قلاوون وهى بنت كرمون التترى ، وقد كان الملك الظاهر بيبرس قد تزوجها وبانت عنه ، وكانت فى بيت قلاوون وتحت نظره لتزوجه بأختها . هذا فضلاً عما تشير إليه المصادر عن هجراتهم وأنهم اصطحبوا معهم زوجاتهم[٢] . كذلك هناك بعض الإشارات عن مدى ما حازوه من ثروات هائلة وإقطاعات كانت تدر عليهم الكثير ، نذكر من ذلك على سبيل المثال الأمير سيف الدين بشتك بن عبد الله الناصرى ، الذى كان إقطاعه يدر عليه سنويًا ما لا يقل عن مائتى ألف دينار[٣] .

ومن الآثار الاجتماعية والاقتصادية فى نفس الوقت والتى نجمت عن تأثر النظم المملوكية بما هو معروف عند المغول ، أو بسبب قدومهم إلى مصر، ما عرف فى العصر المملوكى باسم الروك، والذى قصد به فى ذلك العصر ضبط الإقطاعات وعدم استمرار أراضى معينة فى إقطاع معين، وعدم استمرار بعض الإقطاعات فى أيدى الوارثين، وإعادة توزيع الأراضى بين السلطان وأرباب الإقطاع، إذ جرى العرف عند المغول على أساس أن الزعامة

---

(١) المقريزى : المقفى الكبير ، جـ ٣ ، ص ٢١ – ٢٣ .

(٢) بيبرس المنصورى : التحفة الملوكية ، ص ٨٤ – ٨٧ ، ١٠٨ ، النويرى : نهاية الأرب ، جـ٣١ ، ص ٩٠ .

(٣) ابن تغرى بردى : المنهل ، جـ٣ ، ص ٤٦٧ – ٤٦٨ .

سيادة على القوم لا إمتلاك الأراض، ويتولى شيخ القبيلة توزيع المراعى أو الأراضى بين بطونها وفقا للعرف والتقاليد، ولقد نقل المغول هذا النظام إلى الجهات التى خضعت لهم؛ أو البلدان التى توافدوا عليها مثل مصر وبلاد الشام. وعلى هذا الأساس فهم يرون أن من حصل على إقطاعات فإنما حصل عليها بمحض رغبة السلطان ولا يترتب عايها حقوق، والسلطان مطلق الحرية فى الإبقاء على الإقطاع فى صاحبه أو نزعه منه.(١) وهذه الظاهرة كانت واضحة تمام الوضوح طوال العصر المملوكى، فعندما يغضب السلطان على أمير أو يقبض عليه أو حتى ينقله من وظيفة إلى أخرى فإنه كان يحل محله شخصا آخر فى إقطاعه، وينعم بإقطاع هذا الأخير على شخص ثالث وهكذا . كما أنها تتضح أشد الوضوح فيما حدث فى عصر الناصر محمد بن قلاوون على وجه الخصوص وفى سلطنته الثالثة، حيث كان يتتبع كبار الأمراء لكسر شوكتهم الواحد تلو الآخر، سواء بالتخلص منهم أو سجنهم سواء فى القلعة أم فى الاسكندرية، وأخذ يحل مماليكه فى المناصب التى كان يتولاها هؤلاء الأمراء وفى إقطاعاتهم حيث " أقر السلطان فى يوم واحد ستة وأربعين أميراً، منهم طلبخاناه تسعة وعشرون سبعة عشر وشقوا القاهرة بالشرابيش والخلع..."(٢)

ولقد عبر الناصر محمد عن سياسته هذه والتى استقاها من المغول – سواء من أمه أم أخواله فىمصر – خير تعبير عندما أمر بالقبض على الأمير أسند مركرجى والذى بعث "يسأل السلطان عن ذنبه فأعاد جوابه، مالك ذنب ،

(١) السيد الباز العرينى : نفسه ، ص ١٧١ – ١٧٢؛
Lombton : land lord and Peasant in Persia, 1953, p.77.
(٢) ابن تغرى البردى : النجوم ، جـ٩ ، ص ٣٣ – ٣٤ .

إلا أنك قلت لى لما ودعتك عند سفرك: أوصيك ياخوند: لا تبقى فى دولتك كبشا كبيرا وأنشئ مماليكك؛ ولم يبق عندى كبش كبير غيرك"(١) ولكى يحل السلطان مماليكه محل هؤلاء الأمراء فقد شرع فى عمل الروك الناصرى الذى ينسب إليه ، ويشير ابن تغرى بردى إلى ذلك صراحة فى قوله : " وفى العشر الأخير من شعبان من سنة خمس عشرة وسبعمائة وقع الشروع فى عمل الروك بأرض مصر، وسبب ذلك أن أصحاب بيبرس الجاشنكير وسلار وجماعة من البرجية، كان خبز الواحد منهم ما بين ألف مثقال فى السنة إلى ثلثمائة مثقال، فأخذ السلطان أخبازهم وخشى الفتنة، وقرر مع فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيش روك البلاد، وأخرج الأمراء إلى الأعمال..."(٢)

من هذا العرض السريع يتضح لنا أعداد الهجرات المغولية التى جاءت إلى مصر، وأثر أبناء العناصر المغولية المختلفة فى مجال الحياتين الثقافية والاجتماعية فى العصر المملوكى، والله نسأل أن نكون قد وفقنا فيما قصدنا إليه. والله نعم العون والموفق.

---

(١) المصدر السابق نفسه ، جـ٩ ، ص ٢٧ - ٣١ .

(٢) المصدر نفسه ، جـ٩ ، ص ٤٢ .

النفوذ البريطاني في الخليج العربي
وموقف الدولة العثمانية منه
١٢١٢ – ١٣٠٧ هـ (١٧٩٨ – ١٨٩٠ م)

دكتورة / حياة محمد البسام

ملخص البحث :

تسابقت الدول الأوروبية الكبرى على بسط نفوذها على الخليج بسبب ماحظى به أهله من ثراء حقيقى .. وكانت البرتغال أول سابق ، تلتها هولندا ثم بريطانيا التى توشحت ثوباً استعمارياً مختلفاً عن سابقتيها مكنها من إرساء قواعدها فى المنطقة وإحكام قبضتها التامة على كل مناطقه مما حدا بالمؤرخين لوصف منطقة الخليج بشبه بحيرة بريطانية .

وبلغت الهيمنة البريطانية على الخليج حداً ألزم شيوخ المناطق بمعاهدات تمنع الأهالى من تأجير مساكنهم أو أراضيهم لأى أجنبى غير بريطانيا أو من ترضى عنه .

ثم توشحت عباءة محاربة القرصنة وتمكنت بواسطتها من ضرب أية قوة عربية تحاول الظهور فى المنطقة . ويشهد على ذلك ضربها للقواسم وبعد ذلك تدثرت بريطانيا بعباءة محاربة الرق بعد أن أضفت عليها طابعا إنسانياً فى ظاهره ، استعمارياً فى جوهره .

أرادت منه منع العمالة من الخروج عن امبراطوريتها . أضف الى ذلك شعار محاربة امتلاك السلاح الذى رفعته إثر اندلاع الثورة

الهندية عام ١٢٧٤ هـ (١٨٥٧ م) ، خشية وصول السلاح لأيدى الثوار والمناوئين .

ولتأكيد هيمنتها على المنطقة لجأت بريطانيا لإنشاء شبكة مبرقات تربطها بمستعمراتها فى شرق آسيا والهند ، كما نجحت فى تقييد حكام الخليج بمعاهدات المانعة والحماية التى تمنعهم من الاتصال بأية دولة استعمارية أخرى.

أما موقف الدولة العثمانية حيال هذا التوغل الاستعمارى فى الخليج ، فقد اتصف تارة بموقف المتفرج وتارة أخرى بموقف الحليف ويشهد على ذلك استنجاد الأولى بالثانية للحد من تقدم محمد على باشا بجيوشه ، فهبت بريطانيا تلبى النداء بكل ما أوتيت من حيلة لخوفها من تقدم محمد على ، ورغبتها فى ضم ميناء عدن بعد أن فشلت فى شرائه من سلطان لحج ، فأرسلت سفنها التى أمطرت الميناء بوابل الرصاص حتى تمكنت ضمه لممتلكاتها فكان خير مانع لتقدم قوات محمد على فى الخليج .

تمهيد :

قبل البدء فى أحداث الصراع العثمانى - البريطانى على منطقة الخليج من عام ١٢١٢ - ١٣٠٧ هـ (١٧٩٨ - ١٨٩٠ م) لابد من إلقاء الضوء على أهمية هذا الممر المائى الحيوى لما كان يتمتع به هذا الجزء من الوطن العربى الإسلامى بأهمية كبيرة تتمثل فى عدة نواحٍ رئيسية أهمها الناحيتين السياسية ، والاقتصادية ، أضف الى ذلك الموقع الهام الذى يعد حلقة وصل بين الشرق والغرب ، ويتحكم فى الطرق التجارية المارة من الهند الى الشرق

الأوسط حتى أوروبا والعكس .. وقد أكسبه هذا الموقع أهمية كبيرة مما جعله محط أنظار الطامعين منذ العصور الأولى .. يضاف الى ذلك أن هذا الموقع مكن التجار العرب فى هذه المنطقة من السيطرة على التجارة عامة ، وعلى تجارة المحيط الهندى خاصة ، فحظيت مناطق الخليج العربى بثراء واسع ، ومن ثم ازدهرت المنطقة عمرانيا وزراعيا ونشطت حركة الصيد ، فازداد سكانها ثراءً وسيطروا على الأسواق العالمية خاصة فيما يتعلق بتجارة اللؤلؤ وبالأخص منطقة البحرين التى اشتهرت بأجود أنواع اللؤلؤ الخليجى فأدى هذا الثراء بدوره الى تطور طرق التجارة التى سهلت مرور القوافل التجارية الى مناطق التصدير(١) .

إن البضائع التى يحتاجها الشرق والغرب لايمكن أن تتحرك إلا عن طريق الخليج العربى فأكسبه هذا أهمية كبيرة جدا ، فهناك سلع تأتى عن طريق القارة الأوروبية لا يمكن الوصول إلى موردها إلا عن هذا الطريق ، كتجارة الحديد والرصاص والأخشاب والورق والأصواف وغيرها . يضاف الى هذا أن الخليج العربى يمثل المنفذ الوحيد لمنتجات العراق من تمور وعطور وحناء وأنسجة قطنية(٢) .

أمام هذه المميزات التى يحظى بها الخليج العربى كان طبيعياً أن تهوى إليه أنظار الطامعين من الدول الأوروبية فحاول البرتغاليون منذ عام ٩٠٨ هـ (١٥٠٣ م) فرض سيطرتهم على هذا الممر المائى عندما قدم القائد

---

(١) الصيرفى ، نوال . النفوذ البرتغالى فى الخليج ، ص ٥١

(٢) الصيرفى ، نوال . النفوذ البريطانى فى الخليج ، ص ٥٢

البرتغالى الفونسودى البوكيرك (Alponso De Albuqerque) إلى الهند وفكر فى مد النفوذ البرتغالى الى الموانىء العربية فى الخليج وأيقن أن ذلك لن يتحقق إلا باحتلال الموانىء التجارية الممتدة من الهند إلى رأس الرجاء الصالح ، وجعلها مناطق نفوذ برتغالية(١) .

وما أن حل عام ٩١٢هـ (١٥٠٧ م) حتى احتل (البوكيرك) جزيرة سومطرة الواقعة بين البحر الأحمر والخليج العربى وحاول مد سلطانه حتى عدن والبحر الأحمر ، ولكن محاولاته باءت بالفشل فرأى أن الأفضل التوجه إلى الخليج العربى وموانئه الهامة فشن هجوماً امتد من الجنوب الى الشمال وشمل كلاً من قلهات ، ومسقط وقرياط وصحار ، وخور فكان ، وهرمز ، والبحرين والبصرية الى القطيف(٢) .

كانت قلهات أول ما وقع تحت النفوذ البرتغالى عام ٩١٢هـ (١٥٠٧ م) بعد أن سيَّر إليها البوكيرك سبع سفن حربية ونزل بقوته بها فبث الرعب فى العُمانيين بسبب ما ارتكبه من أعمال وحشية كتدمير السفن والقتل والتعذيب كما أرسل الى حاكم قلهات التى كانت - آنئذٍ - تابعة لمملكة هرمز وفداً يطالبه بتسليم دون أية معارضة لتكون تابعة للبرتغاليين .

(1) Milles , S. B. the Countries and tribes of the persian Gulf, P.140 .

(٢) الصيرفى ، نوال ، النفوذ البرتغالى فى الخليج ، ص ١١٨ ، العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية ، ص١٤-١٥ ، لوريمر ، ج .ج، دليل الخليج ، جـ ١ ص ١٢ - ١٣
Milles , S. B. the Countries and tribes of the persian Gulf, P.143 .

وأمام هذه المطالبة التى تضمنت التهديد وافق الحاكم على طلبه وقدم له المساعدة المطلوبة وعقد معه صلحاً(١) .

وببزوغ فجر عام ٩٢٨ هـ (١٥٢٢م) سخط الأهالى على البرتغاليين بعد تعيين مجموعة من الموظفين البرتغاليين فى مراكز هامة بالجمارك مما دفع حاكم هرمز لمهاجمتهم عن طريق البحر .. فأصيب البرتغاليون بخسائر فادحة فى الأرواح ، لأن ذلك الهجوم كان موحداً ومفاجئاً ، فاستنجد البرتغاليون بالاسطول البرتغالى الموجود فى الهند ، بقيادة دى بيزيس وهاجم مدينة صحار ودمرها تدمير ثم تقديم إلى هرمز وأعاد إليها النفوذ البرتغالى ، وابرمت بين الطرفين معاهدة سنة ٩٢٩ هـ (١٥٢٣م) . وقد فرض القائد البرتغالى بنودها على شيخ هرمز إذ جعلها تدخل تحت الحماية البرتغالية وتخضع لها خضوعا تاماً(٢) .

أما الهدف الرئيسى من التوسع البرتغالى فى الخليج فكان منصباً فى الوصول للهند والشرق الأقصى عن طريق هذا الممر دون الحاجة إلى وساطة المسلمين لنقل تجارتهم ، لأن هذه المعاهدة وما سبقها من المعاهدات مكنتهم من تأسيس حكومة برئاسة نائب الملك ، وزادتهم إصراراً على مد نفوذهم إلى شبه الجزيرة العربية وباقى مناطق الخليج .

وقد حرص البرتغاليون على التوسع لعد أسباب أهمها :

---

(١) Milles . S. B. the Countries and tribes of the persian Gulf, P.143 .

(٢) لوريمر ، ج . ج ، دليل الخليج ، جـ ١ ص ١٤ – ١٥

أولاً : كانت حركة التجارة والملاحة العربية قوية فى المحيط الهندى رغم قوة البرتغاليين الحربية ، وسفنهم الكبيرة التى نزلت فى المحيط الهندى ولم تستطيع إعاقة حركة الملاحة العربية .

ثانيا : سماح حكومة البرتغال لتجارها بممارسة القرصنة ضد السفن العربية .

ثالثا : سعى البرتغاليين للتوسع بروح صليبية بغية تحقيق هدف معين وهو سد منافذ التجارة فى وجه التجار المسلمين فى كل من البحر الأحمر والخليج العربى(١) .

وبحلول عام٩٩٥ هـ (١٥٨٧م) بدأت القوة البرتغالية فى الشرق تضمحل ، يضاف إلى هذا إتجاه حاكم فارس (الشاه عباس) فى ذلك الوقت الى الانضمام لقوة أخرى غير القوة البرتغالية ، فتحالف مع الانجليز ضدهم فكان عمله سببا فى فتح الباب أمام هولندا التى كانت تترقب ، فقدمت مساعدات لانجلترا ، وفارس كما أن العقيدة البروتستينية كانت سبباً آخر فى الاتحاد بين الهولنديين والانجليز ، على خلاف البرتغاليين الذين يدينون بالكاثوليكية ... وما أن رحل البرتغاليون من هرمز عام١٠٣٢ هـ (١٦٢٣ م) حتى سارع الانجليز فى إقامة وكالة لشركة الهند الشرقية فى ميناء بندر عباس، لكن التجارة الانجليزية فى هذا الميناء تعثرت مما جعل المسئولين يفكرون فى تصفية أعمالها ، فدارت مناقشات حول هذا الموضوع أسفرت عن انشقاقهم إلى مؤيد ومعارض .. وقد استند المعارضون على ما قدموه من

(١) العقاد ، التيارات السياسية ، ص ١٦ - ١٧

مساعدات لكل من فارس وهولندا ضد البرتغال .. لذا كانوا يرون ضرورة إعفاء البضائع الانجليزية من الضرائب أو دفع رسوم مخفضة أسوة بالهولنديين .

وفى نهاية الأمر اتفق الطرفان على إبقاء الشركة فى بندر عباس خوفا من تزايد النفوذ الهولندى وتحوله من نفوذ تجارى إلى نفوذ عسكرى(١) .

وفى عام ١٠٥٤ هـ (١٦٤٥م) هددت حملة بحرية هولندية بقيادة الكومودور بلك (Blak) ميناء بندر عباس ، متعللة بما حصلت عليه حكومة فارس من رسوم جمركية لا ترى لها حقا فيها .. وقد كاد القائد بلك أن يستولى على جزيرة قشم إلا أنه فشل ، لكنه نجح فى الحصول على إعفاء تام من الرسوم الجمركية التى فرضت على استيراد الحرير .. وقد أثبت الهولنديون فى منتصف القرن السابع عشر الميلادى تفوقهم التجارى ، واحتفظوا بذلك طوال تلك المدة لعدة أسباب :

أولاً : إن الحكومة الهولندية هى صاحبة الشركة الهولندية ، وكان باستطاعتها الاتفاق على فرض الامتيازات التجارية الهولندية بالقوة .

ثانياً : احتكار الشركة الهولندية التجارية فيما تعرضت الشركة الانجليزية لانتقادات كثيرة .

ثالثاً : سماح الحكومة البريطانية لبعض الأفراد بممارسة التجارة ،

---

(١) العقاد ، التيارات السياسية ، ص ١٧

ويعنىهذا أن احتكارها للتجارة لم يكن تاما . كل تلك الأسباب مجتمعة جعلت التجارة الهولندية تزدهر وتتفوق (١) .

وفى بداية القرن الثامن عشر الميلادى انتكس الوضع حيث بدأت بوادر الأمل تشرق أمام الانجليز بعد أن ضُمتْ مدينة بومباى للشركة الانجليزية عام ١٠٩٨ هـ (١٦٨٧ م) وأصبح هذا الميناء يتحكم فى أعمال الشركة غربى المحيط الهندى،ويشمل هذا (ضمنا)الخليج العربى.يضاف إلىذلك ضعف القوة الهولندية فى تلك المنطقة ، وميل الشاه حسين - آخر الحكام الصفويين الذين حافظوا على سلطتهم فى المنطقة - مع الانجليز وتنصله عن الهولنديين، لأن حكام الصفويين كانوا دائما يميلون مع ميزان القوى الراجح(٢).

بداية النفوذ البريطانى فى الخليج العربى :

لاشك أن النفوذ العثمانى متغلغل فى المنطقة الإسلامية عموماً ، والخليج العربى على وجه الخصوص ، منذ إخضاع العراق للحكم العثمانى عام ٩٣٢هـ (١٥٢٤) ، وكانت غالبية الدول الإسلامية سواء فى الخليج أو غيره خاضعة لهذا النفوذ لعدة أسباب أهمها :

أولاً : الدولة العثمانية دولة إسلامية سنية .

---

(١) الداوود ، محمود ، الخليج العربى والعلاقات الدولية ، ص ٥١ ، إبراهيم عبد العزيز، علاقة ساحل عُمان ببريطانيا ص ٧١ ، العقاد صلاح التيارات السياسية ص ٢٠

(٢) بندر عباس هو الميناء الذى تنازلت عنه فارس لعمان على سبيل التأجير ، انظر : العابد فؤاد سياسة بريطانيا فى الخليج ٢٧ - ٢٨

ثانياً : أتت هذه الدولة إلى المسرح السياسى وهى ترفع لواء الدفاع عن الإسلام والوقوف فىوجه الغزو الصليبىالذىكانت تنوى تدميره وتدمير أهله.

ثالثاً : كان سلاطينها يتمتعون بسمعة إسلامية حسنة جعلت غالبية الدول الإسلامية تنطوى تحت لوائهم طوعا .. ومن ضمن تلك الدول دول الخليج العربى التى كانت تدين لها بالولاء الأسمى مع الاحتفاظ بسمعتها السياسية ، وإدارة شئونها بنفسها .. لكن الغرب تهافت على هذا لجزء من الوطن الإسلامى لبسط سيطرته عليه بسبب ما يحظى به من مميزات حيوية سبق ذكرها ، خاصة الدول ذات االنفوذ التجارى ، كهولندا وبريطانيا وفرنسا، وللأسف الشديد ، كانت الدولة العثمانية لاهية عما يدور من تسابق استعمارى محموم فى تلك الأجزاء من امبراطوريتها[١] .

انتهزت بريطانيا ضعف وتدهور النفوذ الهولندى وأخذت فى مد نفوذها على بعض مناطق الخليج العربى لاسيما بعد هزيمة بونابرت وتبدد أحلامه ، فسعت إلى إقصاء كل قوة تفكر فى أن يكون لها نفوذ فى الخليج ، ما عدا الدولة العثمانية التى كانت لها السيطرة الإسمية فقط ، وهذا لا يضير بريطانيا فى شيء لأنها كانت تحظى بالهيمنة التامة عليه[٢] .

وكان أول مظاهر هذه الهيمنة البريطانية يتمثل فى تقييد حكام الخليج بمعاهدات تحقق السيطرة التامة لبريطانيا على هذه المناطق دون أى منازع

---

(١) الداوود ، محمود ، الخليج العربى والعلاقات الدولية ، ص ١٨٥ ، العريان ، منيرة علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص١١

(٢) ديلسون ، أرنولد ، تاريخ الخليج ، ص ١٦٣ ، العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية، ص ٣٨٨ ، درويش ، مديحة ، سلطنة عُمان ص ١٧ .

(فعقدت أول معاهدة مع سلطان عمان ١٢١٢هـ (١٧٩٨م) وكان من بنود تلك المعاهدة :

١ - طرد الفرنسيين العاملين فى خدمة السلطان فى مسقط .

٢ - عدم االسماح لأية شركة أخرى (غير انجليزية) بالإنشاء وكالة تجارية ، أو إنزال حاميات فى ميناء بندر عباس .. ومن ذلك الميناء بدأت بريطانيا تنشر قواعدها الاستعمارية فى المنطقة دون أن يقف فى وجهها أى حاكم من حكام الخليج .

أما الدولة العثمانية فلم تحرك ساكناً أمام التغلغل الاستعمارى ، فيما عدا حكام رأس الخيمة من القواسم الذين تربطهم صلة قوية بالدولة السعودية الأولى إذ حاولوا بما كان لديهم من قوة بحرية الوقوف فى وجه هذا التقدم البريطانى فى المنطقة ، مما حدا ببريطانيا إلى تدميرهم بعد أن سخرت سياستها لاستحداث طرق شبه سليمة واستطاعت من خلالها تدمير تلك القوة العربية والخلاص من نفوذها بعد أن ألصقت بهم تهمة القرصنة فى مياه الخليج العربى وشنت عليهم حملات أدت إلى تدمير قوتهم وعاصمتهم (رأس الخيمة) .. وتم إنزال علمهم (الأحمر) وحل محله العلم البريطانى ، فاضطر شيخ القواسم (حسن بن رحمة) وأخوه (ابراهيم) إلى التسليم شريطة ضمان سلامة أتباعه(١) .

عندما كانت بريطانيا تسعى لفرض نفوذها على الخليج فى بداية القرن التاسع عشر ميلادى كان العثمانيون يعدون العدة لضرب الدولة السعودية

---

(١) عبد الله ، محمد مرسى ، أمارات الساحل ، ص١١٧ ، لوريمر ،ج . ج ، دليل الخليج ، جـ١ ص٣٠٥ ، ابن بشر ، عثمان ، عنوان المجد فى تاريخ نجد ، جـ١ ، ص١٨١ - ١٨٢ .

الأولى التى أثبتت وجودها خلال سنوات قلائل ، واستطاعت أن تمد سلطانها حتى وصلت إلى الحرمين الشريفين (مكة المكرمة والمدينة المنورة) غرباً ، وإلى بعض دول الخليج العربى شرقاً ، فاعتبرت الدولة العثمانية هذا العمل تعد على نفوذها وأخذت فى التخطيط لتدمير الدولة السعودية الأولى ، فأصدر الباب العالى أمره إلى واليه فى مصر (محمد على باشا) للقيام بهذه المهمة ، وسير الأخير عام ١٢٣٠ هـ (١٨١٥) جيشاً بقيادة ابنه (طوسون باشا) فنزل فى ميعاد ينبع وتقدم نحو المدينة المنورة واستولى عليها ، ثم واصل سيره إلى أن التحم مع القوات السعودية المتحركة فى الطائف ودارت معركة بين الطرفين تكبد خلالها الجيش العثمانى خسائر فادحة .. وقيل أن طوسون قتل فى تلك المعركة فعُرفت حملته بالحملة العثمانية الأولى(١) .

عاود محمد على باشا الكرة مرة ثانية فأرسل عام ١٢٣٢ هـ (١٨١٧م) حملة أخرى بقيادة إبراهيم باشا (أشهر قادته المحنكين) وقد حاول عبد الله ابن سعود ، بعد أن أنهكته المواجهة الأولى ، التفاوض مع محمد على ، لكن الأخير أبدى عدم الاستعداد ، فتأكد لعبد الله أن والى مصر يريد تدمير الدولة السعودية ولا يقصد استرجاع الحرمين الشريفين .

سار إبراهيم باشا بجيشه الضخم حتى وصل الحناكية ، واشتبك الطرفان فى معارك ضارية اشترك فيها عدد من القبائل ، لكن النصر كان حليف القوات العثمانية .. وسار الجيش حتى وصل عاصمة آل سعود (مدينة الدرعية) عام ١٢٣٣هـ (١٨١٨م) وحاصرها فاستسلم الأمير عبدالله ابن

---

(١) ابن بشر ، عثمان ، عنوان المجد فى تاريخ نجد ص١٩٠ .

سعود وطلب الأمان لـه ولمن معـه ، ودخلت جيوش إبراهيم باشا الدرعية فدمرتها تدميراً تاما وأرسلت جميع أفراد الأسرة السعودية إلى القسطنطينية فأعدموا هناك(١) .

ولا يعنى النصر الذى حققته القوات المصرية أنها لم تتكبد أى خسائر مادية أم بشرية ، إذا كان سبب تقدمها على الجيش السعودى تفوقها فى العتاد الحربى الحديث ثم كثرة جنودها .

واصلت قوات محمد على سيرها حتى بلغت الإحساء وأطلت على الخليج العربى فصارت له ولجنوده قوة عظيمة جعلت بريطانيا ترقب الموقف بحذر دون تدخل لأن سياستها تقضى بعدم التدخل فى الشئون الداخلية لأى بلد، وكان اهتمامها منصب على السواحل ، لكن هذا لا يمنع قلقها والتحفز لما سيحدث من جراء تقدم جيوش محمد على .. لذا سارعت بريطانيا لتوثيق صلتها بحاكم مسقط (السيد السعيد) وشيخ البحرين تحسباً لرد محمد على إذا فكر فى التوسع على حساب نفوذها(٢) .

أخذت بريطانيا تكبل مشائخ الخليج العربى بمعاهدات حماية لمواجهة هذا الخطر الجديد القادم من مصر ، وكانت فى ظاهرها تهدف لمحاربة القرصنة فى المنطقة لكن حقيقتها تنطوى على التوسع الاستعمارى ، ففى عام ١٢٣٥هـ (١٨٢٠) تم التوقيع على اتفاقية مبدئية بين بريطانيا ومسقط

---

(١) ابن بشر ، عثمان ، عنوان المجد فى تاريخ نجد ص١٩٠ - ١٩١ .
سعيد ، أمين ، تاريخ المملكة العربية السعودية ، جـ١ ، ص ١٠٠ .
(٢) العقاد . صلاح ، التيارات السياسية فى الخليج العربى ، ص٤٢٦ .

البحرين نصت على منع القرصنة في مياه الخليج العربي ، ثم سعت إلى جرهم لتوقيع اتفاقية وقع عليها أمراء ومشائخ الخليج تعهدوا بموجبها بعدم الاعتداء على بعض محاربة للقرصنة وتجارة الرقيق(١) .

ثم هبت لمراقبة الملاح في الخليج العربي وخصصت لذلك سفناً حربية لتقوم بدوريات مستمرة ، ثم أنشأت وكالة لها في الشارقة (بجانب وكالتها التي أقامته في مسقط) فأحكمت بذلك قبضتها على تلك المناطق كما فرضت سلطانها على جزيرة خرج عام ١٢٥٣هـ (١٨٣٨م) .

ونشطت في إحكام سيطرتها على باقي إمارات الخليج العربي ، وجعلتها خاضعة لنفوذها مما حدا بالدولة العثمانية للاستعانة بها للوقوف في وجه محمد على باشا (واليها على مصر) وأجبرته على سحب قواته من الجزيرة العربية ومنطقة الاحساء(٢) كانت بريطانيا ترقب توسعات محمد على باشا بحذر فحافة أن تمتدت قوته إلى مناطق نفوذها ، لذا قابلت طلب الدولة العثمانية لإيقاف تقدم محمد على بالرضا والقبول . وبحلول عام ١٢٥٤هـ (١٨٣٩م) أقنعت بريطانيا شيوخ الخليج العربي بتوقيع هدنة بحرية تنص في بادىء الأمر على عدم المساس بالتجارة البريطانية فكانت تلك الهدنة البذرة الأولى لفرض سلطان بريطانيا على منطقة الخليج .

موقف بريطانيا من التقدم المصري :

---

(١) عبد الله ، محمد مرسى ، أمارات الساحل عُمان ، ص٢٥٤ .

(٢) درويش ، مديحة ، سلطنة عُمان ، ص١١٧ ، عبد الله ، محمد مرسى ، أمارات الساحل وعُمان ص٢٥٤ ، العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية ، ص١١٠ .

لقد سبقت الإشارة إلى تقدم محمد على (ولى مصر من قبل الدولة العثمانية) وتحكمه فى بعض موانى البحر الأحمر ، مما جعله يهدد المصالح البريطانية ، فاعتبرت بريطانيا هذا التوسع المصرى فى المناطق المتاخمة للخليج العربى عام ١٢٤٦هـ (١٨٣١م) خطراً يهدد مصالح حكومة الهند البريطانية ، فسعت للسيطرة على عدن للوقوف فى وجه تقدم محمد على ، أضف إلى ذلك إدراكها لأهمية هذا الميناء لسفنها ولاتخاذه محطة تتزود منها تلك السفن بالوقود .

شعر محمد على بما تخطط له بريطانيا فأرسل إلى إبراهيم باشا (قائد جيوشه فى الجزيرة العربية) يأمره بمنع أى اتصال بين عدن والمخا .

وقد ذكر الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن فى كتابه " محمد على وشبه الجزيرة العربية " أن بريطانيا أفصحت عن نواياها حيال تقدم جيوش محمد على فى اليمن خاصة أن تقارير قناصلها أكدت لها أن محمد على يعمل لاحتلال البحر الأحمر وسواحل حضرموت ، فطلب بالمرستون (Palmerston) من كامبل (Campbell) تبليغ محمد على بأن إنجلترا والهند لا ينظران لمثل هذه الخطوة بعين الرضا(١) .

كان رد محمد على على تخوف بريطانيا من حركة توسعه بأن طمأنها وأكد لها أنه لا يرغب فى التوسع خارج البحر الأحمر ، لكن بريطانيا لم تطمئن فأخذت تخطط لاحتلال عدن وسد الطريق على محمد على لمعنه من

---

(١) عبد الرحيم ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، محمد على وشبه الجزيرة ، جـ٢ ص٢٣٣.

التوسع أكثر فى مناطق الخليج ، وبجانب هذا كانت بريطانيا تريد بواسطة السيطرة على عدن صد أى تدخل أجنبى من أية دولة استعمارية . فعمدت لشراء هذا الميناء بعد أن عقدت مع القبائل القاطنه فى تلك المناطق معاهدات حماية ضماناً لعدم تقدم الجيش المصرى فى مناطق الخليج العربى وعدن(١).

حاولت بريطانيا بكل الحيل والسبل أن تشترى عدن ، لكن سلطان لحج والمسؤلين هناك رفضوا ، فلم تجد طريقاً لاكتمالها غير قوة السلاح ، فسيرت إليها سفنها الحربية واستطاعت دخولها بعد قتال ضار ، ورفعت العلم البريطانى عليها عام ١٢٥٤هـ (١٨٣٩م) .

بعد أن فر السلطان محسن العبدلى (سلطان لحج وعدن) وتبعه كثير من أفراد حاشيته ، وعينت بريطانيا هينز(Haines) أول معتمد بريطانى على عدن .. ثم سعت بعد ذلك لإبلاغ محمد على بتبعية هذا الميناء لها ، وواصلت متابعتها لرصد تحركات محمد على التوسعية للحد منها(٢) .

---

(١) العريان ، منيرة ، علاقة نجد بالقوى المحيطة ، ص١٢٤ ، عبد الرحيم ، عبد الرحيم عبد الرحمن ، محمد على وشبه الجزيرة جـ٢ ، ص٢٣٤ ، أباظة ، فاروق ، عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ، ص١٨٤ - ١٩٧ .

(٢) نوفل ، سيد ، الأوضاع السياسية لإمارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة ، جـ١ ، ص٥٣ .

السفن التى اشتركت فى عدن هى كوتCoote ، ماهى Mahi ، فولاج Volage كرويزر Cruizer .

وهكذا استطاعت بريطانيا – بما تتمتع به من قوة بحرية – من بسط نفوذها على غالبية الإمارات العربية والمشيخات فى الخليج العربى وجنوبى الجزيرة العربية بعد أن كبلتهم بمعاهدات واتفاقيات أجبرتهم على الخضوع لنفوذها طواعية .

مكافحة تجارة الرق والأسلحة فى الخليج العربى :

معلوم أن بريطانيا تسعى دائماً لإيقاع فريستها التى تطمع فى اقتناصها بنصب شراك تحت اسم معاهدات تجبرها على التوقيع عليها ، ومن تلك المعاهدات معاهدة مكافحة تجارة الرقيق التى انتشرت فىمناطق الخليج العربى بكثرة ، وقد ادعت بريطانيا أن محاربتها لهذا النوع من التجارة يهدف بالدرجة الأولى إلى العامل الإنسانى ، لكن الواقع أنها تتخذها وسيلة لتثبيت قواعدها الاستعمارية فى هذه المنطقة لتقوية اقتصادها ودعم سياستها ، لأنها تسعى لمنع الأيدى العاملة فى امبراطوريتها الواسعة حتى لا تستقل عنها ، يضاف إلى هذا الثورة الصناعية التى عمت أوروبا الأمر الذى منعها من السماح لهؤلاء الرقيق بالخروج عن مناطق نفوذها(١) .

وقد وجدت بريطانيا فى أسطورة مكافحة تجارة الرقيق حيلة تتذرع بها للتدخل فى شئون عمان الداخلية ، فأخذت تدعم أسطولها البحرى من أجل هذا الغرض ، رغم أنف الدولة العثمانية .

ورغم كل ما يقال من جهود بريطانية لمكافحة تجارة الرقيق إلا أن تلك الظاهرة لم تنته ، لأن بريطانيا – كما أشرنا – آنفاً – لم تك صادقة فى نيتها،

---

(١) العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية ، ص١٦١ .

إذ كان هدفها من ذلك اتخاذ الأمر حيلة لفرض سيطرتها على المناطق الخليجية .

ويدعم هذا منع بريطانيا للدولة العثمانية من الاشتراك فى هذه المهمة رغم أن الأخيرة كانت صاحبة النفوذ فى تلك المناطق وبالتالى يقع على كاهله - لاعلى كاهل بريطانيا - محاربة ذلك النوع من التجارة .. ولم تسمح الأولى للأخيرة بأى دور فى هذا المضمار غير سماحها لها بإصدار فرمان (تصريح) يحظر تجارة الرقيق(١) .

ورغم محاولات بريطانيا - لحظر تجارة الرقيق - المتمثلة فى تفتيش السفن وفرض غرامات على من يمارس ذلك النشاط التجارى وتوجيه تحذير شديد اللهجة لشيوخ الساحل من قبل المقيم البريطانى ، رغم هذا كله ازدادت تجارة الرقيق .. فعمدت بريطانيا لانتزاع حق تفتيش السفن من الدولة العثمانية داخل مناطق نفوذها ، ثم أبرمت اتفاقية مع مصر عام ١٢٩٣ هـ (١٨٧٧م)(٢) .

اتخذت بريطانيا كل الاحتياطات التى تؤدى للقضاء على هذا النوع من التجارة فخصصت أسطولاً بحرياً من السفن التابعة لشركة الهند الشرقية للقيام

---

(1) Document , I . O . Slave and Arms in the persue , L .P ts , 12 , 2182

قاسم ، جمال زكريا ، " النزاع العثمانى فى الخليج العربى ، قبل نشوب الحرب العالمية الأولى " المجلة التاريخية المغربية ، السنة العاشرة ، العدد (٢٩) ، ١٤٠٣هـ (يوليو ١٩٨٣م) ص٣٦٠ .

(٢) العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية ص١٧٤ ، ابراهيم ، عبد العزيز ، سياسة الأمن لحكومة الهند ، ص٧٠ .

بأعمال الحراسة والمسح للمناطق الخليجية ، ومنع شيوخها من تهديد الملاحة والتجارة البريطانية ، أو ممارسة تجارة الرقيق ..وجعلت مسئولية الإشراف على هذا الأسطول للمقيم العام فى الخليج العربى(١) .

وعمدت بريطانيا لإشاعة محاربة تجارة الأسلحة - بعد أسطورة محاربة تجارة الرقيق - كوسيلة أخرى لترسيخ نفوذها فى المنطقة - وقد كانت تجارة الأسلحة أشد خطراً من تجارة الرقيق بسبب انتشار الأسلحة المهربة بين سكان منطقة الخليج الأمر الذى يمثل خطراً حقيقياً على النفوذ البريطانى ، لذا فكرت بريطانيا جدّياً فى منع هذا النوع من التجارة ، لكنها لم تتخذ حيال ذلك أى خطوة إيجابية إلا بين عامى ١٢٩٦ - ١٢٩٧ هـ (١٨٧٩ - ١٨٨٠ م) أى بعد حروب الأفغان الثالثة ، مما أدى لتدفق الكثير من الأسلحة ، فانزعجت بريطانيا لهذا الأمر خاصة بعد أن تبينت حكومة الهند البريطانية من وصول شاحنات كبيرة محملة بالأسلحة إلى البلاد الأفغانية قادمة من الهند عن طريق إيران ، وانتعاش حركة مبيعات السلاح فى تلك المنطقة(٢) .

أخذت الحكومة البريطانية تضغط على شاه إيران بعد أن تحققت من سرعة انتشار الأسلحة ، فأصدر أمره بمنع استيرادها إلى بلاد فارس ، لكن

---

(١) لوريمر ، ج . ج . دليل الخليج ، جـ١ ص٣٩٥ .

(٢) ويلسون ، أرنولد ، تاريخ الخليج ، ص١٩٩ ، ابراهيم ، عبد العزيز ، سياسة الأمن لحكومة الهند ص٨٣ .

Documents L . O . Arms Trafficit the Persian Gulf , 1408 - 1928L , Pts , 12 . 2182 B 410 .

ذلك لم يؤثر على تجارة السلاح واستمر تدفقه على المنطقة عن طريق المحمرة .

وبمطلع عام ١٢٩٨ هـ (١٨٨١ م) حققت إحدى المحلات التجارية فى مدينة بوشهر أرباحا طائلة من تجارة السلاح فاندفعت باقى المحلات فى الخليج العربى تحذو حذوها(١) .

أخذت تجارة السلاح تزدهر فى بوشهر رغم ما فرضته الحكومة البريطانية من قيود ، ورغم ما أصدره الشاه من تصريح يمنع مثل هذه التجارة ، لأنها حظيت فى بوشهر بتشجيع موظفى الجمارك خاصة الفارسيين منهم ، وكانت السفن التى تنقل السلاح بريطانية وكذلك ممولوها ، ويعنى هذا أنها تجارة بريطانية ، بحتة ، حتى المؤسسات التى كانت تسهل عملية بيعها بريطانية أيضاً .

ونتيجة لذلك تم تسليح قبائل فارس وعربستان بسلاح قوى فاق سلاح جنود إيران(٢) .

كان فى مقدور الحكومة البريطانية أن تضغط على رعاياها لتطبيق حظر الأسلحة إلا أنها - كما عُرف عنها - أخذت تعد لهذه الخطوة وتدرس أهم نتائجها .

وقد توصلت إلى أنها لو قامت بمثل هذا العمل قبل أن تعرف موقف حكومة إيران فإن ذلك سيهيىء الطريق أمام التجار الفرنسيين والألمان ،

---

(١) لوريمر ، ج . ج دليل الخليج ، ج١ ، ص١٩٩ ، ابراهيم ، عبد العزيز سياسة الأمن، ص٨٧ ، ويلسون، أرنولد ، تاريخ الخليج ، ص١٩٩ .

(٢) ويلسون ، أرنولد تاريخ الخليج ، ص١٩٩ .

ويوقع الحكومة البريطانية فى حرج مع أولئك مما قد يهدد نفوذها فى المنطقة(١) .

وبحلول عام ١٣٠٧ هـ (١٨٩٠ م) بلغت تجارة الأسلحة ذروتها فى منطقة الخليج العربى إذ وصلت كميات منها إلى سلطنة عُمان وأصبح فى مسقط أكبر سوق لتصريف السلاح بالإضافة إلى تدفق السلاح على البحرين وقطر والكويت ومن هناك يتم تهريبه بكميات كبيرة إلى بلاد إيران وتركيا مما جعل المنطقة تعج بأحدث الأسلحة ، ودفع حكومة بريطانيا إلى مصادرتها وإبرام معاهدة مع شيخ البحرين عام ١٣٠٨ هـ (١٨٩١ م) . تعهد بموجبها بمنع دخول السلاح إلى البحرين ، وطالبت مسقط بزيادة الرسوم الجمركية على الأسلحة حتى تحد من انتشارها مخافة أن تصل إلى الهند فيستخدمها الثوار هناك ضدها(٢) .

إنشاء خطوط البرق البريطانية :

من مظاهر النفوذ البريطانى فى الخليج العربى قيام بريطانيا بمد خطوط برقية بين بريطانيا والهند عبر منطقة الخليج العربى وإيران وذلك لتأكيد نفوذها على هذه المناطق ، ونقل أخبار ثورة الهند التىنشبت عام

---

(١) ويلسون ، أرنولد تاريخ الخليج ، ص١٠٠ .

(٢) سعيد ، أمين ، الخليج العربى فى تاريخه السياسى ، ص٦٩ ، ابراهيم عبد العزيز، سياسة الأمن لحكومة الهند فى الخليج ص٨٥ .

Documents L . O . B 410 Arms Trafficit P . 5706128 the Persian Gulf - 1908 - 1928 .

١٢٧٣ هـ (١٨٥٧ م) إذ رأت بريطانيا ضرورة نقل الأنباء على وجه السرعة إلى مقرها فى لندن ..

أما قبل ذلك فلم يكن لأية دولة أجنبية خطوط هاتف ماعدا الدولة العثمانية ذات النفوذ السياسى والدينى .

وفى بادىء الأمر فكر البريطانيون فى ربط خطهم الهاتفى بخط الهاتف العثمانى لكنهم وجدوا أن الأفضل لهم إنشاء خط آخر مستقل يمتد من بوشهر إلى بغداد مروراً بطهران .

وقد رأت حكومة الهند الشرقية أن من الضرورى عمل مسح شامل لهذه المنطقة المزمع إقامة الخطوط عبر أراضيها قبل إنشاء تلك الخطوط ومن ثم عقد اتفاقيات مع المشيخات التى سيكون الخط فى مناطقها مثل مشيخات الساحل ومسقط حتى تضمن حماية خطوطها الهاتفية بعد إقامتها .

وأهم من ذلك مفاوضة حكومة إيران لإنشاء هذه الخطوط من بوشهر وبندر عباس .. وبالفعل قامت بريطانيا بكل ذلك ولم تحصل على ماأردت إلا بعد أن قدمت المعونات المالية لحكام الأقاليم فى إيران لحماية هذه الخطوط الأرضية التى تمر بمناطقهم من أى اعتداء وتعهدوا بإصلاح التلف المتعمد الذى قد يصيب تلك الخطوط(١) .

---

(١) لوريمر ج . ج ، دليل الخليج ، جـ ١ ، ص٣٧٧ ، العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية ، ص١٦٠ ، ابراهيم ، عبد العزيز ، علاقة ساحل عُمان ، ص٢٦٥ .

أما فى السابق - أى قبل قيام ثورة الهند - فقد عُقد إتفاق بين بريطانيا والدولة العثمانية ١٢٧٩ هـ (١٨٦٣ م) عُرف باتفاق البرق البرى Telconvention Overland نص على السماح للبريطانيين بالاتصال بالهند عبر الخطوط الهاتفية العثمانية ، ثم تطور الأمر فسمح لهم بإنشاء مكتب للبريد عند منطقة الفاو وفى عام ١٢٩٤ هـ (١٨٧٨ م) وضع حرس فى بعض مناطق المبرقيات مثل منطقة جاشك . وفى العام الذى تلاه أصبحت تلك المنطقة حامية بريطانية فنقلت إليها المدفعية البريطانية التى قوامها تسعين جندياً ، مما جعل حكومة الهند البريطانية تمتلك خطى هاتف تستطيع الاتصال من خلالهما ببغداد مباشرة(١) .

أدى إنشاء خطوط المبرقات فى تلك المناطق الخليجية لنتائج إيجابية للحكومة البريطانية ، خاصة بعد تحقيق الأوضاع الجديدة التى كانت تسعى إليها بريطانيا التى تتلخص فى فرض السيطرة التامة من مقرها فى لندن على جميع مستعمراتها فى الشرق ، فقد زادت خطوط البرق ارتباط حكومة لندن بحكومة كلكتا مما جعل سلطة بوشهر تزداد، وقد أدى استخدام المبرقات فى بوشهر والخليج العربى عامة إلى تضاعف دور المقيم السامى البريطانى فى بوشهر الذى أصبح يرسم خطوط سياسة هذه المنطقة على ما يراه مناسبا ومن ثم يحصل على موافقة سلطة كلكتا فسلطة لندن التى قوى اتصاله بها ، وبذلك

(١) لوريمر ج . ج ، دليل الخليج ، جـ١ ، ص١٧٧ / ٤٤٥ .

تكون المبرقات قد أظهرت دور المقيم السامى فى بوشهر ودعمت مكانته ، فيما تضاءل دور بومباى(١) .

ظهور النفوذ البريطانى فى المنطقة :

استطاعت بريطانيا فى فترة وجيزة بسط نفوذها على مياه الخليج العربى ومن ثم أخذت ترقب الموقف بعين حذرة مخافة أى تدخل أجنبى لأن الخليج كان مطعمة لكل مستعمر بسبب ما يتمتع به موقع ممتاز .

ولأن بريطانيا فازت بقصب السبق وحزت على السيطرة التامة لهذه المناطق فإنها تعتبر نفسها مسئولة عن هذه المناطق والواجب والمصلحة تحتمان عليها منع أية دولة استعمارية أخرى تحاول التدخل فى شئون الخليج العربى .. وفى مقدمة الدول الاستعمارية التى سعت لتكون لها مصالح فى هذه المنلطق فرنسا وروسيا والمانيا إضافة إلى الدولة العثمانية صاحبة السيادة الدينية ، فاعتبرتهم بريطانيا خطراً مباشراً على مصالحها فى الهند لذلك خططت للقضاء على أى منافسة استعمارية أخرى تحاول المساس بمصالحها، خاصة فرنسا التى كانت تخطط لإنشاء شركة الهند الفرنسية منذ عام ١٠٧٤ هـ (١٦٦٤م) وأسست لها وكالة فى ميناء بندر عباس الأمر الذى ساعد على توطيد علاقة فرنسا فى الخليج العربى وتطور علاقتها بحاكم مسقط ، فحاولت بريطانيا بكل الطرق الاستعمارية تحطيم العلاقة ، فبدأ النفوذ الفرنسى يبعد

---

(١) لوريمر ج . ج ، دليل الخليج ، جـ١ ، ص٣٩٥ ، ابراهيم ، عبد العزيز ، سياسة الأمن فى الخليج ، ص٢٠٨ .

عن هذه المناطق ويميل إلى القسم الأفريقى وبالتحديد لزنجبار مما قضى على الخلاف بين الدولتين العظمتين وانتهى بالتصريح الذى وقع عليه الطرفان عام ١٢٧٨ هـ (١٨٦٢م) ونص على استقلال كلّ من مسقط وزنجبار وقد ورد فى نص الاتفاق أن الأطراف الموقعة وضعت فى اعتبارها أهمية استقلال صاحب السمو سلطان عُمان ، وصاحب السمو سلطان زنجبار ، وقد رأت أن من المناسب إعلان احترامهما لاستقلال هاتين الدولتين(١) .

لكن بريطانيا لم تحترم هذا الاتفاق بل سعت جاهدة إلى ترسيخ قواعدها فى عُمان محاولة بعاد شبح أى تدخل أجنبى غيرها فى هذه المنطقة وقد حصلت عام١٢٨٩ هـ (١٨٧٣ م) على تسوية لموضوع اهتمت به كثيراً : موافقة سلطان مسقط على معاملة الرعايا الهنود البريطانيين على قدم المساواة مع الرعايا الذين من أصل بريطانى ، وقد زودت الوكالة البريطانية فى مسقط لأول مرة عام ١٢٩٦ هـ (١٨٨٠م) بعدد من الموظفين(٢) .

استمرت بريطانيا فى تثبت قواعدها ففتحت عربستان(*) وفتحت أسواقاً جديدة لتسويق بضائعها هناك بعد التقدم الصناعى الآلى الذى عم أوروبا

(١) ابراهيم ، عبد الرحمن ، علاقة ساحل عُمان ، ص٣٠٠ .

(٢) العابد ، فؤاد ، سياسة بريطانيا فى الخليج ، ص١٥٤ ، العقاد صلاح ، التيارات السياسية فى الخليج ، ص٢٠٣ ، ويلسون ، أرنولد ، تاريخ الخليج ص١٧٣ .

(*) يقع إقليم .عربستان إلى الجنوب الشرقى من العراق ويحده من الشمال جبال كردستان، ومن الجنوب الخليج العربى ومن الشرق حدود طبيعية تفصل بين أقليم العرب ومناطق الأكراد ، انظر المنصور ، عبد العزيز ، الكويت وعلاقاتها بعربستان ، ص٧٢ .

يضاف إلى ذلك إزدهار الملاحة فى نهر قارون ، ثم أخذت امتياز سكة الحديد التى تربط طهران بالأهواز(١) .

أما فى إيران فقد وقفت بريطانيا فى وجه التقدم الاستعمارى الروسى واستطاعت أن تفتح نهر قارون للملاحة ، مما أثار استياء روسيا بعد أن رأت تفوق بريطانيا عليها فى مجال الملاحة فى هذا النهر لذلك أخذت فى الضغط على الشاه حتى تم احتكار عمليات سكك الحديد الإيرانية وترسيتها على شركات روسية لمدة خمس سنوات ، لكن بريطانيا حصلت بعد ذلك على منح ريوتر لإنشاء البنك الفارسى بأموال بريطانية مما أثار حنيظة روسيا لأن هذا النهج يعتبر استعماراً فى ثوب آخر .

وأمام غضب روسيا من جراء هذه الخطوة التى خطتها بريطانيا سمح لها بفتح بنك آخر للتسليف(٢) .

المعاهدات المانعة ومعاهدات الحماية :

اقتنعت بريطانيا بأن غالبية الدول الأوروبية تسعى ليكون لها نفوذ فى الخليج العربى فأرادت أن تضع حداً لهذه التدخلات والصراعات ، أو بالأخرى ، لهذه التسابق الإستعمارى على الخليج العربى . يضاف إلى ذلك ما اكتسبه النفوذ البريطانى فى هذه المنطقة من قوة خاصة فى الساحل الجنوبى الشرقى لشبه الجزيرة العربية إبتداءً بقطر حتى مسقط إذ اتخذ النفوذ طابعا

(١) النجار ، مصطفى ، التاريخ السياسى لأمارة عربستان ص١٧٩ .

(٢) العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية ، ص١٦٨ ، لوريمر ج . ج . دليل الخليج جـ١، ص٤٤٧ .

قانونياً بما فرضه من اتفاقيات مانعة على شيوخ الخليج العربى وكبلهم بها من أجل ضمان حق السيطرة على هذه المناطق بطريقة مشروعة ، فقامت بتقييدهم بمانعة كانت فى السابق تأخذ طابع التعهدات المنفردة لا سيما مع مشيخات ساحل عُمان وتنص على الامتناع عن القرصنة وتجارة الرقيق والأسلحة مما جعلها سلاحاً قوياً فى يد البريطانيين بعد تفوقهم البحرى ، لكن بريطانيا استغلت هذه القوة وأخذت تجمع من ورائها أموالاً من شيوخ الخليج عن طريق فرض غرامات مالية كبيرة على أبسط الأشياء مثلما فعلت مع شيخ أبو ظبى عندما أجبرته على دفع غرامة مالية باهظة وصلت إلى مائة ريال بسبب إطلاق أعيرة نارية على قطيع من الأغنام تعود ملكيته لرئيس قبيلة غير تابعة لمشيخة أبو ظبى . وقد اعترف بادجر بأن خزانة المقيم العام فى بوشهر اكتنزت بالأموال نظير هذه الغرامات المالية التى فرضت من غير وجه حق(١).

تقدم المقيم السياسى العام فى الخليج العربى فى عام ١٣٠٥ هـ (١٨٨٨م) باقتراح لحكومته وذلك لعقد مثل هذه الاتفاقيات المانعة خاصة مع شيوخ الساحل المهادن وكان من بنود هذه الاتفاقيات ألا يقيم شيوخ هذه المناطق أى علاقات سياسية كانت أم تجارية إلا مع بريطانيا أو برضىً منها وألا يسمح لأى أجنبى بالإقامة أو السكن فى هذه المناطق إلا بموافقة الحكومة البريطانية ، وبهذه المعاهدات

---

(1)Documents L. O . Date 1st November 1887 , from secret and political Department India office , L , Pts , 18 - B 47

والاتفاقيات تكون حكومة الهند البريطانية قد أحكمت قبضتها على هذه المناطق(1) .

أما نظام الحماية والذى يعتبر من مظاهر الاستعمار السياسى لمناطق الخليج ففى عام ١٣٠٩ هـ (١٨٩٢م) عقدت هذه الاتفاقيات والتى اتسمت بالحماية بعد أن رفعت بعض المراكب العائدة ملكيتها لمشيخات أبو ظبى ودبى العلم الفارسى ، حيث زار قبل ذلك مندوبون من طهران كلاً من دبى وأبو ظبى مما أثار مخاوف بريطانيا التى اكتشفت أن هناك شبه تحالف بين هذه المشيخات وبلاد فارس ، ولكن ما أكد مخاوفها هو رفع هؤلاء للعلم الفارسى فوجهت بريطانيا احتجاجات شديدة اللهجة لطهران وقد رأى الساسة البريطانيون أن من الأفضل ربط هذه المشيخات باتفاقيات حماية حتى تضمن بريطانيا منع أى تدخل أجنبى وقد نصت تلك الاتفاقيات على الآتى:

أولا : يتعهد المشايخ بعدم التدخل فى أى قرار كما يتعهدوا بعدم محاورة أى دولة غير الدولة البهية البريطانية .

ثانيا : ليس لشيخ المشيخة حق السماح فى إيواء أى وكيل لآية دولة أخرى إلا بعد استئذان بريطانيا .

ثالثا : يتعهد الشيخ بعدم بيع أو رهن أو تسليم أى شيء من ممتلكاته لغير بريطانيا .

---

(1) Documents L . O . Dated the tenth of August 1886 , secret letter from the Government of India , L . P . + S 18 , B47

ومن هذه المعاهدات المانعة والحامية فرضت بريطانيا سلطانها على هذه الدولة الخليجية ومن الملاحظ أن الدولة العثمانية لم تحرك ساكنا أمام هذا التغلغل البريطانى فى مناطق الخليج العربى(١) .

أهم نتائج البحث :

يتمتع الخليج العربى بموقع استراتيجى جعل كثيراً من الدول الأجنبية الاستعمارية تتهافت عليه لفرض سلطانها على هذا الممر المائى الحيوى خاصة بعدما رأت ما يتمتع به سكان هذه المناطق من ثراء جعلهم يتحكمون فى الأسواق العالمية .

تعد البرتغال أول دولة أوروبية حاولت بسط سلطانها على الخليج منذ عام ٩٠٨هـ (١٥٠٣م) عندما قدم البرتغالى الفونسودى البوكيرك للخليج . اتضح لنا من متابعة البحث أن الملاحة العربية لم تفقد قوتها فى المحيط الهندى رغم قوة نفوذ البرتغاليين التجارى .. كما تبين لنا أن القوة البرتغالية فى الشرق بدأت تتدهور عام٩٩٥هـ (١٥٨٧م) عندما لجأ حاكم فارس لقوة أخرى إذ كان نهج حكام تلك المنطقة (فارس) الوقوف دائما بجانب القوة المؤثرة .

وتوصلنا كذلك إلى أن البريطانيين أقاموا فى بندر عباس وكالة لهم ، لأن تجارتهم تعثرت فى تلك المنطقة مما جعل المسئولين يفكرون فى تصفية أعمالهم هناك .

---

(1) Documents L .O . Dated 1st November 1887 , from secret and political Department India office , L , Pts , 18 - B 47

ومن استقصاء البحث يتضح لنا أن القوة الهولندية فى الخليج العربى بدأت تتدهور فى مطلع القرن الثامن عشر الميلادى ، كما يظهر جليا أن السيطرة الانجليزية على الخليج بدأت مع ضم مدينة بومبى للشركة البريطانية عام١٠٩٨هـ (١٦٨٧م) وأصبح هذا الميناء يتحكم فى أعمال الشركة بالقسم الغربى ومن ضمنها منطقة الخليج العربى .

ويتضح أن النفوذ البريطانى أخذ يتوطد فى الخليج العربى فى أشكال ثلاثة هى: محاربة القرصنة ، محاربة تجارة الرقيق ومحاربة تجارة الأسلحة.

وقد كان موقف الدولة العثمانية حيال النفوذ الاجنبى (خاصة البريطانى) موقف المتفرج ، بعكس ما قامت به حيال الدولة السعودية الأولى إذ أرسلت إليها قواتها فدمرت عاصمتها الدرعية .

وتبين لنا أن بريطانيا أخذت تخطط لفرض نفوذها على مناطق الخليج العربى منذ مطلع القرن الثامن عشر .. وقد انتهزت فرصة ضعف الهولنديين فتغلغلت فى تلك المناطق .

واتضح لنا أن بريطانيا كانت تبذل قصادى جهدها لإبعاد كل قوة أجنبية تحاول خلق مصالح لها فى الخليج العربى ، إذ لجأت لتكبيل شيوخ الخليج بمعاهدات مانعة تحول دون أى تدخل أجنبى (غيرها) . وتوصلنا كذلك إلى أن محاربة تجارة الرقيق والأسلحة تعد من أهم مظاهر النفوذ الاستعمارى البريطانى فى الخليج العربى .

كما تبين من البحث أن المبرقات زادت من دور المقيم البريطانى فى بوشهر مما أكسبه سلطة أقوى وأصبح يرسم خطوط سياسته فى تلك المناطق ومن ثم يعرضها على كلّ من كلكتا ولندن .

واتضح من البحث أيضا أن دور بومبى بدأ فى الاضمحلال أثر ظهور السلطة البريطانية فى كلكتا .

ثم تبين لنا أن بريطانيا كانت فى السابق تتصل بالهند مباشرة بواسطة مبرقات الدولة العثمانية .

كما توصل البحث إلى أن بريطانيا أقامت أول مكتب برقى لها فى منطقة الفاو ، وعندما برزت أهميته وضعت حامية لها فى منطقة جاشك تتألف من تسعين جندياً .

وقد استدعى وجود الخطوط البرقية عقد اتفاقيات بين مسقط والمشيخات العربية الأخرى فى الخليج وبريطانيا .

واتضح أن ثورة الهند التى نشبت عام ١٢٧٣ هـ (١٨٥٧م) كانت من أهم العوامل التى دفعت الحكومة البريطانية لإنشاء خطوط البرق فى الخليج العربى ، لنقل أخبار الثورة بسرعة إلى لندن ، لتكون الأخيرة على دراية بما يدور هناك .

وظهر لنا أن أتفاقية عام ١٣٠٥هـ (١٨٨٨م) التى عقدت مع شيوخ الساحل المهادن تعتبر الأساس للنفوذ البريطانى لأن بريطانيا أحكمت بواسطتها قبضتها على المنطقة .

وتبين لنا أن المعاهدات المانعة كانت تهدف لمنع أى تدخل أجنبى فى الخليج العربى ما عدا بريطانيا .

قائمة المراجع

عربية :

• أباظة ، فاروق .

- عدن والسياسة البريطانية فى البحر الأحمر ، القاهرة ١٣٩٥ (١٩٧٦م)

• إبراهيم ، عبد العزيز عبد الغنى

- سياسة الأمن لحكومة الهند فى الخليج ، الرياض ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢م)

- علاقة ساحل عُمان ببريطانيا ، الرياض ١٤٠٢ (١٩٨٢ م)

• داوود ، محمود

- الخليج العربى والعلاقات الدولية ١٣٠٧ - ١٣٣٢ هـ (١٨٩٠-١٩١٤ م). جـ١ ، القاهرة ، بدون تاريخ .

• سعيد ، أمين .

- تاريخ المملكة العربية السعودية .جـ١ بيروت ١٣٨٣ (١٩٦٤م) .

- الخليج العربى فى تاريخه السياسى ونهضة الحديثة، القاهرة ، بدون تاريخ.

• الصيرفى ، نوال يوسف

- النفوذ البرتغالى فى الخليج العربى فى القرن العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى . الرياض ، ١٤٠٣ هـ (١٩٨٣ م) .

• العابد ، فؤاد

- سياسة بريطانيا فى الخليج العربى . الكويت ١٤٠١ هـ (١٩٨١ م) .

• عبد الرحيم ، عبد الرحيم عبد الرحمن

- محمد على وشبه الجزيرة العربية . جـ٢ الطبعة الثانية ، القاهرة ١٤٠٦ هـ (١٩٨٦ م) .

• عبد الله ، محمد مرسى

- أمارت الساحل وعُمان والدولة السعودية الأولى القاهرة ١٣٩٨هـ (١٩٧٨م) .

• العرينان ، منيرة عبد الله

- علاقة نجد بالقوى المحيطة ١٣١٩ - ١٣٣٢ هـ (١٩٠٢ - ١٩١٤ م) . رسالة دكتوراه ، جامعة أم القرى ١٤٠٧ هـ (١٩٨٧ م) .

• العقاد ، صلاح

- التيارات السياسية فى الخليج العربى القاهرة ١٤٠٢ هـ (١٩٨٢م)

• نوفل ، سيد

- الأوضاع السياسية لأمارات الخليج العربى وجنوب الجزيرة . جـ١ القاهرة ١٣٨٧ هـ (١٩٦٨م) .

• ويلسون ، أرنولد

- تاريخ الخليج ترجمة محمد أمين عبد الله ، عمان ١٤٠٢ هـ (١٩٨١م) .

الدوريات العربية :

• قاسم ، جمال زكريا

- " النزاع العثمانى فى الخليج العربى قبل نشوب الحرب العالمية الاولى " . المجلة التاريخية المغربية ، السنة العاشرة العدد ٢٩ - ١٤٠٣ هـ (يوليو سنة ١٩٨٣ م) ، ص٣٦٠ /٣٦١ .

الوثائق الأجنبية :

* Documents L .O. Slave and Arms Trade in the persua , L , P + S , 12 , 2182 .
* Documents L O Dated 1st November 1887 , From secret and politicil Department India Office , L . P + S , 18 - B 47 .
* Documents L . O . Dated , the tenth of August , 1886 secret letter from the government of India , L , P + S , 18, B 47
* Documents L . O . Arms Traffic in thhe persian gulf , 1908 - 1928 , L , p + S , 12 , 2182 , B , 410

مراجع أجنبية :

* Milles, S. B, hte Countries and tribes of the persian Gulf. London, 1966 .

دور سلاطين غزنة
فى نشر الإسلام فى الهند

دكتورة / سامية مصطفى مسعد

كلية الآداب – جامعة الزقازيق

تمهيد :

ظهر الشعور القومى متقدماً فى المشرق الإسلامى عنه فى المغرب ، فقد ارتبط هذا الشعور بالدعاية الشيعية فى العراق وازداد المد الشيعى فى المشرق الإسلامى نظراً لانضمام الموالى من الفرس للشيعة تنفيساً عن القومية الفارسية التى بدأت تستيقظ على يد الموالى الذين ذاقوا الظلم على يد بعض خلفاء وولاة بنى أمية، فتحمل هؤلاء عبء الدعوة العباسية فى المشرق وكانوا سندها وبلغوا فى ظلها ما كانوا يسعون إليه.

وفى العصر العباسى الثانى حينما تغلبت اللامركزية على الحكم سعت أقاليم المشرق إلى الانفصال عن الخلافة العباسية ولكنه كان انفصالاً متصلاً بالخلافة معترفاً بسلطانها، متعاوناً معها بل حرصت الدول المستقلة على أن يكون قيامها بتأييد من الخلافة العباسية نفسها. ولم يرتق سلطان أو ملك فى المشرق الإسلامى عرش دولته إلا بعد موافقة الخليفة العباسى، بعكس الدول المستقلة فى المغرب التى فرضت الاستقلال التام عن العباسيين.

وقد بدأت أقاليم المشرق الإسلامى تتجه نحو الاستقلال فى أوائل القرن الثالث الهجرى التاسع الميلادى، ثم برزت بشكل واضح الحركات الاستقلالية

فى المشرق فى العصر العباسى الثانى والدولة الغزنوية التركية إحدى هذه الدول المستقلة فى المشرق والتى كان لها دور هام فى نشر الإسلام فى الهند.

دخل الإسلام شبه القارة الهندية(*) عبر طرق ثلاث :

عن طريق التجار المسلمين من الخليج العربى (البصرة - عُمان - حضرموت إلى السواحل الغربية الهندية المعروفة بملابار أو

(*) شبه القارة الهندية التى تضم اليوم دولتى باكستان الإسلامية والهند الهندوكية، بدأت أهم أدوارها التاريخية - على إجماع من المؤرخين بالفتوحات الإسلامية ، وأخصها تلك التى توغل فيها الغزنويون ومن جاء من بعدهم ، بهذه البلاد منذ أواخر القرن الرابع الهجرى، وصحبهم فيها جملة من العلماء والمؤرخين والرحالة المسلمين الذين درسوا أحوالها وكشفوا عما كان بها من حضارات ومدينات عريقة وتقصوا أسسها وتفصيلاتها.

راجع أحمد محمود الساداتى: تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية : من الفتح العربى إلى قيام الدولة المغولية من ٨٩هـ - ٧٠٧م - ٩٣٢هـ - ٥٢٦م (الجزء الأول)، سلسلة الألف كتاب: مقدمة الكتاب ، وراجع عن موقع شبه القارة الهندية ، الأصطخرى : (ابن إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسى الأصطخرى (المعروف بالكرخى) المسالك والممالك: تحقيق جابر عبد العال الحسينى،وزارة الثقافة والإرشاد القومى:١٣٨١هـ-١٩٦١م: ص١٠٢ - ص١٠٧، المقدسى : المعروف بالبشارى : أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم: دار إحياء التراث العربى: بيروت : لبنان تحقيق محمد مخزوم ١٤٠٨ هـ / ١٩٧٨ م ص ٣٥٨ - ٣٦٧: ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة: المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار: شرحه وكتب هوامشه طلال حرب: دار الكتب العلمية : بيروت لبنان ١٤٠٧ هـ / ١٩٧٨ م الهند والغرب: أخترنا لك: طبع دار المعارف بمصر: ص١٢ - ص١٥، محمد عبد المنعم الشرقاوى، محمد محمود الصياد: ملامح الهند وباكستان: طبع دار المعارف بمصر: ص١٣- ص١٩..

مليبار([1]) (كيرلا الحالية) وذلك فى عهد الخلفاء الراشدين ، فإن عرب السواحل الشرقية والجنوبية للجزيرة العربية كانوا على اتصال بالسواحل الهندية وبجزيرة سيلان([2]) قبل الإسلام لرحلاتهم التجارية والبحرية نحو هذه السواحل([3]) ومنها إلى أرخبيل ، ملايو وأندونسيا وسواحل الصين.

وبعد أن عم الإسلام الجزيرة العربية كلها وصل على أيدى التجار العرب من المناطق المذكورة إلى السواحل الغربية الهندية ، إذ أنهم كانوا على صلات تجارية دائمة بهذه البلاد، ومنهم من كان قد اتخذ من مدن الساحل الغربى للهند مقراً تجارياً له ومنهم من تزوج بنساء البلاد من

---

(١) مليبار : اقليم كبير يشتمل على مُدن كثيرة منها فاكنور ومنجرور ودهسل و يجلب منها الفلفل إلى جميع الدنيا وهى فى وسط بلاد الهند ويتصل بأعمال مولتتان ويسميها ابن بطوطة ملابارا وهو ساحل الهند الشرقى وكان فى ذلك العصر، عصر ابن بطوطة قسمة بين المسلمين والهندوس والبوزيين ومنها العالم عبد الله بن عبد الرحمن المليبارى المعروف بالسندى: راجع ياقوت (الشيخ الإمام شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى الرومى البغدادى) معجم البلدان: حـ٥: طبعة دار بيروت: ص١٩٦، ابن بطوطة الرحلة: ص٥٦٠ هامش رقم(١).

(٢) سَيَلانُ : بالتحريك وآخره نون، جزيرة عظيمة دورها ثمانمائة فرسخ – الفرسخ ٦ك . م – بها سرنديب وهى متوسطة بين الهند والصين وفيها عقاقير كثيرة لا توجد فى غيرها، منها الدارصين وزهرة البقم ومعادن الجواهر راجع : ياقوت: معجم البلدان: حـ٣: ص٢٩٨.

(٣) كان العرب وحدهم فيما قبل الإسلام واسطة مقايضات التجارة الهندية" الساداتى: تارخ المسلمين فى شبه القارة الهندية : حـ١: ص٥٤.

الهنديات(١)، كما أنهم أقاموا مساجد لهم فى هذه السواحل وظهرت لأهالى البلاد مزاياهم وصفاتهم الخاصة فى السلوك الشخصى والتعامل التجارى من التمسك بأهداب الدين والتحلى بالأخلاق الفاضلة والصدق فى المعاملة والقول وعدم الغش والخداع فى التعامل التجارى وعدم التميز الطبقى بين بعضهم وبعض وكل ذلك أثر فىنفوس سكان البلاد وأقبل عدد كبير منهم علىالإسلام.

وهكذا أخذ الإسلام فى الانتشار فى هذه المنطقة الجنوبية الغربية من الهند على أيدى التجار المسلمين الأوائل قبل الفتح العسكرى وحركة الجهاد المعروفة فى أواخر القرن الأول للهجرة(٢).

---

(١) دخل المهاجرون العرب إقليم السند، إما من جنوب إيران عبر إقليم مكران وإما ركوباً للبحر عبر الخليج العربى ولهذا غلب العمانيون والحضارمة بوجه خاص والعرب الجنوبيون بوجه عام على الهجرات التى اندفعت إلى بلاد السند، وأقام العرب أول الأمر فى مدن السند الكبرى، وبدءوا يحتكون بأهل البلاد عن طريق التزاوج ويبدو أن التزاوج بين العرب وأهل السند كان مقصوراً على الطبقات التى يعتبرها البراهمة طبقة منبوذة ، لأن الطبقات الممتازة عاشت حياة اجتماعية مغلقة وأباح لها الإسلام حريتها الدينيه ، فاستمسكت بها إلى أبعد الحدود . وكان الإختلاط أغلبه بعناصر الجات وقد أعجب العرب بحسن نساء الجات وجمالهن فأقبلوا على الزواج منهن ، راجع أحمد أمين: ضحى الإسلام: جزءان : القاهرة سنة ١٩٣٨م: جـ١ : ص٢٤١ ، حسن أحمد محمود : الإسلام فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى:الهيئةالمصريةالعامة للكتاب:سنة ١٩٧٢م: ص٢٥٤.

(٢) كان العرب على معرفة غير قليلة بالهند وأحوالها وتلك عن طريق تجارهم الذين نزلوا بهذه البلاد فى غربها فأختلطوا بأهلها ولقوا فى الغالب حفاوة وعناية عند حكامها ليعودوا إلى بلادهم فى كل مرة فيدهشوا الناس بما يروونه لهم عن ثراء الهنود الطائل ومالهم من غرائب العادات والمعتقدات: الساداتى: تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية: جـ١ ص - ص٥٥.

وبعد هذه المرحلة من دخول الإسلام فى شبه القارة الهندية جاءت موجه الإسلام الثانية إلى هذه البلاد عن طريق حركة الجهاد التى قامت فى أواخر القرن الأول للهجرة(١) عندما توجه محمد بن القاسم الثقفى(٢) فى

(١) ترجع حملات المسلمين على بلاد الهند إلى عهد بعيد، فقد أرسلوا أولى حملاتهم بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم بخمسة عشرة عاماً، ومن ثم أخذ سيل العرب يتدفق على هذه البلاد. وفى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ١٣هـ- ٢٣هـ - (٦٣٤م - ٦٤٤م) خرجت حملات ثغرية خاطفة على ثغر الدبيل واشتبكت البحرية العربية بقيادة المغيرة بن ابى العاص بالبحرية الهندية قبالة الدبيل وأحرزت انتصاراً كبيراً ترك أثراً فى ظهور البحرية الإسلامية ونموها وتطورها، ولكن هذه الحملات الثغرية لم تصل إلى نتائج حاسمة ويذكر د. حسن محمود أن الغارات البحرية فترت نوعاً ما فى عهد الخليفة عثمان بن عفان رغم أهتمامه بتقص أحوال السند ولم يكن ذلك كرهاً فى الاشتباك بقدرما كان خوفاً من مغبة الأشتباك مع بحرية كانت لا تزال قوية كبحرية الهند: راجع البلاذرى: (أحمد بن يحى بن جابر) فتوح البلدان ، طبعة القاهرة ١٣١٨هـ : ص ٤٣٨ - ص٤٤١، الساداتى : تاريخ المسلمين: جـ١: ص٥٦ ، حسن أحمد محمود: الإسلام فى آسيا الوسطى: ص٢١٠، حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والاجتماعى : جـ١: ص٣٠٦- ص٣٠٨ ، عصام عبد الرؤوف: بلاد الهند فى العصر الإسلامى: عالم الكتب : ص١٩٨٠، ص ٩: وما بعدها، سيرتوماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ترجمة إلى العربية حسن إبراهيم حسن، وعبد المجيد عابدين ، إسماعيل النحراوى: مكتبة النهضة العربية: سنة ١٩٧٠: ٢٨٧ وما بعدها.

(٢) لما تولى الوليد بن عبد الملك (٨٦هـ - ٩٦هـ) الخلافة ، عهد إلى الحجاج بن يوسف الثقفى عامله على العراق بإيفاد حملة إلى الهند فأرسل جيشاً أسند قيادته إلى ابن أخيه محمد بن القاسم الثقفى وقام الحجاج بتزويد هذا الجيش بما يحتاج إليه من المؤن والمعدات: راجع : البلاذرى : المصدر السابق: ص٤٤١- ص٤٤٢- ص٤٤٤، حسن

حملة معروفة ٩٣ هـ (٧١١)م وتمكن من فتح إقليم السند وبلوشتان والبنجاب(١).

وهناك سببان دفعا المسلمين إلى هذا الفتح بالإضافة إلى الامتداد الطبيعى للدعوة الإسلامية فى مختلف الأقطار والسبب المعروف والمشهور أن قراصنة من سواحل السند قد أغاروا على سفن إسلامية متجهة من جزيرة سيلان إلى السواحل الغربية - البصرة وغيرها.

وهذه السفن كانت تحمل عدداً من المسلمين والمسلمات وبعض الهدايا من قبل ملك سيلان إلى الخليفة الأموى بدمشق، وطلب الحجاج بن يوسف الثقفى عامل الأمويين على العراق - أثر هذه الغارة من ملك السند " الهندوسى" داهر أن يطلق سراح الأسرى المسلمين من الرجال والنساء ويعيد الأموال والهدايا المنهوبة، فاعتذر الملك الهندوسى عن تلبية هذا الطلب من الحجاج معتذراً بأنه لا سلطان له على هؤلاء القراصنة(٢). والسبب الآخر

إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام : جـ١: ص٣٠٧، الساداتى : نفس المرجع : جـ١: ص٥٨ - ص٥٩، حسن أحمد محمود: نفس المرجع: ص٢٤ وما بعدها ، عصام عبد الرؤوف: بلاد الهند ص٩

S. Lane - Pool : Medieval India under The Mohamedan Rul, New york. 1968 P.

(١) البنجاب : هو وادى السند ومعنى البنجاب - كما يقول ابن بطوطة فى رحلته - المياة الخمسة - وهذا الوادى من أعظم أودية الدنيا وهو يفيض فى أوان الحر فيزرع أهل تلك البلاد على فيضه ، كما يفعل أهل الديار المصرية فى فيض النيل : راجع ابن بطوطة: الرحلة ص ٤١١.

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان: ص ٤٤١ - ص٤٤٣، حسن أحمد محمود: المرجع السابق: ص ٢١٠ - ص٢١١، الساداتى: نفس المرجع : ص٥٧ - ٥٨ .

لهذه الحملة هو لجوء بعض الثوار الخوارج(1) من العراق إلى هذا الملك الهندوسى وعدم تسليمه إياهم إلى الحجاج على الرغم من طلبه بالحاح

(1) كان الخوارج يمثلون الديمقراطية الإسلامية فى المجتمع الإسلامى إذا كانوا يرون أن الخلافة حق لكل مسلم كفء لا فرق فى ذلك بين قريش وغير قريش ، وعلى الرغم من كثرة الثورات التى قام بها الخوارج فى المشرق الإسلامى وما أبدوه من ضروب الشجاعة فقد عجزوا عن تحقيق أهدافهم وأصبحوا هدفاً للبطش والاضطهاد فكان تكفيرهم لعلى وعثمان وأصحاب الجمل أن وضعهم فى موقف العداء للجماعة الإسلامية السنية ، فحاربهم علىبن أبى طالب وفل شوكتهم فى موقعتى النهروان والنخيلة، ولم يتوان الأمويون فى تعقب حركاتهم وقمعها وأنضم إليهم الشيعة على الرغم مما بينهم من عداء متأصل ، على أن محنة الخوارج الشديدة كانت فى عهد عبد الملك بن مروان فقد رماهم بالحجاج والمهلب فى أن واحد، وهكذا وصلت أحوال الخوارج فى بلاد المشرق فى النصف الأخير من القرن الأول للهجرة وأوائل القرن الثانى من ضعف وإنحلال، فأنتشروا فى أطراف العالم الإسلامى هرباً من بطش الأمويين وكانت بلاد السند ملجأ لعدد كبير من الخوارج فأنتشروا بكثرة فى نواحى هراة ومعظم إقليم سجستان وأجزاء من إقليم كرمان وإقليم مكران وهناك يعرفون باسم "الشراة" عن الخوارج : راجع ابن خلدون : (عبد الرحمن) العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر: طبعة دار الكتاب اللبنانى: - -1981 م حـ3: ص142: حـ6: ص11..، الأسفرائينى: (أبو المظفر الأسفرائينى) : التبصر فى الدين وتميز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكة:القاهرة سنة 1955: ص146، ص170، الطبرى: (محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك : حـ4: تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم : دار المعارف : زخائر العرب:1959 م ص5، ص13، ص76، حـ6: ص172: ، المبرد : (أبو العباس محمد بن يزيد) الكامل فى اللغة والأدب والنحو والتصريف: القاهرة سنة 1936م: حـ1: ص546، حـ3: ص954، الرازى : (فخر الدين) اعتقادات فرق المسلمين: ص42،

وهؤلاء الثوار الأخوان العلافيان اللذان أصبحا مستشاري الملك داهر في الشؤن العسكرية، وعقب ذلك وجه الحجاج بن يوسف تلك الحملة الشهيرة تحت قيادة محمد بن القاسم الثقفي عن طريق البحر والبر ونجحت هذه الحملة نجاحاً باهراً فاستولى المسلمون على ثغر الدُبيل([1]).

وبعد ذلك توغلوا شمالاً وغرباً فبلغ مدينة نيرون([2]) على الضفة الغربية للسند فاستقبله أهلها استقبالاً حسناً وأدخلوه مدينتهم ووفوا بالصلح، وواصل محمد بن القاسم زحفه حتى بلغ نهر السند وهنا التقى بداهر ملك السند وكان هو وجنده يقاتلون على ظهور الفيلة فقاتلوا قتالاً شديداً، انتهى

ص٤٦، فلهوزن (يوليوس) : تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية، ترجمة عبد الهادي أبو ريدة: القاهرة سنة ١٩٥٨: ص١٦، أحزاب المعارضة السياسية والدينية، في صدر الإسلام، الخوارج والشيعة: ترجمة عبد الرحمن بدوي - الطبعة الثالثة الكويت: سنة ١٩٨٧م: ص٦٩، محمود إسماعيل الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري : طبعة سنة ١٩٨٦م: مكتبة الحرية الحديثة : ص٢٥ - ص٣٠، جمال الدين سرور: الحياة السياسية في الدولة العربية الإسلامية: القاهرة سنة ١٩٦٠: ص١٢٦.

(١) ثغر الدُبيل : بفتح أوله وكثر ثانية وهي إحدى مدن إقليم السند بالقرب من المنصورة وينسب إلى الدُبيل مجموعة من العلماء ، راجع ياقوت: معجم البلدان: جـ٢: ص٤٣٨ - ص٤٣٩:، الأصطخري: المسالك والممالك: ص١٠٢- ص١٠٣، المقدسي: (البشاري) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم : تحقيق محمد مخزوم: دار أحياء التراث العربي: ص٣٥٩.

(٢) نيرون : مدينة بنواحي الدبيل والمنصورة على نصف الطريق وهي إلى المنصورة أقرب: راجع ياقوت: معجم البلدان : جـ٥: ص٣٣١، الأصطخري المسالك والممالك: ص١٠٢، المقدسي: أحسن التقاسيم: ص٣٥٩.

بقتل داهر وهزيمة أصحابه وواصل العرب تقدمهم صوب الشمال فاستولى محمد بن القاسم على مدينة الرور(١) عاصمة أمارة السند البراهمية، وكان ابن داهر قد تحصن بها ، وعبرت القوات العربية نهر بياس رافد السند وحاصروا الملتان(٢) أعظم مدن السند الأعلى . وهكذا أصبح وادى السند بأسره فى قبضة المسلمين(٣)...

وإذا كان الأمويون قد كسبوا معركة السند فى عهد الوليد بن عبد الملك (٨٦هـ - ٩٦هـ) (٧٠٥م - ٧١٥م) فإنهم مالبثوا أن خاضوا معركة تأمين هذه المكاسب وتثبيتها(٤) فاضطروا إلى

---

(١) الرورُ : براءين مهملتين: ناحية بالسند تقرب من المُلتان فى الكبر وعليها سوران وهى على شاطئ نهر مهران على البحر، وهى من حدود المنصورة والديبل، وهى متّجر وفرضة بهذه البلاد. راجع : ياقوت : نفس المصدرجـ٣: ص٧٩.

(٢) المُلتان : بالضم وسكون اللام وتاء مثناه من فوقها وآخره نون وأكثر ما يكتب "مولتان" وأكثر ما يسمع فيه "ملتان" بغير واو وهى بلدة فى الهند وبها صنم تعظمة الهنود وتحج إليه من أقصى بلدانها وملتان حالياً مدينة فى باكستان جنوب غرب مدينة لاهور وتقع على أحد روافد نهر السند: ياقوت : نفس المصدر: ص١٨٩، ص٢٢٧ - ٢٢٨، والبلاذرى: فتوح البلدان: ص٤٤٥، ويذكرها ابن بطوطة على أنها قاعدة بلاد السند: راجع ابن بطوطة: الرحلة: ص٤٠٣، القزوينى : (زكريا بن محمد بن محمود القزوينى) أثار البلاد وأخبار العباد طبعة دار صادر: بيروت سنة ١٩٦٠م - ص١٢٢، الأصطخرى: المسالك والممالك : ص١٣٠.

(٣) البلاذرى: المصدر السابق: ص٤٤٤، حسن أحمد محمود: الإسلام فى أسيا الوسطى: ص٢١٨، ص٢٢٠، ص٢٢٦. Lane - Pool: Medival india: P. 6.

(٤) حسن محمود : نفس المرجع : ص٢١٨ - ص٢٢٠.

القضاء على ثورات الأمراء الهنود بعد عزل محمد بن القاسم ومصرعه[١].

وظلت هذه الفتن تتلاحق والأمويون لا يكفون عن القضاء عليها حتى خلافة عمر بن عبد العزيز الذى أراد أن يهدئ من الفتنة وأن يدعو الهنود إلى الإسلام فكتب إلى ملوكهم يدعوهم إلى الإسلام وهكذا لم يكف الأمويون عن الاهتمام بولاية السند وإقرار الأمور فيها حتى قيام الدولة العباسية.

ولم يكن العصر العباسى عصر تجميد للفتوح الإسلامية على ما يذهب إليه بعض الدراسين ، فقد اندفع العباسيون فى تيار الفتح قوة الأمويين[٢] نفسها ، فعملوا على توسيع الفتوحات فى السند، ففى عهد الخليفة أبى جعفر المنصور دخلت كشمير[٣] فى حوزة العباسيين، وأكد العباسيون سيطرتهم على الملتان[٤] .

(١) البلاذرى : نفس المصدر : ص ٤٤٦، حسن محمود نفس المرجع والصفحة.

(٢) البلاذرى : نفس المصدر : ص٤٤٩، حسن محمود: المرجع نفسه : نفس الصفحة.

(٣) كشمير من قرى نيسابور ينسب إليها ابو حاتم الوراق : ياقوت معجم البلدان : حـ٤: ص٤٦٣ "يشير البلاذرى إلى فتح كشمير بقوله "وأخصبت البلاد فى ولايته "يقصد أبا جعفر المنصور" فتبركوا به ودوخ الثغر وأحكم أموره" البلاذرى ص٤٤٩.

(٤) عن اهتمام العباسيين بإقليم السند راجع: الساداتى تاريخ المسلمين ص ٦٩ وما بعدها، وحسن محمود : نفس المرجع : نفس الصفحة.

وما زالت فتوحات المسلمين تتابع فى بلاد الهند فى عهد المأمون والمعتصم حتى سيطر المسلمون على البلاد الواقعة بين كابل(1) وكشمير والملتان، فبنيت الحصون والقواعد، ويبدو فى عهد المعتصم مدى الأثر الذى تركه تجار المسلمين الذين كثرت أعدادهم فى بلاد السند فى نشر الاسلام فى هذه البلاد(2) ومن الجدير أن الإسلام بدأ ينتشر فى هذه البلاد من أول أيام الفتح، فقد سارت الحركة الإسلامية نحو النمو والانتشار فى إقليم السند كما سارت فى كل الأمصار المفتوحة، فقد طبق العرب الفاتحون نفس السياسة التى انتهجوها فى الأمصار المفتوحة ، وفى مقدمة هذه السياسة موقف العرب من أهل الذمة فقد تركوا لأهل البلاد حرية العبادة، كذلك ارتفعوا بالبوزية إلى مصاف أهل الكتاب ، فطبق عليهم ما طبق على

---

(1) كَابُلُ : بضم الباء الموحدة ولام، وكابل مدينة مشهورة من بلاد السند أو الهند وكابل بين الهند ونواحى سجستان فى ظهر الغور وهى ثغر من ثغور طخارستان ولذلك أشتهرت بدروها التجارى : ياقوت : معجم البلدان : حـ4: ص426، ابن بطوطة: الرحلة : ص406: هامش رقم (73) ويذكر القزوينى أن كابل أهلها مسلمون وكفار ويجلب منها النوق البخاتى وهى أحسن أنواع الأبل: القزوينى: أثار البلاد وأخبار العباد: ص243، وراجع أيضاً كى لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية: طبعة بغداد : ص388.

(2) حسن محمود : نفس المرجع ص 22 – ص223 "تابع العباسيون فى عهد المعتصم سياسة إنشاء المدن، وبناء القواعد الحصينة ، فأمر عمران بن موسى ببناء مدينة البيضاء وأسكنها الجند "حسن محمود نفس المرجع: ص222، راجع قصة إسلام ملك إقليم العسيفان على أيدى التجار المسلمين : البلاذرى : نفس المصدر: ص545.

النصارى المعاهدين فى الحقوق والواجبات(١)، وما ترتب على ذلك من فرض الجزية والخراج كما ظفرت معابد البوزيين بالحرية الدينية كاملة(٢).

وبالإضافة إلى هذه السياسة التى اتبعها العرب مع الهنود، فقد لعبت الهجرات العربية إلى الهند الدور الذى لعبته فى الأمصار كلها. فهاجرت القحطانية والعدنانية على حد سواء وإن كانت القحطانية أكثر عدداً وأوسع انتشاراً.

انتشر العرب فوق رقعة السند انتشاراً فسيح الرقعة وقد نهجت الحكومة العربيةالنهج نفسه الذىسارت عليه فىكل الأمصار الإسلاميةمن بناءالحواضر واختطاط الخطط والمدن لتكون أساساً أماكن لتجمع العنصر العربى المحارب والمستقر معاً، فأنشئت مدينتى المحفوظة والمنصورة(٣) لتكون مأوى للعرب وقاعدة عسكرية للجند(٤).

---

(١) حسن محمود : نفس المرجع : ص٢١٨، ٢٢٦، ٢٢٧.

(٢) نفس المرجع : ص٢١٨، ٢٢٧.

(٣) المنصورة : بأرض السند وهى قصبتها وهى مدينة كبيرة كثيرة الخيرات ذات جامع كبير، يقول ياقوت نقلاً عن المسعودى: سميت المنصورة نسبة إلى منصور بن جُهْور عامل بنى أمية ، راجع ياقوت: معجم البلدان : حـ٥: ص٢١١، أما الأصطخرى فيقول "وأما مدن السند ضمنها المنصورة وأسمها بالسندية ترهاباذ" : الأصطخرى : المسالك والممالك : ص١٠٢، راجع القزوينى :آثار البلاد وأخبار العباد . ص١٢٤.

(٤) حسن محمود:نفس المرجع:ص٢٣١: الساداتى:نفس المرجع حـ١ص٦٩ – ص٧٤.

ويقول : حسن محمود أن العرب فى السند خضعوا للظواهر الاجتماعية التى خضعوا لها فى جميع البلاد المفتوحة من آثر التوليد فيهم والاختلاط بالعناصر الوطنية ومن تأثرهم بالتقاليد السندية الصحيحة،هذا وقد اختفى العرب من الحياة السياسة فى السند بالوسيلة نفسها التى اختفوا بها من الحياة الإسلامية كلها. وإن كانت مقاومتهم فى السند قد طالت أكثر من مقاومتهم فى البلاد الأخرى. فقد ظل العرب يفرضون وجودهم حتى مستهل القرن الرابع االهجرى العاشر الميلادى ثم فنيت دماؤهم فى دماء أهل السند وأدوا دورهم المرسوم فى أنتشار الإسلام(١).

ويضيف الدكتور حسن محمود عاملاً آخر من العوامل المؤثرة فى الحركة الفكرية الإسلامية فى السند ونعنى بها الهجرات الثقافية والفكرية فقد اقترنت الفتوحات العسكرية بتوسع ثقافى نابع من الحرص الشديد على انتشار الإسلام والثقافة العربية. وهدفها التبصير بالعقيدة وفهم أسرار اللغة والفقه والحديث(٢).

أما المرحلة الثالثة فى مجال أنتشار الإسلام فى السند فتبدأ فى أواخر القرن الرابع الهجرى العاشر الميلادى حيث جاء الإسلام هذه المرة من شمال غرب الهند على أيدى المجاهدين من الأتراك(٣). الذين يعرفون فى التاريخ

---

(١) حسن محمود : نفس المرجع : والصفحة .

(٢) حسن محمود : نفس المرجع والصفحة .

(٣) عبد الكريم غرايبة العرب والأتراك (دراسة لتطور العلاقات خلال ألف سنة: مطبعة جامعة دمشق : ١٣٨١ - ١٩٦١ ص٣٤ - ٣٥.

الإدارى التاجح[١]. ولكنه لحق بأبيه فمات (٣٥٥هـ - ٩٦٥م)[٢] ولم يخلفه أحد من ذريته، فتولى من بعده أحد قواد أبيه ويدعى "بلكاتكين" وعلى الرغم من أن هذا الأخير قد ضرب العملة باسمه (٣٥٩هـ - ٩٦٩م)، إلا أنه توفى أثناء حصاره لقلعة جَرْديز فى الهند (٣٦٣هـ - ٩٧٣م) فقام بالأمر بعده بيرى وهو من مماليك ألبتكين أيضاً واستمر فى الأمارة زمناً ولكنه أساء تدبير الأمور مما أهاج الرأى العام ضده فى غزنة[٣]. الأمر الذى حد بالأهالى إلى إظهار التمرد والعصيان عليه، وأدى ذلك إلى خلعه والنظر فى الأمر لاختيار من هو أفضل، وقيل بل تنازل بيرى عن منصبه اختيار منه[٤].

---

(١) سعد الحميدى: حضارة الدولة الغزنوية ص٧ - ص٩.

(٢) الميمندى (أحمد بن على بن عمر) الفتح الوهبى على تاريخ أبى نصر العتبى: طبعة المطبعة الوهبية بمصر: أشراف جمعية المعارف : ١٢٨٦هـ.

(٣) ابن خلكان : (شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن أبى بكر الشافعى) وفيات الأعيان : تحقيق محى الدين عبد الحميد (القاهرة ١٩٤٨) حـ٤: ص٢٦٤ ، ابن الأثير : (على بن أحمد أبى الكرم) الكامل فى التاريخ: حـ ٨ : أحداث ٣٦٢ هـ ، عصام عبد الرؤوق : بلاد الهند فى العصر الإسلامى : ص١٥ .

(٤) عبد الكريم غرايبة: العرب والأتراك: ص٣٥، عصام عبد الرؤوف : تاريخ الإسلام فى جنوب غرب اسيا فى العصر التركى: دار الفكر العرب : ١٩٧٥ ص٣٩، ستانلى لين بول: الدول الإسلامية مع أضافات وتصميمات بارتولد وخليل أدهم، تعريب محمد صبحى فرزات : مطبعة الملاح: ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م: حــ٢: ص٦٢١.

بالغزنويين(١) والغزنويون هم أصلاً من الجنس التركى من بلاد ما وراء النهر(٢). وكانوا يعملون كقواد عسكريين فى الدولة السامانية فى بخارى(٣). وأحد هؤلاء القواد واسمه

(١) نسبة إلى مدينة غزنة التى اتخذوها قاعدة لملكهم وتقع إلى الجنوب من مدينة "كابل" عاصمة أفغانستان الحالية ويذكر ياقوت فى معجمه اسمها الصحيح "غزنيه" وإن العلماء لا يستعملون غيره وقد ورد ذلك فى أشعار أبى ريحان البيرونى واستدل به ياقوت، كما يذكر أن غزنة هو أطلاق من العامة عليها، كذلك نجد الوزير المؤرخ الغزنوى البيهقى لا يستعمل غير الاسم الأخير "غزنة" كذلك استعمل الجغرافى ابو الفدا فى كتابه تقويم البلدان نفس الاسم وغزنة هو الاسم الحالى للمدينة التى اتخذها سلاطين الدولة الغزنوية قاعدة لحكمهم (٣٦٥هـ – ٥٧٩هـ) ويذكر ابو الفدا فى كتابه أن غزنة فرضة الهند، هذا وقد أهملت هذه المدينة منذ سقوط الدولة الغزنوية إذ يذكر ابن بطوطة أنه زار تلك المدينة ٧٣٣هـ وأنه شاهد قبر محمود الغزنوى وضريحه، وقد خربت مدينة غزنة على يد الأمير الغورى علاء الدين بن الحسين ٥٥٦هـ إذا أحرقها وأطلق عليها "جهانور" ولم يبق بها إلى الوقت الحاضر سوى منارتها الشهيرة، عن غزنة راجع ياقوت : معجم البلدان: حـ٤: ص٢٠١ ، أبو الفدا : (عماد الدين) تقويم البلدان:نشر دىسلان: باريس ١٨٥٠م ، ص٤٦٤ ، ص٤٦٥ ، ص٤٦٧ ، ابن حوقل : كتاب المسالك والممالك المسمى بصورة الأرض : نشر مكتبة الحياة: بيروت : لبنان ص٣٥٥، ابن بطوطة : الرحلة : نشر دار صادر : بيروت :٤٠٥ – ٤٠٦.

(٢) ما وراء النهر : يراد به نهر جيحُون بخراسان، فما كان فى شرقه، يقال له بلاد الهياطلة، وفى الإسلام سموه ما وراء النهر وما كان فى غربية فهو خراسان وولاية خوارزم – وما وراء النهر من أنزه الأقاليم وأخصبها وأكثرها خيراً:راجع ياقوت:معجم البلدان حـ٥:ص٤٥.

(٣) بُخَارىَ : بالضم من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها، مدينة قديمة كثيرة البساتين والفواكه وهى نزهة بلاد ما وراء النهر لا يقع بصرك فيها إلا على خضرة متصلة وليس بخراسان وما وراء النهر مدينة أعظم منها لكثرة ما خرجت من العلماء: ياقوت معجم البلدان : حـ١: ص٣٥٣.

البتكين[1] تولى الحكم من قبل الأمير الساماني لمنطقة أفغانستان في مدينة غزنة[2] ثم في ظروف خاصة في الدولة السامانية استقل ألبتكين بحكم هذه المنطقة[3] وهكذا نشأت الدولة التي عرفت في التاريخ بالدولة الغزنوية وذلك في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري.

ولم يهنأ ألبتكين بالأمارة طويلاً إذ وافته المنية ٣٥٢هـ - ٩٦٢م وولى الأمر بعده ابنه إسحاق إبراهيم فأعاد الأمارة إلى حظيرة الدولة السامانية، ولم يكن أبو إسحاق منصور ليجمع إلى جانب زهده وورعه، صفات الحاكم

---

(١) نشأ "البتكين" فى جملة غلمان الأمير السامانى أحمد بن إسماعيل (٢٩٥هـ) ثم ما لبث أن تدرج فى المناصب حتى ولى إمرة خراسان فى عهد الأمير عبد الملك الأول بن نوح بن نصر _٣٣٤هـ - ٣٥٠هـ) وأصبح بذلك أكبر الولاة فى الدولة السامانية كما أجتمع له إلى جانب ذلك منصب "حاجب الحجاب" أى أكبر حجاب الدولة السامانية: راجع النرشخى (أبو بكر محمد بن جعفر : تاريخ بخارى، (تزييل لتاريخ السامانية) ترجمه إلى العربية أحمد عبد المجيد بدوى ، ونصر الله مبشر الطرازى): دار المعارف : مصر ١٣٨٥هـ - سنة ١٩٦٥م: ص١٤٣، سعد بن سعيد الحميدى: حضارة الدولة الغزنوية: رسالة ماجستير ١٣٩٩هـ - ١٤٠٠هـ: الرياض: ص٧.

(٢) يعود سبب النزاع بين البتكين وبين الأمير السامانى منصور الأول بن نوح بن عبد الملك (٣٥٠هـ - ٣٦٥هـ) إلى عدم رغبة البتكين أساساً فى ارتقاء سيدة سُدة الملك لصغر سنة، الأمر الذى أحفظ الأمير السامانى عليه فطلب الأمير منصور من القائد البتكين القدوم إلى بخارى ، لكن البتكين أوجس مايضمره له الأمير فى نفسه، فهرب فى ثلاث آلاف من غلمانه إلى مدينة غزنة فى جبال الهندكوش المنيعة حيث أسس هناك أمارة مستقلة حكمها بقية حياته: راجع : جيلانى: غلام جيلال: غزنة وغزنويان: طبعة فارسية: كابل : أفغانستان : ١٣٥١ شمسيه: ص٢، سعد الحميدى: المرجع السابق: ص٧.

(٣) عبد الكريم غرايبة: العرب والأتراك : ص٣٥.

وهكذا استقر رأى كبـــار القواد والأعيـــان فى غزنة على اختيـــــار أبى نصر ســبكتكين(١) ويعــــد هــــــذا الوالــى المؤســس الأول للدولــة الغزنوية(٢) ذلك أنه استجاب لدعوة السامانين لمساعدتهم فى القضاء على

(١) وهو من موالى الترك الذين كانوا يجلبون من التركستان إلى البلاد الإسلامية على سبيل العبودية فإشتراه ابو أسحاق البتكين ونشأ فى جملة غلمانه ويذكر بعض المؤرخين أن سبكتتكين هو أحد أحفاد يزكرد شهريار أخر ملوك فارس قبل الإسلام وأن أسرته كانتت بالتركستان فى عهد عثمان بن عفان لاجئة فلم يمضى حيلان حتى تتركت وهو قول مرفوض ، ذلك أن أغلب الموالــى الذين بلغوا رتبة الأمـارة قد أدعو بدورهم لأنفسهم مثل هذا الادعاء طلباً لعراقة النسب، والحق أن سبكتكين كان رجلاً قوياً أجتمعت فيه صفات الزعامة التى جعلت منه سياسياً بارعاً وقائداً محنكاً فتولى الأمارة ٣٦٦هـــت – عن سبكتكين راجع البيهقى: (أبو الفضل سيد) تاريخ البيهقــى: ص٢١٦ – ص٢١٨: تعريب يحى الخشـاب، صـادق نشأت) مكتبة الأنجلو المصرية منهاج عثمـانى: طبقات ناصرى: كابل ١٣٤٢هـ: ص٢٢٧ (فارســى) وعن إجماع القواد على إختيار سبكتتكين راجع ابن الأثير: الكامل فى التاريخ حـ٨: أحدث ٣٦٧هـ – ٣٨٧هـ، العتبنى: (أبو نصر محمد بن عبد الجبار): "تاريخ يمينى" القاهرة ١٣٨٦هـ: حـ١: ص٥٧– ص٥٨، الساداتى: تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية: حـ١: ص٨٣ وما بعدها، حسن محمود : الإسلام فى أسيا الوسطى: ص٢٤١، عصام عبد الرؤوف: الإسلام فى بلاد الهند : ص١٥، الدول الإسلامية المستقلة فى المشرق: ص٧١ وما بعدها..

(٢) الساداتى : المرجع السابق : ص٨٣، حسن محمود: نفس المرجع: ص٢٤١، حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق: حـ٣: ص٨٥، عصام عبد الرؤوف : نفس المرجع: ص٧١: سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب : ص٢٦٣

Lane Pool - the Muhammaden Dynasties. P. 286. Ency clopedia of Islam, Ghaznavids, S. V. (vol. 11) P.154.

حركات الخارجين على سلطانهم فى بلاد ما وراء النهر كما إستجاب لهم فى قتال البويهين الذين كانوا يطمعون فى أنتزاع خراسان من حوزة السامانين.

وهكذا نجح سبكتكين وأبنه محمود فى التغلب على الحركات المعادية للسامانين وأسترداد ينسابور([1]) من البويهيين، فضم نوح بن منصور السامانى ولاية خراسان (٣٨٤هـ – ٩٩٤م) إلى حكم سبكتكين وعين ابنه محمود على جيوشها ولقبه سيف الدولة ولقب اباه ناصر الدولة([2]).

ولعل النزعة إلى تأسيس الدولة قد راودت الأمير سبكتكين منذ تسلمه مقاليد الأمارة فى غزنة، ذلك أن كفاحه فى الهند هو أول عمل قام به – وتوسعه على حساب ممالك الهنود، لم يكن لمجرد الرغبة الصادقة فى نشر الإسلام فى آفاق جديدة فحسب، وإنما السعى إلى الاستقلال بأمارته عن السامانين كذلك . يؤيد ذلك مكاتبات ابنه الأمير "محمود بن سبكتكين" وهو أحد عمال الدولة السامانية وقتذاك إلى شخص الخليفة القادر بالله (٣٨١هـ – ٤٢٢هـ – ٩٩١م ١٠٣٠م)

---

(١) نيسابور : بفتح أوله والعامة يسمونه نشاؤور وهى مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة وهى معدن الفضلاء ومنبع العلماء ونيسابور تقع بين جيحون والقادسية قرب سرخس ومرو، فتحها الأمير عبد الله بن عامر صلحاً فى خلافة عثمان بن عفان: ونيسابور مدينة عظيمة ومن الرى إلى نيسابور مائة وستون فرسخاً، ومنها إلى سرخس أربعون فرسخاً وهى كثيرة الفواكه والخيرات: ياقوت : معجم البلدان: حـ٥: ص٣٣١: ابن بطوطة: الرحلة : ص٣٩٦: هامش : رقم ٤٨.

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : حـ٩: أحداث : سنة ٣٨٤، حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام: حـ٣: ص٨٠.

يخبره بفتوحه فى الهند، ولم يكتب بأنباء تلك الفتوح للحكومة السامانية فى بخارى وكأنه بهذا التصرف الجرئ يهدف إلى الحصول على منشور من الخليفة العباسى يستمد به صبغة شرعية لأمارته التى ينوى الانفصال بها عن الدولة السامانية شأنه فى ذلك شأن الأمراء المتغلبين الذين ظهروا فى زمانه([1]).

هذا ولقد اتجه سبكتيكن فى توسيع رقعة دولته أول الأمر ناحية الهند([2])، ولم يتجه نحو الداخل إلا تلبية لنداء السامانين ومساعداتهم ضد الخارجين على سلطانهم([3]) كما سبق أن ذكرنا.

---

(١) سعد الحميدى : حضارة الدولة الغزنوية: ص٩.

(٢) ليس المقصود بالهند هنا – عامة شبه القارة الهندية المعروفة حالياً ذلك أن التوسع الحقيقى فى نشر الإسلام فى شبه القارة الهندية تم فى عصور متأخرة عن العصر الغزنوى وعلى أيدى مجموعات متعاقبة من الفاتحين – وإنما المقصود بالهند هنا بعض أقاليم السند وصحراء ثار وبعض أقاليم الدكن والأجزاء العليا من نهر الكنج وتلك هى المناطق التى دخلتها جيوش الغزنويين وشملها النفوذ الغزنوى لفترة طويلة بعد الفتح، ولعل من الأسباب التى دفعت سبكتكين على فتح الهند تلك الشكاوى المتكررة من تجار المسلمين الذين كانوا يعيشون فى الهند ومن أسلم على أيديهم من الهنود من الظلم الذى حل بهم على ايدى الهنادل الوثنين، راجع سعد الحميدى: نفس المرجع: ص١١، ص١٢ عنه تاج محمد خان: عروج أفغان: طبعة بشاور: ١٩٠٤: ص٢٩ فارسى ، وسعيد أحمد سلمانو: كاعروج وزوال: طبع دهلى : ١٩٤٧م: ص٢١٨.

(٣) كان إظهار الولاء للأمير الساماني من قبل سبكتكين فربما كان هدفه من ذلك لفت نظر الرأى العام إليه بإظهار الولاء الشكلى المؤقت للدولة السامانية ليتقى بذلك غضب حكومة بخارى، وليظهر أمام أعداء السامانين والمتمردين عليهم بمظهر القوى وقد

وهكذا نجح سبكتكين فى تحقيق أماله وطموحاته، فقد استغل الوضع الداخلى لأمارة بُست(١) المجاورة وضمها إلى ولايته كما قام بشن الهجوم على أمارة قُصدار(٢) واستولى عليها(٣).

نجح فى ذلك إلى حد بعيد وأكدت الأحداث السياسية ذلك، راجع: سعد الحميدى: نفس المرجع ص١٠، وعن علاقة سبكتكين وابنه محمود بالدولة السامانية فى بخارى ودفاع الغزنوين عن شرعية أملاك السامانيين راجع: العتبى: تاريخ يمينى: حـ١، حـ٢ حوادث متفرقة، ابن الأثير: الكامل: حـ٩: أحداث سنة ٣٨٤هـ وما بعدها ، الساداتى: تاريخ المسلمين : حـ١ ص٨٦.

(١) بُست : بضم الباء مدينة بين سجستان وغزينن وهراة ويظنها ياقوت من أعمال كابل وهى من البلاد الحارة المزاج ويقال لناحيتها اليوم "كرم سير" ومعناها النواحى الحارة المزاج وهى كثيرة الأنهار والبساتين وإليها ينسب الخطابى أبو سليمان أحمد بن محمد البُستى صاحب معالم السنن وغريب الحديث وكان من الأئمة والأعيان صنف له ياقوت فى معجمة وبُست من أجمل المدن المعروفة راجع عنها ياقوت: معجم البلدان: حـ١: ص٤١٤ - ص٤١٩، البغدادى: (صفى الدين عبد المؤمن بن عبد الحق) مراصد الاطلاع على اسماء الأمكنة والبقاع، تحقيق على محمد البجاوى نشر دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابى، القاهرة: (١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م) ، حـ١ص ١٩٦، كى لسترنج: بلدان الخلافة الشرقية: ص٣٨٨.

(٢) قُصدَارُ بالضم ثم السكون، ودال بعدها ألف وراء : ناحية مشهورة قرب غزنة ويذكر العتبى أن قصدار من نواحى السند وقصدار قصبة يقال لها طوران وهى مدينة عظيمة لها رستاق ومدن : راجع ياقوت : معجم البلدان : حـ٤: ص٣٥٣، العتبى (أبو النصر) كتاب يمينى: حـ١: ص٧٢، حـ٢، ص١٣٢.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ: حـ٦: ص٨٦، أحداث ٣٦٦هـ - ٣٦٩هـ.

هذا ولقد اتجه سبكتكين بعد ذلك إلـى الأقـاليم الجبلية الواقعة فـى بـلاد الأفغان فـتراه يستولى على إقليم هندكوش([1]) ويستولى أيضـاً علـى بعض المواقع فيها ومن بينها مدينـة كـابل عاصمـة أفغانسـتان الحالية ولقد أفزعت أعمال سبكتكين أعظم ملوك الهند ويدعى جيبـال وتمتد مملكتـه شمال غـرب الهند، وقد رأى هذا الملـك فـى استيلاء سبكتكين علـى أطـراف بـلاده تهديداً لمملكته..

هذا وقد دخل سبكتكين فـى حـروب طاحنـة فـى الفترة مـن ٣٦٤هـ - ٣٦٦هـ(٩٧٤م - ٩٧٦م) أرغم فيها الملك جيبـال علـى دفـع الجزيـة وتسليم بعض القلاع العسكرية فى بلاده([2]). غير أن جيبـال انتهك شـروط الصلـح ، فاتجه له سبكتكين فى قوة من جيشه تصحبه قوة من الغزاة المتطوعـة وقصـد مدينة لمغان([3]) وافتتحها عنوة وهدم بيوت الأصنام وأقام فيها شعائر الإسلام.

---

(١) هندكوش أو هندوكوش هى تسمية للجبال الممتدة من هضبة البـامير فـى وسط أسيا متجه نحو الجنوب الغربى وهى تحازى نهر السند من الجهة الغربية وقد أطلق الهنود عليها هذا الاسم لشدتها ووعورة مسالكها وهـى تعنـى فـى لغتهـم "قاتل الهنـود" لأن العبيد والجوارى الذين يؤتى بهم من بلاد الهند يموت أكثرهم من شـدة البرد وكثرة الثلج وهـى مسيرة يوم كامل: راجع أن بطوطة : الرحلة: ص٤٠٤.

(٢) حسن إبراهيم حسـن : نفس المرجـع : ص٨٣ : ص٨٦ ، سـعد الحميدى نفس المرجع: ص١٣.

(٣) العتبـى : المصـدر السـابق : جـ١ : ص٥٨ ، ص٧٦ ، ص٨٥ ومـا بعدهـا السادانى: تـاريخ المسلمين:جـ١:ص٨٤ ومابعدهـا، صـام عبدالرؤوف الدول الإسـلامية: ص١١٨-١١٩.

Habib: Sultan Mahmud of Ghaznin, New Delhi. 1997. P. 14.

وأرغم الملك الهندى على دفع الجزية وكان من نتائج انتصارات سبكتكين هذه ازدياد قوته وهيبته، فدانت له مناطق الخلج والأفغان(١) فى إقليم هندكوش.

عهد سبكتكين قبل موته إلى ابنــه إسماعيل ولكنـه كـان ضعيـف الـرأى والتدبير، فعارضه أخوه محمود وكان أكبر منه سناً وأعلن أحقيته فـى الحكم ونشبت بينهم حروب انتهت بهزيمة إسماعيل وأسره وتوليـه محمـود الغزنـوى حكم الدولة التى خلفها أبوه سبكتكين ويتميز عهد محمود الغزنـوى (٣٩٢هـ- ٤٢٠هـ) (١٠٠١م - ١٠٢٩م) بالجهـاد الإسـلامى فـى إقليم الهنـد واعتراف الخلافة العباسية به سلطاناً مستقلاً ومنحه لقب أمين الدولة(٢)اعترافاً بزعامته للركن الأيمن من المشرق الإسلامى.

ويذكر براون(٣) أن أعمال محمود الغزنوى تدل علـى عبقريـة حربية وسياسيةفائقة فقد استطاع أن يغلـب السـامانين علىأمرهـم وأن يغـزو الهنـد وينازل الهنود فى أثنتى عشر معركة فى مدة أربع وعشرين سنة (٣٩٢هـ - ٤١٥هـ) (١٠٠١م - ١٠٢٤م) وأن يزيد حدود مملكته التىورثها حتى امتدت

---

(١) العتبـى: المصـدر السـابق: حـ١: ص٥٨، ص٧٦، ٨٥، ومـا بعدهـا ، السـاداتى تاريخ المسلمين فى شبة القارة الهندية : حـ١: ص٨٤ ومـا بعدهـا ، عصـام عبـد الـرؤوف الدولة الإسلامية المستقلة: ص١١٨: ص١١٩.

Morel : "Ashort historry of India" (London 1890) .
Habib: Sultan Mahmud of Ghaznin P. 14.

(٢) الكرديـزى: (ابـى سـعيد عبـد الحـى الكرديـزى) زيـن الأخبـار : ص٧٠، حسـن إبراهيم حسن: نفس المرجع : حـ٣: ص٨٧.

(٣) بـراون (أدوارد) تـاريخ الأدب فـى إيـران مـن الفردوسـى إلـى السـعدى: ترجمـة إبراهيم الشواربى: مكتبة السعادة : القاهرة سنة ١٩٥٤: ص١١.

من بخارى وسمرقند إلى كجرات وقنوج وشملت فيما شملتة أفغانستان وما وراء النهر وخراسان وطبرستان وسجستان وكشمير وجزء كبيراً من الولايات الواقعة فى الشمال الغربى من الهند.

اتخذ محمود الغزنوى لقب "سلطان"(١) ولم يكتف السلطان محمود بما استولى عليه من أقاليم ، بل عمل على توسيع

(١) السلطان لفظ عام يراد به الحاكم فى أى شكل من الأشكال خليفة، أمام، ملك وهو فى اللغة العربية جمع مفرده سليط بمعنى الحدة وفى القرآن الكريم يقصد به" الحُجه والبرهان" ورد فى أيات كثيرة من القرآن الكريم قال تعالى: {فانفذوا لاتنفذون إلا بسلطان} سورة الرحمن آية ٣٣. هذا ولم يتخذ حكام غزنة السابقون لعهد محمود الغزنوى لقب سلطان، بل كان الواحد منهم يكتفى بلقب أمير وأول من حمل ذلك اللقب هو محمود الغزنوى (٣٨٧هـ - ٤٢٠هـ) ، هذا وقد شاع لقب سلطان فى مؤلفات المؤرخين المسلمين: راجع : القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على القلقشندى) : صبح الأعش فى صناعة الإنشا: حـ٥: ص٤٤٨، الثعالبى: (أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى النيسابورى) يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر تحقيق محى الدين عبد الحميد نشر: القاهرة حـ٤: ص٣٩٠، البيرونى: (أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى الخوارزمى) تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرزولة: نشر دائرة المعارف العثمانية: ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م حيدر أباد الدكن، الهند: ص٨٥، القانون المسعودى: نشر دائرة المعارف العثمانية: حيدر أباد: الهند : ١٣٧٣هـ - ١٩٥٤م سعد الحميدى : نفس المرجع ص٦٤ ، السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب تقى الدين على بن عبد الكافى) طبقات الشافعية الكبرى: طبعة القاهرة : ١٩٦٧: تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ، ومحمود محمد الطنانى: حـ٤: ص١٦، منهاج الدين عثمان : طبقات ناصرى: حـ١: ص٢٢٨.

رقعة دولته فاستولى على إقليم الرى(١) وبلاد الجبل(٢) وأزال ملك البويهيين هناك ٤٢٠هـ ثم ملك (١٠٢٩)م قزوين(٣) وقلاعها ودان له أمراء هذه البلاد بالولاء والطاعة(٤) هذا ولقد تأكدت

---

(١) الرى بفتح أوله وتشديد ثانيه ... وهى مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكهه والخيرات وهى محط الحاج على طريق السابلة وهى قصبة بلاد الجبل وبينها وبين نيسابور مائة وستون فرسخاً وهى فى الإقليم الرابع وهى مدينة عجيبة مبنية بالأجر المنمق: راجع ياقوت: معجم البلدان : حـ٣: ص١١٦، ابن بطوطة: الرحلة : ص٢٤٤ هامش رقم ١٧٣.

(٢) بلاد الجبل : هى البلاد الجبلية الواسعة التى سماها اليونان ميدية (مازى) الممتدة من سهول العراق والجزيرة فى الغرب إلى فارس فى الشرق وقد سماها البُلدانيون العرب إقليم الجبال أو بلاد الجبل: راجع لسترنج بلدان الخلافة الشرقية: طبعة بيروت سنة ١٩٨٥: ص٢٢٠ ويقال هى تعنى إقليم قوهستان من أعمال خراسان وإنما سمى بذلك لطبيعة أرضه فالجبال فيه تتناظر السهول فى إقليم سجستان: الأصطخرى: المسالك والممالك: ص٢٧٣ – ص٢٧٤، ابن حوقل : صورة الأرض : ص٣٢٤ – ص٣٢٥ . وقد كتبها العرب كوهستان بالقاف وهو كوهستان بالفارسية ومعنى كوه (الجبل) ويقال لها تهستان.

(٣) قزوين بالفتح ثم السكون وكسر الواو وياء مثناه من تحت ساكنه ونون وهى مدينة مشهورة بينها وبين الرى سبعة وعشرون فرسخاً وهى فى الأقليم الرابع وكان الحجاج بن يوسف الثقفى قد أغزى ابنه محمد إلى بلاد الديلم فنزل قزوين وبنى مسجداً وكتب اسمه عليه وهو المسجد الذى على باب دار بنى الجُنيدْ ويسمى مسجد الثور، فلم يزل قائماً حتى بنى الرشيد المسجد الجامع ، راجع ياقوت: معجم البلدان: حـ٤: ص٣٤٢ – ٣٤٣.

(٤) الساداتى: نفس المرجع: حـ١: ص٨٧.

رغبة السلطان محمود فى الجهاد ونشر الإسلام فى الهند، أنه فرض على نفسه الجهاد الدينى.

فقد دفعته عاطفته الدينية إلى الجهاد فى سبيل الله، كما دفعه إحساسه بالذنب من قتال المسلمين وهو القتال الذى فرضته عليه الظروف كضرورة لتقوية دولته وتأمين أطرافها - فاتجه إلى قتال الكفار ونشر الإسلام فى بلادهم فتوالت غزواته على بلاد الهند التى أقسم أن يغزوها كل عام(١) فأفتتح منها بلاداً واسعة كان صادق النية فى إعلاء كلمة الله تعالى: {ما خلت سنة من سنى حكمه عن غزوة أو سفرة}(٢).

ولعل فيما سجله التاريخ عن أعماله الحربية تفسيراً عن رغبته فى الجهاد، فالمتتبع للغزوات(٣) التى قام بها ذلك السلطان فى الهند يلمس فى مقدمة أسباب تلك الغزوات ، رغبة صادقة فى الجهاد. ولمحمود بن سبكتكين عبارة مشهورة قالها عندما أراد كبار ملوك الهند اقتداء بعض أصنامهم المقدسة لديهم من قبضته فقال "لأن أكون محطم الأصنام خير أن أكون بائعاً لها".

---

(١) عن غزوات محمود الغزنوى: فى الهند راجع : ابن الأثير : الكامل : أحداث ٣١٢هـ، ٣٩٥هـ، ٣٩٧هـ، ٤٠٠هـ، ٤٠١هـ، ٤٠٦هـ، ٤٠٧هـ وما بعدها.

Munshi : "The Struggle for Empire" (Bombay 1969 . P .6).

(٢) ابن العماد الحنبلى (عبد الحى بن العماد أبو الفلاح المورخ الفقيه) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب: نشر المكتب التجارى للطباعة بيروت: لبنان ١٩٧٥ م حـ٣: ص٢٢٠، ابن خلكان: وفيات الأعيان: نشر دارصادر بيروت: حـ٥: ص١٨٧.

(٣) سعد الحميدى: نفس المرجع : ص١٤.

فهذه العبارة تدل على مدى رسوخ فكرة الجهاد فى نفس السلطان محمود وإيمانه بقيمتها حتى لقبه المؤرخ الهندوكى براسداً بالمجاهد الغازى[١].

وهكذا اصطبغت حملات السلطان محمود بصبغة الجهاد الدينى وكان محمود الغزنوى يملك من موقع غزنة الاستراتيجى على قمة الهضبة المشرفة على سهول الهند الشمالية[٢] مزايا حربية مكنته من إنجاح غزواته المتوالية على الهند وجعلته مطلق التصرف فى توجيه هذه الحملات[٣].

ففى سنة ٣٩٥هـ - ١٠٠٤ قصد إقليم الملتان وهو مركز مشهور للحجاج الهنود[٤] جنوبى البنجاب[٥] ، فاستولى على مدينة بهاطية[٦]

(١) الساداتى : نفس المرجع : حـ١: ص٧٩.

(٢) عصام عبد الرؤوف: الدول الإسلامية المستقلة: ص١٢٠.

(٣) حسن إبراهيم حسن: نفس المرجع : حـ٣: ص٩٠، الساداتى : نفس المرجع حـ١ ص٨٨، عصام عبد الرؤوف: نفس المرجع والصفحة.

Encyclopaedia of Islam, 11, P. 155 : S. Lane - Pool : Medieval India under Mohammedan Rule. P. 18.

(٤) يقول الأصطخرى فى كتابه المسالك والممالك عند حديثه عن مدينة الملتان أن بها صنم يعظمه وتحج إليه من أقصى بلدانها. وتتقرب إلى هذا الصنم فى كل سنة بمال عظيم لينفق على بيت الصنم والعاكفين عليه: راجع الأصطخرى: المسالك والممالك: ص١٠٣.

عن البنجاب : راجع : ص٥ من البحث هامش رقم ٨ .

(٥)راجع ابن بطوطة : الرحلة : ص٤١١.

(٦) بهاطية: تقع جنوب البنجاب وهىمدينةحصينة عالية السور يحيط بها خندق عظيم. عصام عبد الرؤوف: ص١٢١.

وانتصر على صاحبها بحيراً ونشر الإسلام فيها وولى عليها أحد رجاله وعهد إليه تعليم أهلها أصول الدين الحنيف(١).

وفى العام التالى قصد محمود الغزنوى مدينة الملتان نفسها واستولى عليها بعد أن لاز صاحبها بالفرار(٢).

ولم تزل غزوات محمود الغزنوى تتوالىفىكل عـــام علىبلاد الهند، حتى استولىعلىأقليم البنجاب كله(٣) وهزم من أعترضه من ملوك الهند وراجتهم وقضى على تحالفهم، فاستولى ٤١٦هـ - ١٠٢٥م على سومنات(٤) صنم الهند العظيم أو "البد العظيم" وهو أعظم اصنامهم يحجون إليه كل ليلة

---

(١) ابن الأثير: الكامل: أحداث ٣٩٥هـ، العتبى : تاريخ يمينى ، حـ١: ص٦٦ - ص٧٠، حسن إبراهيم حسن: نفس المرجع: حـ٣: ص٩٠، وعصام عبد الرؤوف : نفس المرجع: ص١٢١.

(٢) ابن الأثير: نفس المصدر : أحداث سنة ٣٩٦هـ.

(٣) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام: حـ٣: ص٩٠.

راجع عن غزوات السلطان محمود فى الهند أيضاً :

Cambridge : History of india . Vol. 11 .P. 20 .27 .

(٤) البد منارة عظيمة يتخذ فى بناء لهم فيه صنم ويكون الصنم داخل المنارة أيضاً وكل شئ أعظموه عن طريق العبادة فهو عندهم "بُد" والصنم بُد أيضاً أما "سومنات" فهى مدينة عظيمة تنسب إلى الصنم وتقع فى إقليم كوجرات الحالى على الساحل الشرقى فى جنوب شبه جزيرة هذا الإقليم بالقرب من المدينة المعروفة حالياً بهذا الأسم "Dio" وقد تغنى بها شعراء السلطان محمود الغزنوى بهذا النصر. راجع سعد الحميدى: حضارة الدولة الغزنوية : ص١٥ هامش رقم٥، عصام عبد الرؤوف: بلاد الهند فى العصر الإسلامى : ص٢٥.

Mumshi : The Struggle for Empire . P . 19

خسوف وهم يعتقدون أن هذا الصنم يحى ويميت وأنه إذا شاء ابرأ من جميع العلل.

هذا ولم يهاجم السلطان محمود الغزنوى سومنات لتدمير صنم أو الاستيلاء على ما فيه من أموال كما يدعى بعض المؤرخين ولكن لأن سومنات كان أخطر مراكز المقاومة والعدوان الهندوكى فى وجه الزحف الإسلامى([1]).

والحق أن محمود الغزنوى كان من خبرة قادة وزعماء الإسلام وبلغ فى فتوحه إلى حيث لم تبلغه فى الإسلام راية وأقام بدلاً من بيوت الأصنام مساجد الإسلام ، ومن مشاهد البهتان معاهد التوحيد والإيمان.

وفى السنة التى توفى فيها السلطان محمود الغزنوى (٤٢١هـ - ١٠٢٤هـ) افتتح نائبه ينالتكين مدينة "ترس"([2]) والتى كانت تعد من أعظم مدن الهند([3]).

يقول ولسلى هيج نقلاً عن حسن إبراهيم حسن([4]) " يمكن القول بأن محمود الغزنوى يعد - إلى حد ما - سلطاناً هندياً خالصاً ، فقد فتح فى خريف حياته إقليم البنجاب ، ونشر الإسلام فى ربوع الهند، وأفتتح طريقاً سلكه بعده كثيرون، وقنع خلفاؤه من بعدان جردوا من أملاكهم فى فارس

(١) عصام عبد الرؤوف: نفس المرجع : ص١٢٧.

(٢) ترس تقع فى ولاية الكنج وهى مدينة طولها فرسخان وعرضها كذلك وبها أنهار كثيرة: راجع البيهقى: أبو الفضل : تاريخ البيهقى ص٤٢٦.

(٣) تاريخ البيهقى : ص٤٢٦ - ٤٢٧.

(٤) حسن إبراهيم حسن: نفس المرجع : ص٩٤.

وأفغانستان وبلاد ما وراء النهر، بحكم إقليم البنجاب وكونوا أسرة هندية خالصة * .

وعلى الرغم من أنشغال السلطان مسعود الأول (٤٢١هـ - ٤٣٢هـ) - (١٠٢٤م - ١٠٣٥م) بن محمود الغزنوى - بقمع الفتنة التى أثارها التركمان فى الولايات الداخلية فى خراسان والرى وأقليم الجبل، فإن ذلك لم يمنع من قيام ذلك السلطان ببعض الغزوات التى حفظت للدولة الغزنوية هيبتها(١)، فدانت لهم ملوك الهند بالولاء والطاعة ، يقول ستانلى لين بول(٢) أن حملات الغزنوين فى بلاد الهند واتخاذهم مدينة لاهور مقراً لهم، يمكن أعتبارها بدء حكم المسلمين الحقيقى فى بلاد الهند فقد مهدت الدولة الغزنوية فى لاهور السبيل أمام محمد بن بسام الغورى وخلفائه الذين تولوا سلطنة دلهى فى نشر نفوذ المسلمين فى كافة أرجاء بلاد الهند.

وفى الوقت الذى كان فيه الغزنويون يمدون سلطانهم فى الهند كان ملكهم فى الشرق تهدده قوتان خطيرتان، هما قبائل الغز التركية والسلاجقه(٣) وكان هؤلاء قد وصلوا فى هجرتهم من مساكنهم فى الهضاب

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ: حوادث ٤٢٩هـ وما بعدها، ولم يستطيع السلطان مسعود أن يتقاعس عن مواصلة جهوده فى نشر الإسلام فى الهند فزحف بجيشه سنة ٤٢٩هـ إلى قلعة هانس واستولى عليها وكانت تسمى بالقلعة العذراء لأن أحداً لم يستطيع فتحها من قبل واستولى على هذا الحصن .

(٢) حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق: حـ٣: ص٩٤، انتشار الإسلام فى الهند: بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة : مايو ١٩٤٤.

(٣) اجتهد المؤرخون فى تفصيل أخبارهم فظهرت المراجع والمصادر والأبحاث المتعددة لتؤرخ لهم والسلاجقة مجموعة من القبائل التركية التى عرفت باسم الغز وكانت

الغربية من بحيرة خوارزم والهضاب المحيطة بنهرى سيحون وجيحون إلى إقليم خراسان. فأما الغز فقد أحلاهم مسعود بن محمود عن إقليم خراسان بعد حروب استمرت نحو سنتين(١) (٤٢٩هـ – ٤٣١هـ) – (١٠٣٧م – ١٠٣٩م) أما السلاجقة الذين أشتد خطرهم بعد موت السلطان محمود الغزنوى فقد انتهبوا مدينة هراة(٢) (٤٢٢هـ – ١٠٣٠م) وبدأوا منذ سنة ٤٢٥هـ

تسكن الهضاب القريبة من بحر خوارزم (أرال) وتنزل بالقرب من السواحل الشرقية لبحر قزوين والهضاب المحيطة بنهرى سيحون وجيحون وقد أطلق على هذه القبائل التركية اسم السلاجقة، نسبة إلى رئسيها "سلجوق بن دقماق ويبدو أنه هو الذى جمع شملها ووحدها تحت زعامته. ثم قادها ونزل بها إلى أرض الإسلام فأسلمت معه ونسبت إليه وخضعت لحكم أبنائه وأحفادة من بعده" عن السلاحقة راجع أبو الفدا: المختصر فى أخبار البشر حـ٤: ص٦٣،فامبرى أرمنيوس : تاريخ بخارى منذ أقدم العصور حتى الأن ترجمة : أحمد محمود السادتى، تقديم ومراجعة يحى الخشاب: مطبعة شركة الأعلانات القاهرة: ص١٢٧ – ١٢٩، بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية : ص٢٧١ ترجمة عادل زعتير: طبع بيروت سنة ١٩٧٧، ستانلى ليه بول: الدوله الإسلامية: حـ١: ص١٣، عبد النعيم حسنين : سلاجقة العراق وإيران. محمد عبد العظيم الصوفى : طغرلبك تأسيس الدولة السلجوقية رسالة ماجستير غير منشورة آداب الزقازيق ١٩٩١ م . Ency of Islam Art Saljuk

(١) حسن إبراهيم حسن: نفس المرجع: حـ٣: ص٩٨.

(٢) هراة بالفتح مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مُدن خراسان وهى كثيرة البساتين والخيرات محشوة بالعلماء ومملوءة بأهل الفضل والثراء وتشتهر ضواحيها بالزبيب الطائفى الممتاز وقد خربها التتار وأول حدودها ما يلى العراق وأخر حدودها ما يلى الهند، طخارستان وغزنة وسجستان، راجع القزوينى : أثار البلاد وأخبار العباد : ص٢٨١، ياقوت : معجم البلدان : حـ٥:ص٣٩٦:ابن بطوطة: الرحلة: ص١٩٦ هامش (١) ابن حوقل: صورة الأرض: ص٣٥٩.

(١٠٣٣) م يشنون إغارات منظمة علىخراسان([1]) وعلى الرغم من هزيمتهم على يد السلطان مسعود، فإنه عقد معهم صلحاً لإنشغاله بغزو الهند([2]) وقد استفاد السلاجقة من هذا الصلح ، إذ كان فرصة طيبة ساعدتهم على تدعيم مركزهم والاستعداد لإقامة دولتهم. ولما حاول السلطان مسعود إجلائهم ٤٢٩هـ- ١٠٣٧ م فإنهم ألحقوا به الهزيمة وأصبحوا بعدها أعظم قوة فى خراسان فاحتلوا مدينة نيسابور وأعلنوا قيام دولتهم([3]).

ولما حاول السلطان مسعود الغزنوى استعادة الأقاليم التى استولى عليها السلاجقة فإن جهوده باءت بالفشل وحلت به هزيمة كبيرة سنة (٤٣١هـ - ١٠٣٩م) عند دانداقان([4]) ولقد أنهت هذه الموقعة الفاصلة الصراع بين الغزنويين والسلاجقة، وبها أنحسرت الدولة الغزنوية عن جميع بلاد خراسان.

---

(١) البيهقى: نفس المصدر: ص٣٨١ - ص٣٨٥ - ص٥١٨، ص٥٢٢ ، ص٥٩٠، ص٦٠٠، ابن خلدون: العبر: حـ٤: ص٣٨١- ص٣٨٢ طبعة ١٣٨٤هـ.

(٢) على الرغم من غارات السلاجقة المتكررة على أملاك الدولة الغزنوية فى خراسان فإن السلطان مسعود لم يهتم أول الأمر وعقد معهم حلفاً حتى يتفرغ لغزو الهند، فاستطاع أن يفتح قلعة هانس راجع البيهقى: نفس المصدر ص٥٨٠.

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ : أحداث ٤٢٩هـ ص إلى حوادث ٤٣٤هـ ، حسن محمود ، أحمد إبراهيم الشريف : العالم الإسلامى فى العصر العباسى: ص٥٤٢ - ص٥٥٢ - ص٥٥٦، عصام عبد الرؤوف : الدول الإسلامية المستقلة فى المشرق: ص١٥٦ وما بعدها.

(٤) دَنْدَانَقَانُ: بفتح أوله، وسكون ثانيه ودال أخرى، ونون مفتوحة وقاف وأخرة نون وهى على عشر فراسخ من مرو خربها الأتراك ، المعروفة بالْغُزِيْه، فى شوال سنة ٥٥٣هـ وقتلوا بعض أهلها وتفرق عنها الباقون لأن عسكر خراسان كان قد دخلها وتحصن بها ؛ : ياقوت: معجم البلدان: حـ٢: ص٤٧٧.

هذا ولقد ضاعت أملاك الغزنويين فى الشرق أيضاً على أيدى خانات التركستان، كما قضى الغوريون[١] على نفوذ الغزنويين فى بلاد الأفغان وحلوا محلهم. وأتجه الغوريون إلى بلاد الهند ليحافظوا على أملاك المسلمين فيها، وبذا انتقلت رعاية الثغر الهندى من يد الدولة الغزنوية إلى يد الدولة الغورية[٢].

وعلىالرغم من أن الدولة الغزنويةكانت تركية،وحققت أول انتصار لها على العنصر الإيرانى وهو بنى بويه ثم أكمل الأتراك السلاجقة الجولة بالقضاء نهائياً على بنى بوية. فإن الدولة الغزنوية تعد كذلك دولة هندية تعبر عن رغبات الهنود المسلمين فى نيل الاستقلال الذاتى اسوة بغيرهم من الشعوب الإسلامية . وكان هؤلاء الهنود المسلمون هم عدة الدولة فى الغزو والفتح وكان منهم أغلب الوزراء والكتاب والموظفين،كما ظهرت

---

(١) ينتسب الغوريون: إلى غور فى جبال هندكوش ويطلق على قاعدتها مدينة فَيْروزكوة وجدهم يدعى الحسين الغورى عامل الغزنويين على بلاد الغور وتقع بين هراه وغزنة وهى بلاد باردة موحشة: راجع ياقوت: نفس المصدر: جـ٤: ص٢١٨، عن الغور راجع : ابن خلدون : جـ٤: ص٣٩٨، ابن الأثير الكامل : حوادث ٤٣٢هـ - ٥٤٧هـ، منهاج الدين عثمان: طبقات ناصرى : جـ١: ص٢٤٣، عصام عبد الرؤوف : نفس المرجع: ص١٤٥ - ص١٥١، هذا وتعتبر فترة نهاية الدولة الغزنوية وقيام الدولة الغورية وتحديد تواريخهم من الفترات المبهمة فى تاريخ المسلمين وتتضارب فيه أقوال المؤرخين وقد صور ابن الأثير هذا الخلاف فى حديثه عن نهاية ملك الغزنويين و"بداية أمر الغور فيه خلاف لم يحسم بعد" . ولا يزال أمام الباحثين المجال للإجتهاد والدراسة.

(٢) الساداتى: نفس المرجع : جـ١: ص١١٢:، وحسن إبراهيم حسن : نفس المرجع جـ٣: ص١٠٢: عصام عبد الرؤوف : نفس المرجع: ص١٥١.

اللغةالأورديةوهىمزيج من الفارسية والسنسكرتية الهندية على عهد محمود الغزنوى وهى اللغة التى أمست لغة الهند الإسلامية(1).

ولقد حلت الدولة الغورية محل الدولة الغزنوية فى الثغر الهندى، وظلت هذه الدولة تقوم بدورها فى مد نفوذ العالم الإسلامى وتمكينه فى الهند حتى قدم المغول فاسقطوها ثم قام المغول بأمر الثغر الهندى بعد اعتناقهم الإسلام وعلى أيديهم امتد الإسلام فى الهند وتدعم وكانوا أساس العالم الإسلامى الهندى الذى تمثلة دولة باكستان فى الوقت الحاضر.

ومما لا شك فيه أن الإسلام انتشر بين الهنود نتيجة غزوات سلاطين بنى سبكتكين(2) كما سبق أن ذكرنا.

فسارت حركة نشر الإسلام فى الهند متسقة مع الرغبة فى التوسع وبسط السلطان والنفوذ السياسى فى أقاليم السند والبنجاب.

ففى مجال الدعوة إلى الإسلام ، حقق الغزنويون انتصارات تتجلى أهميتها فى نشر الإسلام فى آفاق جديدة(3) وقد اقتفى السطان محمود بن

---

(1) الساداتى: نفس المرجع: جـ1 ص24 - ص26.

(2) لم تتوقف غزوات الغزنويين على بلاد الهند بعد محمود بن سبكتكين وولده مسعود فقد انتهج السلطان مودود بن مسعود 432هـ - 441هـ سياسة الجهاد فى الهند كما أحرز إبراهيم بن مسعود (451هـ - 481هـ) عدداً من الأنتصارات لصالح الدعوة الإسلامية كذلك واصل أبناؤه من بعده نفس السياسة حتىبلغت رايتهم إقليم جوجرات فى الأجزاء الوسطى من الكنج: راجع البيهقى: ص426 - ص427، عصام عبد الرؤوف : نفس المرجع: ص130،

Habib: Sultan Mahmud of Gaznin: P. 104.

(3) البيهقى : نفس المصدر والصفحة، Habib. op . cit.

سبكتكين منهج الفاتحين المسلمين فى الدعوة بالتبليغ أولاً(١)، ويذكر مؤلف طبقات ناصرى(٢) أنه كان يدعو الهنود للمناظرة فإن كان دينهم حقاً لم يجادلهم فيه وإلا فعليهم اعتناق الإسلام لأنه دين الحق، فمن أمن تركه ومن كفر حاربه".

ونتيجة لجهود السلطان محمود بن سبكتكين فى نشر الإسلام فى ربوع الهند أن أعتنق الإسلام أحد ملوك الهند ويدعى هردتا وتقدم إلى السلطان محمود الغزنوى فى عشرة آلاف رجل وأعلنوا رغبتهم فى التحول إلى الإسلام ونبذ عبادة الأوثان(٣).

هذا وقد اتخذ محمود الغزنوى وخلفاؤه من بعده سياسة كانت بعيدة الأثر فى انتشار الإسلام بين الهنود، فقد أسند الغزنويون المناصب العسكرية والمدنية للهنود، فكان نصف جيشهم من الهنود واستخدم فى غير بلاد الهند، فتولى أمر الهند رجل من مخلصى الهنود اسمه "تلك" نشأ فى بلاط السلطان محمود بن سبكتكين وساهم فى إسلام كثير من الهنود من نواحى كتوروبيرون فى الهند واشتغل مترجماً فى الديوان عن أحوال الهنود ثم علا شأنه فى عهد السلطان مسعود الأول وأسندت إليه قيادة الهنود، ثم اختاره السلطان لإخضاع أحمد ينالتكين فأسند إليه ولاية الهند(٤) كما استعان الغزنويون بالشيخ الجليل أبى القاسم أحمد بن الحسن الميمندى – نسبة إلى ميمند قرية من قرى الهند –

---

(١) سعد الحميدى: نفس المرجع : ص١٤.

(٢) منهاج الدين عثمان: طبقات ناصرى: حـ١: ص٢٢٩.

(٣) ابن الأثير: الكامل : حوادث ص ٤٠٩.

(٤) حسن محمود : الإسلام فى آسيا الوسطى ص ٢٥١.

حيث ولى الوزارة فى عهد السلطان محمود الغزنوى[1]. كذلك تولى الوزارة للسلطان مسعود الأول واتخذه أميناً لسره ومشورته وكان يدعوه بلقب الخواجة الكبير أو الأستاذ وفوض إليه تدبير أعماله، كذلك استعان السلطان مسعود بعبد الرازق أحمد الميمندى وكان صنو أبيه فى الكفاءة السياسة، فعمل كاتباً للسطان مسعود الأول كما رافق السلطان فى كثير من رحلاته وغزواته.

وقد لقى الإسلام ترحيباً كبيراً من الطوائف الفقيرة الذين كان حكامهم الأريون ينبذونهم ويحتقرونهم وينقصون من شأنهم فأعلى الإسلام دين المساواة منزلتهم ورفع شأنهم[2].

ولما كان الغزنويون سنين متشددين، فقد اعتنق الهنود الإسلام على المذهب السنى وحذو حذو غزاتهم فى تعصبهم وتزمتهم فسادت فرق مذهب أهل السنة والجماعة فى معظم أجزاء الدولة الغزنوية مثل غزنة وبُسْت وخراسان وبلاد الجبل[3] بالإضافة إلى بلاد الهند الغزنوية.

هذا وقد أنتشر المذهب الشيعى فى أجزاء متعددة من البلاد الغزنوية فى الهند بالإضافة إلى خراسان خاصة مدن "نيسابور"، فأهل مدينة قم بأصفهان

---

(١) عن أسرة الميمندى راجع البيهقى: نفس المصدر: ص٦٣، ص١٦٧، ص١٥٨، ص٣٧١، ص٥٦١، ص٧٢٤.

(٢) أرنولد (توماس) الدعوة إلى الإسلام: ص٣١٤.

(٣) يذكر بروكلمان فى كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية أن مذهب أهل السنة كان يلائم طبيعة الأتراك البسيطة لوضوح تلك المذهب ورصانته، راجع بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية : ص٢٧٢، ابن حوقل: صورة الأرض: ص٣٦٨، عصام عبد الرؤوف: نفس المرجع ص١٣٢.

شيعة خلص(١) ويذكر المقدسى أنهم كانوا لا يصلون فى الجامع حتى أرغمهم الوالى على ذلك(٢).

على أنه كان من أخطر فرق الشيعة الإسماعلية فرقة الباطنية التى انتشرت فى إقليم الجبل وكان لها عدد من الدعاة فى الرى، لكن السلطان محمود الغزنوى تعقبهم وحاربهم وقتل من ينتمى إليهم(٣).. ومع ذلك تسربت بعض طوائفهم إلى بلاد الهند وكانت لهم آرائهم وأفكارهم الدينية التى أثرت فى الفكر الإسلامى. ومنهم طائفة الإسماعلية التى انتشرت فى إقليم الملتان وكانوا يدعون للخليفة الفاطمى وقد قضت عليهم جيوش الدولة الغزنوية(٤).

كذلك وجه الفاطميون فى مصر إلى السلطان محمود داعية يدعو إلى الدخول فى المذهب الإسماعيلى فأيقن محمود بطلان ما دعى إليه الداعية فأمر بقتله وأهدى بغلته التى كان يركبها إلى القاضى أبى منصور. شيخ مدينة هراة – وقال كان يركبها رأس الملحدين فليركبها رأس الموحدين(٥).

وإلى جانب طائفة الشيعة الإسماعلية كثرت أيضاً فى بلاد الهند فرق الخوارج حيث انتشروا فى نواحى هراة وسجستان ويعرفون باسم الشراة(٦).

---

(١) سعد الحميدى : نفس المرجع : ص١٤٩.

(٢) المقدسى : (محمد بن أحمد بن ابى بكر) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم : ١٣٢٧هـ - ١٩٠٩هـ : ص٣٩٤.

(٣) العتبى: تاريخ يمينى: حـ٢: ص٤٣٨.

(٤) العتبى:المصدر السابق: حـ٢: ص٤٨١، سعد الحميدى: نفس المرجع: ص١٠٥.

(٥) السبكى : جـ ٤ : ص١٦.

Hitti : History of The Arabes . P . 376 - 377

(٦) ابن حوقل : صورة الأرض : ص٢٨١.

وكان التنافس على أشده بين مذهبى أهل السنة المذهب الشافعى والمذهب الحنفى ولقد دان أهل غزنة بمذهب أبى حنيفة ومرجع ذلك هو أن أبا حنيفة كان من أصل افغانى(١).

ولقد كان لقيام الدول المستقلة فى شرق الدولة الإسلامية أثره فى أزدهار الحياة الثقافية فيها فقد نافست حواضر هذه الدول بغداد وأصبح لهذه الحواضر شخصية متميزة فى علمها وآدابها، تعمل على تجميل نفسها بالعلماء والأدباء وتعتز بهم وتيسر لهم سبل الحياة الهنيئة(٢).

الجدير بالذكر أن السلطان محمود الغزنوى كان على رأس سلاطين غزنة الذين عنوا بتشجيع الحركة الدينية والعلمية والأدبية(٣) ولقد سعى أهل المذاهب الدينية والفقهية فى التقرب إلى السلطان محمود الغزنوى لاعتقادهم(٤) أنه إذا اعتنق السلطان مذهباً ساد فى الأقاليم الواسعة(٥) التى فتحها هذا ولم يأل السلطان محمود الغزنوى جهداً فى تشجيع الحركة العلمية فى بلاده فزين غزنة عاصمة ملكة بأجمل ما حصل عليه من مغانم الهند وأعاد تشييد مسجدها(٦) الجامع على أحسن صورة وتسميه المولفات الحديثة

(١) أبو العنين(محمد فهمى):أفغانستان بين الأمس واليوم طبعةمصر:١٩٦٩: ص٩.
(٢) جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى المشرق ص٢٠٨.
(٣) سعيد أحمد مولانا: مسلمانو كاعروج وزوال: نشر مكتبة ندوة المصنفين، دهلى/ ١٩٤٧ نقلاً عن سعد الحميدى: حضارة الدولة الغزنوية: ص١٧٢: هامش رقم ٢.
(٤) عصام عبد الرؤوف: نفس المرجع ص١٣٥.
(٥) ابن الأثير: الكامل: حـ٩: ص١٥٠ – ص١٥١، المرجع السابق: ص١٣٥.
(٦) العتبى: نفس المصدر : حـ٢: ص٢٩٧.

مسجد عروس[١] الفلك. ويذكر[٢] العتبى أنه يضاهى بجماله مسجد دمشق بل أنه أرقىمنه وأضاف إلىالمسجد مدرسة تشمل حجراتها من بساط الأرض إلى سقوفها على تصانيف الأئمة الماضيين من علوم الأولين والآخرين، منقوله من خزائن الملوك السابقين يتناولها فقهاء وعلماء غزنة بالتدريس[٣] ومن الجدير بالذكر أنه قد تضافرت عدة عوامل ساعدت على إنعاش الحركة الثقافية فى البلاد الغزنوية سواء فى ذلك السلاطين أوأعيان الرعية من الأمراء والأغنياء ومحبى العلم والعلماء، وقد تمخضت تلك المجهودات على مختلف مستوياتها، عن تشكيل الحياة العلمية فى البلاد الغزنوية[٤].

وقد حرص سلاطين الغزنويين على أغراء العلماء بارتياد مدينة غزنة والإقامة بها. وكان هذا من أهم الوسائل الدعائية لرفع قدر دولتهم ذلك أن العالم المشهور ترحل إليه إعداد كبيرة من طلاب العلم والمعرفة من جميع أطراف الدولة الإسلامية المترامية الأطراف[٥].

ولقد كان السلطان محمود نفسه مولعاً بعلم الحديث وكان يسمع الحديث من الشيوخ بين يديه وهو يسمع ويستفسر[٦] الأحاديث وبلغ من حرص

(١) أبو العينين: نفس المرجع: ص٣٢٢، سعد الحميدى: نفس المرجع: ص٢٢٧.

(٢) العتبى: نفس المصدر: حـ٢: ص٢٩٧.

(٣) العتبى: نفس المصدر : حـ٢: ص٢٩١ - ص٢٩٩، عصام عبد الرؤوف: نفس المرجع: ص١٣٥.

(٤) سعد الحميدى : نفس المرجع: ص١٧٢.

(٥) السبكى: طبقات الشافعية : حـ٣: ص٦٥، ٨٩.

(٦) العماد الحنبلى: شذرات الذهب : حـ٣: ص٢٢٠، أحمد أمين: ظهر الإسلام: حـ١: ص٢٨٢.

السلطان محمود على جمع العلماء وتزيين عاصمة ملكه بهم أن بعث فى استقدام كبار العلماء ، يذكر(١) براون أن السلطان محمود أرسل إلى والى خوارزم "بأن قد سمعت أن جماعة من رجال العلم يقومون على خدمة أمير خوارزم مثل فلان وفلان وكل واحد منهم قد أصبح نسيج وحده وبرز فى علمه ومن الواجب عليك أن ترسلهم جميعاً إلى قصرى حتى يتشرفوا بلقائى فنحن نرجوا أن ننتفع بعلمهم وفنهم . ونرجوا أن يحقق لنا أميرخوارزم هذه الرغبة التى أبديناها" ولم يجد أمير خوارزم بداً من تحقيق رغبة السلطان فجمع كبار العلماء لديه وعرض عليهم الأمر فمنهم من قبل ومنهم من أمتنع، فكان ممن قبل العالم المشهور أبوريحان محمد بن أحمد البيرونى (٣٦٢هـ - ٤٤٠هـ) وقضى البيرونى بداية حياته فى خوارزم حيث ولد فيه، ونبع البيرونى فى كثير من العلوم وزار حوالى ٣٩٠هـ بلاط شمس المعالى قابوس بن وشمكير أمير طبرستان الذى عرف بتشجيع العلم وأهله وألف له كتاب "الآثار الباقية عن القرون الخالية"(٢) وكان البيرونى دُرة الدولة الغزنوية كما كان ابن سينا فى الدولة السامانية(٣) .

---

(١) بروان: تاريخ الأدب فى إيران: ص١١٥.

(٢) ابن ابى أصيبعة: (موفق الدين أبو العباس أحمدبن القاسم الخزرجى): عيون الأنباء فى طبقات الأطباء: شرح وتحقيق نزار رضا: نشر مكتبة الحياة : بيروت : لبنان : ص٤٥٩، القفطى: (على بن يوسف بن إبراهيم) أخبار العلماء بأخبار الحكماء مطبعة السعادة : ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م: ص٩٧، على أحمد الشحات: أبو ريحان البيرونى: نشر دار المعارف: مصر: ١٩٦٨م: ص٦٧، بروان: الأدب فى إيران : ص١١٣، سيد على رضا تقوى: أبو الريحان البيرونى: مقالة ، مجلة ما هنامة فكر ونظر: حـ١٢ إدارة

وقد قام البيرونى برحلات إلى بلاد الهند كتب خلالها كتاب عن تاريخ الهند وهو كتاب" تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أم مرزولة وقد نشره المستشرق سخاو" ومن أشهر كتب البيرونى أيضاً كتاب الجماهر فى الجواهر، والتفهيم لأوائل صناعة التنجيم، ورسائل أبى نصر منصور بن عراق إلى البيرونى (رسائل البيرونى) والقانون المسعودى، وصفوة القول أن البيرونى كان من كبار العلماء، الذين ظهروا فى القرنين الرابع والخامس الهجريين فلم يترك علماً لم يؤلف فيه وكان إلى جانب ذلك يؤلف بالعربية لا الفارسية لأن العربية أكثر طواعية للعلم ومصطلحاته من الفارسية(١)..

وفى مجال الابتكارات العلمية كشف البيرونى عن الأرقام الهندية ووضع لها مقارنة بالعربية وكتب فى الفلك عن الأصطرلاب، ودائرة فلك البروج، كما أثبت كروية الأرض وأثبت أنها تدور حول نفسها ، كما أجرى دراسة على الصخور والمعادن وأنواع الحجارة وشرح قيمتها

تحقيقات إسلام، إسلام أباد : باكستان : محرم : ١٤٠٠هـ، راجع : ترجمة البيرونى فى معجم الأدباء لياقوت: حـ١٧: ص١٨٠، عصام عبد الرؤوف : نفس المرجع: ص١٤٢، على الشابى: الأدب الفارس فى العصر الغزنوى.

(٣) أحمد أمين : ظهر الإسلام : حـ١: ص٢٨٧.

(١) جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق : نشر دار الفكر : ص٢١٦، عصام عبد الرؤوف : نفس المرجع: ص١٤٤. ومن الجدير بالذكر أنه على الرغم من ميول البيرونى الشيعية فقد لاقى فى البلاط التركى السنى فى غزنة رعاية كبيرة: راجع عبد الكريم غرايبة: العرب والتراك : ص٤٥- ص٤٦.

التجارية والطبيعية كذلك توصل البيرونى إلى طريقة فى الحساب لاختصار طرق الجمع والضرب المطولة(١).

هذا وقد اجتذب السلطان محمود العلماء والفقهاء إلى عاصمة ملكة غزنة وقرب أهل المذاهب الفقهية إليه فازدهرت الحركة الثقافية فى مراكز عديدة فى الدولة الغزنويه، فكان خلف بن أحمد - والى سجستان - يتمتع بسمعة كبيرة فى اهتمامه بأهل العلم "وقد مُدِحَ على السنه الشعراء والعلماء بما هو سائر وذكره فى الأفاق طائر ومن أبرز أعماله العلمية جمعه" العلماء تفسر وتصنيف القرآن الكريم(٢) هذا وقد اتخذت الدولة الغزنوية من المذهب الحنفى فى القضاء والفتاوى مذهباً رسمياً للدولة، وعلى الرغم من انتشار مذهب الشافعى والدعوة له، فإن فقهاء المذهب الحنفى كانوا هم المقدمون عند السلطان محمود الغزنوى ومن هؤلاء أبو صالح التبانى وهو من أكبر فقهاء المذهب الحنفى ، وقد عرف السلطان قدر ذلك القاضى وأمانته ، فرفع أسرته، لأن التبانين وتلاميذهم من أصدق إتباع مذهب أبى حنيفة ولا يمكن الطعن فيهم بأى حال من الأحوال(٣).

---

(١) سعد الحميدى: نفس المرجع: ص٢٠٥ - ص٢٠٦، ديورانت: ول "قصة الحضارة" عصر الإيمان : الجزء الثانى من المجلد الرابع ترجمة محمد بدران: نشر جامعة الدول العربية، القاهرة: الطبعة الثالثة : سنة ١٩٧٤ حـ١٣: ص١٨٦ ،كراتشوفكسى: "تاريخ الأدب الجغرافى العربى تعريب صلاح الدين عثمان: نشر جامعة الدول العربية: القاهرة : ص٢٤٥ - ٢٥٨، وراجع أيضاً على الشحات: أبو الريحان البيرونى ص١٠٧ - ٢٠٣.

(٢) العتبى: نفس المصدر : حـ١: ص٣٧٥، ياقوت : معجم البلدان : حـ٣: ص١٩٢، بروان : تاريخ الأدب فى إيران : حـ٢: ص٢٠٣.

(٣) البيهقى : تاريخ البيهقى: ص٢٢٥.

كما اتخذ من ابى محمد عبد الله بن الحسين الناصحى ت ٤٤٧هـ وهو حنفى المذهب أيضاً مستشاراً ووكل إليه التدريس والفتوى فى غزنة ثم ولاة منصب قاضى القضاء وذلك لأمانته ونزاهته(١).

ومن أبرز قضاة المذهب الحنفى فى ذلك الوقت صاعد بن محمد الاستوائى "يكنى أبو العلاء، كان استازاً للسطان مسعود الأول فى شبابه وقد انتهت إليه رياسة المذهب الحنفى فى خراسان كلها فى عهد السلطان مسعود(٢).

ومن بين رجال الأدب والفقه المعروفين بالمهارة فى الإنشاء العربى نظماً ونثراً العالم أبو الفتح البُستى نسبه إلى مدينة بُست وقد أخذه "سبكتكين" والد محمود عندما تم له الاستيلاء على مدينة "بُست"(٣) ويعتبر البُستى صاحب الطريقة الأنيقة فى التجنيس الأنيس، البديع التأسيسى وكان يسميه المتشابه، فكان لذلك أديباً وشاعراً وكان مثقفاً واسع المعرفة، فعُدَ من فقهاء المذهب الشافعى وله معرفة فى الطب والفلسفة ويعتبر من حكماء زمانه(٤).

---

(١) العتبى: تاريخ يمينى: حـ٢: ص٣١٦.

(٢) السبكى: طبقات الشافعية: حـ٤: ص١٦.

(٣) براون: الأدب فى إيران : ص١١٤.

(٤) الثعالبى : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى النيسابورى ت(٤٢٩)هـ يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر: حـ٤: ص٣٠٢: مطبعة السعادة: ابن خلكان: (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر بن خلكان ت ٦٨١هـ: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان نشر دار صادر: بيروت: لبنان : ١٩٧٧ م :حـ٣: ص٢٧٦. تحقيق إحسان عباس.

استمر البُستى يعمل للغزنويين حتى أقصاه السلطان محمود بسبب سعاية الوزير الميمندى، فنفاه السلطان محمود إلى بخارى حيث توفى بها ٤٠٠هـ(١).

وقد اشتهرت مدينة نيسابور بمدارسها الكثيرة منها المدرسة البيهقية والمدرسة السعدية ومدرسة الشيخ أبى سعيد إسماعيل بن على ومدرسة الأستاذ ابى إسحاق الأسفرائينى(٢).

كذلك اشتهرت غزنة بكثرة مدارسها فقد اهتم سلاطين الدولة الغزنوية بانشاء المدارس، وتعتبر المدرسة التى انشأها السلطان محمود الغزنوى فى غزنة نموذج للمدارس الشهيرة فى البلاد . وقد اقيمت تلك المدارس بجوار الجامع بالمدينة وزودت بتصانيف العلماء وعلوم الأوليين ونقلت إليها الكتب من العراق وسائر البلدان واستقدم لها كبار العلماء والأُدباء(٣) .

ومع ازدهار تلك المدارس بكافة الفنون والعلوم فقد كثر العلماء من الفقهاء والمتكلمين والصوفيه(٤) بإعداد كبيرة فى البلاد الغزنوية فى غزنة

---

(١) السبكى:طبقات الشافعية: حـ٤: ص٤، سعد الحميدى : نفس المرجع: ص١٠٦.

(٢) السبكى : المصدر السابق: حـ٣: ص١٣٧.

(٣) العتبى:نفس المصدر:حـ٢: ص٢٩٩: محمد قاسم فرشتة: تاريخ فرشتة: ص١٣٠.

(٤) من المسائل التى شغلت أفكار المسلمين طوال العصور الإسلامية "التصوف" ذلك أن كثيراً من المسلمين الذين اشتهروا بالورع والتقوى لم يجدوا فى علم الكلام ما يقنع نفوسهم المولعة بحب الله تعالى، فرأوا أن يتقربوا إليه عن طريق الذهد والتقشف وفناء الذات فى حبه تعالى، ومن ثم سموا "المتصوفين" وكان مما يميز المسلمون الأولون الذين

وتيسابور وكان لنيسابور الحظ الأوفر من علماء الديـن واللغـة الذين التمسوا الحياة المستقرة فى الهند فلجأوا إليهـا وصنفوا الكتب والمؤلفات فى الفروع المختلفة ومن هؤلاء العلماء الذيين أثروا فى الحياة الإسلامية وكان لهم أكبر الأثر فى اسلام كثير من الهنود نذكر منهم الشيخ عمر بن أحمد بن إبراهيم أبو حازم العبدرى النيسابورى الحافظ وهو من مشايخ نيسابور أرسله محمود بن سبكتكين إلى الهند يدعو إلى الإسلام هناك(١).

كذلك العالم الفقيه عثمان النيسابورى الحركوشى الواعظ كان يعظ الناس وله كتاب صنف فى الوعظ وكان إذا دخل على السلطان محمود بن سبكتكين يقوم ويستقبله وكان السلطان محمود قد قسط على نيسابور مالاً يأخذ

عرفوا بالبساطة والتقشف ليس الصوف يقول المسعودى أن عمر ابن الخطاب كان يلبس جبه من الصوف المرتقعة بالأديم علىحين كان سليمان الفارسى يلبس الصوف ولما تقدم الزمن بالمسلمين وسادت المادية والبذخ حافظ بعض المسلمين علىسنه الرسول صلىالله عليه وسلم والخلفاء الراشدين فى الملبس واحتجوا بذلك إحتجاجاً صامتاً على المادية والتبذير اللذين أنغمس فيها معاصروهم، فإطلق عليهم "المتصوفون" يقول عنهم القشيرى "فلما ظهرت البدع وتشاحنت الفرق، وصار أصحاب كل بدعة وأنصار كل فرقة يدعون أن فيهم زهاداً أنفرد خواص أهل السنة المراعون أنفسهم مع الله الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم الصوفية، وأطلق هذا الاسم عليهم قبل نهاية القرن الثانى للهجرة بقليل" راجع حسن إبراهيم حسن:تاريخ الإسلام: حـ٣، ص٢٢٠ وما بعدها.

(١) ابن الجوزى: الإمام ابو الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن الجوزى): المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم: طبعة بيروت: دار الكتب العلمية: حوادث: ص٤١٧هـ: ص١٧٩، ابن الأثير : التكامل فى التاريخ : حـ٨: ص١٥٨.

منهم فقال له الخركوشى، بلغنى انك تكدى الناس فضاق صدرى فقال كيف، قال بلغنى انك تأخذ أموال الضعفاء وهذه كدية، فترك السلطان القسط[١].

ومن علماء نيسابور أيضاً عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن ادريس ابو سعد الحافظ الاسترابازى ويعرف بالأدريسى ، سكن سمرقند ورحل إلى غزنة ومنها إلى الهند وعنى بالحديث وصنف فى تاريخ سمرقند توفى ٤٠٥هـ. وله ترجمة فى النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى حـ٤ ص٢٣٧، الزركلى : فهرس الأعلام حـ٣ : ص٣٥٢[٢] ومن علماء الصوفية ترجم ابن الجوزى للإمام الحافظ أحمد بن محمد بن أحمد بن حفص الصوفى المالينى وماليه قرية من قرى هراه وهو أحد العلماء فى علم الحديث له كتب ومصنفات كبيرة له ترجمة فى تاريخ بغداد: حـ٤: ص٣٧١، وكتاب البداية والنهاية: حـ١٢: ص١١ أما أبو الحسن بن على بن الدقاق النيسابورى ، فكان يعظ الناس ويتكلم على الأحوال والمعرفة ، توفى سنة ٤١٢ هـ[٣] وله ترجمة فى ابن الأثير حوادث ٤١٢، أما عبد الرحمن بن الحسن السلمى الصوفى النيسابورى ، فكان من أجهر علماء الصوفية فى نشر المذهب فى بلاد الهند له ترجمة فى ابن الأثير حـ٨، ص١٣٦[٤].

---

(١) ابن الجوزى: المصدر السابق: حـ١٥: ص١٧٢.

(٢) ابن الجوزى: نفس المصدر : نفس الجزء: ص١٠٧.

(٣) ابن الجوزى: نفس المصدر: نفس الجزء: ص١٠٧.

(٤) ابن الجوزى: نفس المصدر والجزء: ص١٥١.

ومن العلماء المجاهدين فى نشر الإسلام فـى الهند أيضـاً العـالم رئيس نيسابور ابو محمد عبد الله ابن إسماعيل الميكـالى: كـان مـن الكتـاب والبلغـاء وكان يحفظ مائـة ألف بيت للمتقدمين والمحدثين ولـه صنـوف كثيرة وكـان مجاهداً فى سبيل نشر الإسلام فى الهند مـع سـلاطين غزنـة(١) ومـن أعيـان الأدباء والشعراء أيضاً العالم أبو حفص عمر بن على المطوعـى مـن علمـاء الشـعر والأدب المطبوعين ، اتصـل بخدمـة الأمـير الميكـالى، فكـان دُرّه فـى الدين والعلم والأخلاق والجهاد وكان رسـولاً للغزنونيين فـى بـلاد الهنـد ولـه ترجمة فى البيهقى(٢).

أما أبو نصر أحمد بن على بن ابى بكر الزوزنى، فكـان دُرّه فـى العلـم والفصاحة والشعر،تتلمذ علىأبى بكر الخوارزمى وأخذ عنه الفصاحةحتى كاد يحاكية ورد العراق وأنخرط فى سلك الشعراء وجاهد بأدبه فى بلاد الهند(٣).

كذلك كان من قضاة نيسـابور النـابهين القـاضى أبـو بكـر عبـد اللـه بـن محمد البُستى، أهم قضـاة نيسـابور واشـهرهم ولـه جهـاد فـى بـلاد الهنـد مـع سلاطين غزنة وخاصة السلطان محمود وابنه(٤) مسعود.

أما أبو علىذاهر بن أحمد السرخسـىالفقيه الشـافعى، فكـان أحـد الأئمـة النابهين انتشر علمه وجاهد فى خراسـان وغزنـة توفـى ٣٨٩هـ ومـن علمـاء

---

(١) الثعالبى: المصدر السابق: حـ٣: ص٤٣٣.
(٢) الثعالبى: المصدر السابق: حـ٣، ص٤٣٣.
(٣) الثعالبى : نفس المصدر والجزء: ص٤٤٦.
(٤) الثعالبى: نفس المصدر والجزء: ص٤٢٤.

بُست أيضاً الفقيه الشافعى حمد ابن إبراهيم بن خطاب الخطابى البُستى، كان أحد أوعية العلم حافظاً فقيهاً مبرزاً على أقرانه له تصانيف كثيرة نافعة(١) توفى ٣٨٨هـ، أما أبا المعالى ابو الحسين بن محمد بن منصور البوشنجى خطيب بوشنج فكان له جهاد فى سبيل نشر الإسلام فى هراة وجرجان ونيسابور وكابل توفى فى رمضان سنة ٤١٩هـ(٢).

ومن علماء الصوفية المجاهدين فى نشر المذهب الشافعى، محمد بن الحسين الأزدى النيسابورى المشهور بأبى عمرو السلمى، توفى ٤١٢هـ وهو صاحب التصانيف المشهورة فى علم القوم ومن أشهر مؤلفاته كتاب حقائق التفسير الذى ضمنه كثير من مبادئ التصوف(٣) وقد تصدى ابن الجوزى (٥٩٧هـ) فيما بعد لهذا الكتاب بالرد فى كتابه تلبيس إبليس(٤).

وهكذا عاصرت الدولة الغزنوية الفترة الذهبية للنهضة العلمية الإسلامية فى القرنين الرابع والخامس الهجريين فساعدتهم تلك النهضة على القيام بدروهم فى نشر الإسلام فى الهند وشهدت الحياة الإسلامية فى الهند نشاطاً خصباً بدأ بفاتح الهند محمود الغزنوى الذى فتح الطريق أمام الفقهاء والوعاظ ليقوموا بدورهم فى نشر الإسلام فى الهند.

---

(١) ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب : حـ٣: ص١٢٧.

(٢) ابن العماد الحنبلى: نفس المصدر: حـ٣: ص٢١١.

(٣) السبكى : طبقات الشافعية : حـ٣ : ص٦٠ – ص٦٢

(٤) نور الدين شريبة : مقدمة طبقات الصوفية : ص٣٠.

المصادر والمراجع

المصادر العربية :

- **ابن أبى أصيبعة :** موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجى ت (٦٦٨هـ).
"عيون الأبناء فى طبقات الأطباء ".
شرح وتحقيق ، نزار رضا، نشر مكتبة الحياة، بيروت .
- **ابن الأثير :** على بن أحمد بن أبى الكرم، ت ٦٣٠ هـ/ ١٢٣٨م.
الكامل فى التاريخ، ١٢ جزء ط بولاق، ١٢٧٤هـ ، دار صادر بيروت ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.
- **ابن بطوطة :** أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتى ت (٧٧٩هـ)
رحلة بن بطوطة، تحقيق طلال حرب دار الكتب العلمية بيروت ١٤٠٧ : ١٩٨٧.
- **ابن الجوزى :** أبو الفرج عبد الرحمن بن على ت ٥٩٧هـ / ١٠٤٥م.
المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، الدكن ١٣٥٨هـ / بيروت ١٩٦٤م.
- **ابن حوقل :** أبو القاسم محمد بن حوقل النصيبى ت ٣٧٠هـ / ١٩٩٢م.
كتاب صورة الأرض : ط بيروت .
- **ابن خلدون :** عبد الرحمن بن محمد جابر ت ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥ م.
العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ٧ أجزاء ، القاهرة ١٢٨١هـ ، بيروت ١٩٨١م.
- **ابن خلكان :** شمس الدين أبو العباس أحمد بن إبراهيم (ت ١٢٨٣م) .
وفيات الأعيان ، وأنباء الزمان تحقيق إحسان عباس ط دار النهضة المصرية ١٩٤٨م، ط بيروت ١٩٧٧م.

- **ابن العماد الحنبلى** : أبو الفادح عبد الحى بن على بن محمد ت ٤٨٢هـ / ١٠٨٩م شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ط بيروت ١٩٧٥م.
- **أبو الفداء** : الملك المؤيد عماد الدين ت ٧٣٢ هـ / ١٣٣١م . المختصر فى أخبار البشر، القاهرة ١٣٢٥هـ .
- **البغدادى** : صفى الدين عبد المؤمن عبد الحق ت ٧٣٩هـ / ١٣٣٥م . مراصد الإطلاع على أسماء االأمكنة والبقاع، تحقيق وتعليق على محمد البجاوى، ط دار المعرف بيروت، سنة ١٩٥٣م.
- **البلاذرى** : أحمد بن يحى بن جابر ت ٢٧٩هـ / ٨٩٢م. فتوح البلدان ، القاهرة ١٣١٨هـ .
- **البيرونى** : أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة أو مرذولة، نشر دائرة المعارف العثمانية . ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م، حيدر أباد الدكن الهند .
- **الثعالبى** : أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبى يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر، تحقيق محى الدين عبد الحميد القاهرة .
- **الرازى** : فخر الدين الرازى . اعتقادات فرق المسلمين .
- **الأسفرائينى** : أبو المظفر الأسفرائينى . التبصر فى الدين وتميز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكة القاهرة ١٩٥٥م.
- **السبكى** : تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب تقى الدين ت / طبقات الشافعية الكبرى : تحقيق عبد الفتاح الحلو ، محمود الطناحى، القاهرة ١٩٦٧م.

- **الأصطخرى** : (أبو إسحاق إبراهيم محمد القارس المعروف بالكرخى) ت ٣٠٩هـ/ ٩٥١م.

المسالك والممالك، تحقيق محمد صابر عبد العال ، القاهرة ١٩٦١م.

- **القزوينى** : (زكريا بن محمود القزوينى) ت ٦٨١هـ/ ١٢٨٢م.

آثار البلاد وأخبار العباد، نشر وستنفلد، ط جوتنجق، سنة ١٩٤٨م، ط دار صادر بيروت ١٩٦٩م.

- **القفطى** : (على بن يوسف ابن إبراهيم) ت ٦٤٦هـ . أخبار العلماء بأخبار الحكماء مطبعة السعادة ، سنة ١٣٢٦هـ ، ١٩٠٨ م.

- **القلقشندى** : (أبو العباس أحمد بن على القلقشندى) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا أجزاء طبعة .

- **الطبرى** : محمد ن جرير ت ٣٢٠هـ / ٩٣٢م .

تاريخ الرسل والملوك تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم القاهرة ١٩٥٩م.

- **العتبى** : أبو نصر محمد بن عبد الجبار ت (٤٢٠هـ) .

تاريخ يمينى القاهرة ١٢٨٦ هـ / بمصر .

- **المقدسى البشارى** : شمس الدين أبو عبد الله ت ٣٨١هـ/ ٩٩١م. أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ، ليدن ١٩٠٦م، طبعة دار إحياء التراث العربى بيروت ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧، تحقيق محمد مخزوم .

- **الميمندى** : (أحمد بن على بن عمر ت ١١٧٢هـ) . الفتح الوهبى على تاريخ أبى نصر العتبى . ط المطبعة الوهبية بمصر، سنة ١٢٨٦هـ.

- **النرشخى** : أبو بكر محمد بن جعفر ت ٣٤٨هـ .

" تاريخ بخارى " نقله إلى العربية وقدم له وحقق أمين عبد المجيد بدوى، نصر الله ونشر الطرازى، دار المعارف بمصر ١٧١٥هـ / ١٩٦٥م.

- **ياقوت الحموى** : شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م .

معجم البلدان ١٠ أجزاء ط القاهرة ١٩٠٦م، ٥ أجزاء ط دار صادر بيروت ١٩٦٥م.

معجم الأدباء ٢٠ جزء ط القاهرة ١٩٣٦م.

المراجع العربية :

- **أحمد أمين** : ضحى الإسلام جزءان، القاهرة ١٩٣٨م.

ظهر الإسلام، ط القاهرة .

- **أحمد محمود الساداتى** : تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية من الفتح العربى إلى قيام الدولة المغولية، سلسلة الألف كتاب، القاهرة .
- **جمال الدين سرور** : الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٠م.
- **حسن إبراهيم حسن** : تاريخ الإسلام السياسى والدين والثقافى والإجتماعى ، النهضة العربية ط ١٩٦٤م.
- **حسن أحمد محمود** : الإسلام فى آسيا الوسطى بين الفتحين العربى والتركى، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٧٢م.
- **عبد الكريم غرايبة** : العرب والأتراك (دراسة لتطور العلاقات خلال ألف سنة) .
- **عبد النعيم حسانين** : سلاحقة إيران والعراق،النهضة المصرية، ١٩٧٠م.
- **عصام عبد الرؤف** : تاريخ الإسلام فى جنوب غرب أسيا فى العصر التركى دار الفكر العربى، سنة ١٩٧٥م .

- **على أحمد الشحات** : أبـو الريحـان البيرونى، دار المعـارف بمصـر، سـنة ١٩٦٨م.
- **على الشابى** : الأدب الفارسى فـى العصـر الغزنـوى، تونـس، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.
- **محمود إسماعيل عبد الرازق** : الخوارج فى بـلاد المغـرب حتـى منتصـف القرن الرابع الهجرى، ط القاهرة ١٩٨٦م.
- **محمد عبد المنعم الشرقاوى، محمد محمود الصياد** :
ملامح الهند، وباكستان، طبع دار المعارف بمصر .

المراجع الفارسية والأجنبية المعربة :

- **أرنولد** : سيرتوماس .
الدعـوة إلـى الإسـلام ، تعريـب حسـن إبراهيـم حسـن، وآخـرون، النهضـة المصرية ، ط٣ سنة ١٩٧٠م .
- **البيهقى**: أبو القضل محمد بن الحسين البيهقى (ت ٤٧٠هـ) تاريخ البيهقـى، ترجمـة مـن الفارسـية، يحيـى الخشـاب وصـادق نشـأت ، مكتبـة الأنجلـو المصرية، القاهرة .
- **بروان** : ادوارد، تـاريخ الأدب فـى إيـران مـن الفردوسـى إلـى السـعدى، ترجمة إبراهيم الشواربى ، مكتبة السعادة، سنة ١٩٥٤م.
- **بروكلمان** : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة منير البعلبكى، نبيه فـارس ط بيروت ١٩٧٧م.
- **تاج محمد خان** : عروج أفغان ط بشاور وباكستان، سنة ١٩٠٤ م.

- **ستانلى لين بول** : الدول الإسلامية ، ومعجم الأسرات الحاكمة، ترجمة إلى العربية محمد صبحى فرزات ، نشر مكتب الدراسات الإسلامية دمشق، سوريا.
- **سعيد أحمد مولانا** : مسلما نوكا عروج وزوال، "أردو" نشر مكتبة ندوة المصنفين، دهلى، ١٩٤٧م.
- **غلام جيلان** : غزنة وغزنويان، كابل، افغانشان ١٣٥١شمسية.
- **فامبرى أرمنيوس** : تاريخ بخارى، منذ أقدم العصور حتى الآن ، ترجمة الساداتى، وتقديم ومراجعة يحيى الخشاب، ط شركة الإعلانات القاهرة .
- **فلهوزن: (يلوليوس)** .

تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية ترجمة عبد الهادى أبو ريدة القاهرة ١٩٥٨م.

أحزاب المعارضة السياسية والدينية فى صدر الإسلام .

الخوارج والشيعة : ترجمة عبد الرحمن بدوى ط ٣ الكويت، سنة ١٩٨٧م.

- **كراتشكو فسكى** :

تاريخ الأدب الجغرافى العربى، تعريف صلاح الدين عثمان هاشم، جامعة الدولة العربية، القاهرة .

- **كى لسترنج** :

بلدان الخلافة الشرقية ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد، مطبعة الرابطة ١٣٧٤هـ / ١٩٥٤م .

مناهج الدين عثمان : ت (٦٥٨هـ) طبقات ناصرى ط كامل ١٣٤٢ ش .

دوريات ورسائل علمية :

- **حسن ابراهيم حسن :** انتشار الإسلام فى الهند ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مايو ١٩٤٤ .
- **سعد بن سعيد الحميدى :** حضارة الدولة الغزيوية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية العلوم الإجتماعية ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ١٤٠٠ هـ .
- **سيد على رضا تقوى :** أبو ريحان بيرونى ، مقالة ، مجلة ماهنامة فكر ونظر جـ١٢ ، إدارة تحقيقات إسلام ، إسلام آباد ، باكستان ، محرم ١٤٠٠ هـ .
- **محمد عبد العظيم الصوفى :** طغر لبك وتأسيس الدولة السلجوقية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، آداب الزقازيق ١٩٩١ م .

مراجع أجنبية :

- **Habib :** Sultan Mohamud of Chaznim, New Delhe, 1979.
- **Hitty :** History of The Arabes .
- **S. Lane Poal :** Medieval India Under the Mohamedan Rul, New York 1968.
- The Mohammaden Dynasties .
- **Morel .**"Ashort History of India" . (London 1890) .
- **Munshi .** "The Struggle for Empire" . (Bombay 1969) .
- Ency of Slam Art Saljuk.
- **Cambride .** History of India .

تجارة الرقيق فى الخليج العربى

(فى التاريخ الحديث)

دكتور/ عبد القادر حمود القحطانى

مقدمة :

عرفت المجتمعات العالمية قديماً وحديثاً الرقيق ، واستخدمته فى الحياة العملية، والمجتمع العربى كان أحد المجتمعات التى عرفت الرق . وقد بدأ استخدام الرقيق مع بداية اهتمام الإنسان بزراعة الأرض وبناء المدن ، ووجدت دولة المدينة فى الأسرى أداة طيعة للعمل . وكانت تقام الأسواق لبيع هؤلاء فى الدولة المنتصرة التى يساق إليها الأسرى والسبايا(١) .

وقد أسهم الرقيق قديماً وحديثاً فى بناء الحضارات ، كالحضارة اليونانية، والرومانية قديماً ، وفى بناء النهضة الحديثة فى أوروبا وأمريكا(٢) ومنذ زمن بعيد ظهرت أصوات تنادى بوقف عملية الاسترقاق إلا أن تلك الأصوات واجهت معارضة كبيرة من بعض المفكرين والمنتفعين بالرقيق . فقد كان يرى أولئك المعارضون أن عملية الاسترقاق لاتتجافى مع العدالة فى شىء

---

(١) عبد السلام الترمانينى : الرق ، ماضيه وحاضره (عالم المعرفة) الكويت ١٩٧٩ ، ص١٦، ١٧، ١٨ .

(٢) د. عاصم الدسوقى : دراسات فى التاريخ الاقتصادى ، القاهرة ، ١٩٨١ ، ص١٩ .

لأنها قائمة على ما تقرره الطبيعة ، فهناك أناس يتمتعون بمزايا تجعلهم صالحين ليكونوا أسيادا كاليونانيين مثلا ، وهناك أمم لا يصلح أفرادها إلا للخضوع لغيرهم وهؤلاء هم الأرقاء(١) . ونحن لا نتفق مع هؤلاء ، لأننا نؤمن أن الناس جميعاً خلقوا متساويين لا يتفاوتون إلا بالتقوى ، مصداقاً لقوله عز وجل ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقكم إن الله عليم خبير ﴾(*) .

فى العصور الوسطى ازدهرت تجارة الرقيق المأسور والمجلوب فى دول الشرق والغرب . وكان تجار البندقية ومرسيليا يجمعون الرقيق المسيحى ويحملونه إلى أسواق البلاد العربية على الرغم من تحريم الكنيسة بيع المسيحيين للمسلمين . وقد بدأت تجارة الرقيق فى التاريخ الحديث مع بداية الحركات الاستكشافية التى قامت بها البرتغال فى أفريقيا فى نهاية القرن الخامس عشر الميلادى ، وكان ذلك بهدف الحصول على الذهب ، والعاج ، والتوابل ، إلى جانب عملية التبشير بالمسيحية .(٢) وتبعها فى هذا المجال الأسبان الذين وصلوا إلى جزائر الهند الغربية فى أمريكا فى القرن السادس عشر واستقروا بها ، واشتغلوا بالزراعة التى استدعت الحصول على اليد العاملة ، مما استدعى القيام بجلب هذه اليد من أفريقيا بصورة رقيق ، وكانت أول شحنة تصل من هؤلاء إلى (هايتى) من أبناء (غانا) فى سنة ١٥١٠ م . ومنذ ذلك التاريخ تتابعت عمليات جلب الرقيق الإفريقى إلى العالم الجديد

(١) زاهر رياض : استعمار أفريقية – القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٦٨ – ٧٥ .

(*) سورة الحجرات ، آية {١٣} .

(٢) عبد السلام الترمانينى : المرجع السابق ، ص٨٧ .

وأوروبا . ثم تبعهم الإنجليز بعد وصولهم إلى الشاطىء الشرقى لأمريكا الشمالية وتأسيس مستعمرة (فرجينيا) فى سنة ١٦٠٥ ، بمزاولة تجارة الرقيق لاستخدامهم للعمل فى مستعمراتهم فى العالم الجديد . ويقدر عدد الرقيق الأفريقى الذى وصل إلى الممتلكات البريطانية وحدها بين عامى ١٦٨٠ و١٧٨٦ ، بمليونين ومائة وثلاثين ألف شخص.(١) وأن ما نقل من الرقيق الأفريقى فى جوف السفن البريطانيه يبلغ أربعة أضعاف ما نقل فى سفن كل الدول الأخرى مجتمعة .(٢) وأن ما وصل من الرقيق إلى أمريكا وأوروبا خلال القرن الثامن عشر ، بخمسين مليون شخص وأن مثلهم فى العدد ماتوا أثناء النقل ، أى أن ما أستنزفته القارة الأفريقيه من أبنائها فى هذا الميدان يقدر بمئة مليون ، وأرى هذا مبالغا فيه . والجدير بالذكر أن معظم هؤلاء كان يؤتى بهم من غرب أفريقيا .

وظهرت فى بريطانيا منذ عام ١٦٧٣ ، أصوات تنادى بمنع هذه التجارة الآدمية ، إلا أن هذه الأصوات جوبهت بالمعارضة من قبل المنتفعين بهذه التجارة ، وكان وزير المستعمرات البريطانى (اللورد دارتوث (Dar Touth) فى مقدمة المعارضين لوقفها ، فقد قال فى إحدى خطبه :

(أننا لن نسمح بأى حال بعرقلة هذا النشاط الذى ثبت أنه عظيم الفائدة لشعبنا) (٣) ويرجع بعض الانجليز عظمة المدن التجارية فى بريطانيا مثل

---

(١) زاهر رياض :المرجع نفسه، ص٦٨-٧٥ ، وانظر عاصم الدسوقى : ص٢٣.

(٢) جاك ووديس : جذور الثورة الأفريقية ، ترجمة : أحمد فؤائد بلبع . القاهرة ، ١٩٧١، ص١٣٠ .

(٣) MaCMillan , W .: Africa Emergen , London , 1949 , p, 15 .

(ليفربول) إلى تجارة الرقيق . فقد وصف عمدة (بريستول) تجارة الرقيق ، فى سنة ١٧١٣ بأنها عماد الشعب البريطانى ، ومن أسباب عظمة بريطانيا وقوتها البحرية فيما وراء البحار .(١)

وهنا نلاحظ أن الأنجليز لايتورعون فى ارتكاب أى مخالفة حتى ولو كانت تمس حقوق الأنسان طالما أنها تخدم أغراضهم ، إلا أنه على الرغم من ذلك استطاعت الجمعيات الخيرية التى تألفت فى بريطانيا منذ سنة ١٧٨٣ ، الحصول على موافقة البرلمان فى العام ١٨١١ / بإلغاء الرق داخل بريطانيا، لكن لم يصدر قرار رسمى بتحريم هذه التجارة فى أنحاء الكومنولث البريطانى إلا فى سنة ١٨٣٣ م .

وجاء القرار الأخير بعد اقتناع رئيس الوزراء البريطانى (وليم بث Wliampitt) بوجهة النظر الداعيه إلى وقف هذه التجارة الآدمية .(٢)

أما تجارة الرقيق فى عالمنا العربى ، فقد تناولها عدد من المؤرخين والكتاب من العرب والأجانب فى القديم والحديث ، منهم من أنصف الإسلام والمسلمين بشأن هذه القضية التى كانت بالفعل تعد احدى القضايا الإنسانية ومنهم اساء إليهما ، أتمنى أن أتمكن من عمل دراسة مقارنة أبين من خلالها معاملة كل من المسلمين والأوروبيين لهؤلاء البشر . أما بحثى هذا فإنه يقتصر على موضوع تجارة الرقيق فى الخليج العربى فى التاريخ الحديث، والأسباب التى جعلت بريطانيا تلجأ إلى محاولة وقفها فى هذه المنطقة من

---

(١) زاهر رياض : ص٨٠ – ٨١ .

(٢) MacMillan , W .: OP .Sit , P . 16 .

وطننا العربى الكبير . وسوف نبين فى ختام البحث الأهداف الحقيقية من وراء هذا التدخل البريطانى بشأن هذه القضية فى منطقة الخليج .

تجارة الرقيق فى الخليج العربى :

مارس بعض عرب الخليج كغيرهم من الشعوب تجارة الرقيق فى التاريخ الحديث وأن كانت على نطاق ضيق مقارنة بغيرهم من الأوروبيين .

وقد لعب العمانيون الدور الرئيسى فى هذا المجال ، وذلك نظرا لخبرتهم الواسعة فى الملاحة البحرية . ولذلك فسوف نكتفى فى هذا البحث عن دور العمانيين والقواسم فى تجارة الرقيق على أمل أن نتناول بقية مناطق الخليج فى بحث آخر بمشيئة الله .

العمانيون وتجارة الرقيق :

كان العمانيون ، من العناصر الخليجية النشطة فى تجارة الرقيق ، نظرا لخبرتهم الواسعة ، والعريقة فى ارتياد البحار والمحيطات ، ولذلك فقد كانوا لايكتفون بالوقوف عند ساحل أفريقيا لمجيء الرقيق إليهم بوساطة النخاسين الأفارقة كما كان يفعل الأوروبيون ، وإنما كانوا يتوغلون إلى داخل القارة وبالذات داخل شرق أفريقيا. ويعود هذا إلى أن الأوروبيين كانوا غير مرغوب فيهم من قبل الأفارقة نظراً لمعاملتهم القاسية ضد الأهالى ، حيث كانوا يستخدمون البنادق فى قنص الأفراد ، ولذلك نرى الأوروبيين يطلقون على السواحل الأفريقية أسماء لها معنى مثل ساحل العبيد ، وساحل الزنج ، وساحل الذهب وساحل العاج ....الخ بينما اتصفت معاملة المسلمين للرقيق

الأفريقى بالرحمة والمودة ، هذه المعاملة الحسنة جعلت من سلاطين عمان ، سادة لأفريقيا الشرقية وحماتها(١) .

وقد بدأت عمان ، اتصالاتها مع شرق أفريقيا منذ زمن بعيد إلى ما قبل عام ١٤٩٨ وساعدت عمان الأهالى هناك بعد عام ١٦٥٠ ، على طرد البرتغاليين وبفضل ما أظهرته عمان من مقدرة فى قتال البرتغاليين من بلادهم . وتمكنت من حمل الزنج على الاعتراف بالولاء الفعال لها ، ويدفع الجزية مقابل حمايتها لهم من التدخل الأوروبى فى شؤونهم . وأصبح سلطان عمان (سعيد بن تيمور) سيداً على زنجبار ، وممباسا ، وغيرهما من المناطق فى شرق أفريقيا ، بل يمكن القول أن سلطان عمان ، أصبح بعد عام ١٨٤٠، يبسط نفوذه على طول الساحل الشرقى لأفريقيا الممتد من موزمبيق إلى الصومال فضلا عن عمان وبعض الموانىء فى بلاد فارس، وبلوخستان(٢) .

واهتمت السلطة العمانية فى زنجبار ، بالزراعة وبخاصة زراعة الكاكاو، وأشجار القرنفل ، وأشجار زيت النخيل ، وقصب السكر وغيرها . وكان الأرقاء يحصلوا على دخل مادى كبير من بيع المحاصيل ومن الأجر . وبعد تحريرهم أصبح بعضهم لايجد ما يسد جوعه ، بعد أن كانوا يأكلون أحسن المأكولات فى ظل الحكم العربى فى زنجبار. وقد عبر الكثير ممن كان فى

---

(١) شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا واستعمارها ، القاهرة ١٩٨٠ ، ص٤٢ .

(٢) دونالد ويدنر : تاريخ أفريقيا (جنوب الصحراء) ، ترجمة : د. راشد البراوى ، القاهرة ، د.ث ، الطبعة الأنجليزية ١٩٦٢ م ص١٤٧ – ١٥٠ .

الرق عن رأيه أقبل أو بعد التحرير أفضل حالا فقال كان حاله فى ظل العبودية عند العرب أفضل حالا مما هو عليه بعد التحرير(١) .

وقد ازدهرت تجارة الرقيق فى الخليج العربى ، منذ النصف الثانى من القرن الثامن عشر ، ذلك بسبب حاجة أهالى المنطقة لليد العاملة ، فى صيد الأسماك ، واستخراج اللؤلؤ ، وفى الزراعة والأعمال الأخرى ، بالإضافة إلى أن هذه التجارة كانت تدر على التجار أرباحاً طائلة . وقد فرض سلطان عمان منذ سنة ١٧٢٢ ، ضريبة على كل عبد يتم تصديره إلى المستعمرات الفرنسية من أملاكه الأفريقية . قدرت وزارة الخارجية البريطانية ، دخل السلطان من المكوس عن هذه التجارة خلال ذلك العام أى عام١٧٢٢ ، بنحو عشرين ألف جنيه استرلينى ، وإن هذا الرقم ارتفع فى السنوات التالية إلى أكثر من خمسين ألف جنيه أسترلنى(٢) .

وكانت مسقط ، وصحار ، وصور فى عمان من المناطق التى اشتهرت بأسواق الرقيق ، ومنها كان يتم توزيعهم إلى امارات الخليج والجزيرة العربية، والعراق ، وفارس ، والهند ، والصين . وكانت زنجبار ، من أكبر المراكز فى شرق أفريقيا لبيع الرقيق ، حيث كان يتم جلب هؤلاء إليها من المناطق المجاورة لها ، ومن أقصى الغرب فى ضفاف بحيرتى نياسا ،

---

(١٢) الشيخ سعيد بن على الغيرى : جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار ، طبع فى مسقط ١٩٨٦ ، ص٥٣٨ – ٥٤١ .

(٢) د. فؤاد سعيد العابد : سياسة بريطانيا فى الخليج العربى ، خلال النصف الأول من القرن التاسع ذات السلاسل – الكويت ١٩٨١ ، ص٩١ وانظر رياض : ص٨٤.

وتنجانيقا . وكانت السفن الخليجية تبدأ بالوصول إلى زنجبار ، لنقل هؤلاء فى شهر نوفمبر وتغادرها فى شهر أبريل ومايو ، وذلك قبل أن يصل موسم الرياح الشمالية الغربية إلى أقصى حدته على الساحل الغربى للمحيط الهندى(١) .

وكان سكان شرق أفريقيا من الزنوج الوثنين عرضة للأسر من قبل النخاسين الأفارقة والعرب العمانيين ، أما الصوماليون ، فقد كان يحرم استرقاقهم بفضل إسلامهم ، حيث أن الإسلام ، لايجيز استرقاق المسلم ، وإن كانت هناك بعض التجاوزات من بعض التجار لاسترقاق بعض الصوماليين وسوف نشير إليها فى مكانها(٢) .

وكان العبد الحبشى يباع بأسعار أعلى عن مثيله من الأفارقة فى منطقة الخليج يصل سعره إلى ثلاثمائة ريال بينما كان مثلية من الأفارقة لايزيد عن خمسين ريالا ، وذلك نظراً إلى ما كان يتميزبه من الذكاء وحسن المظهر . وكان ميناء بربرا الصومالى ، ومصوع الحبشى من موانىء تصدير الأحباش إلى الخليج العربى .

ويذكر (كيلى) نقلا عن أحد رجال البعثة التبشيرية العاملة فى الحبشة ، أنه شحن خلال سنة ١٨١٠ ، أكثر من ألفين من الرقيق الحبشى من ميناء

---

(١) جون ب . كيلى : بريطانيا والخليج (١٧٩٥ - ١٨٧٠) جـ٢ ، ترجمة : محمد أمين عبد الله ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص٧-٩ .

(٢) د. جمال زكريا قاسم : دولة بورسعيد فى عمان وشرق أفريقيا (١٧٤١ - ١٧٦١) القاهرة ، ص٢٤٤ - ٢٤٥ .

(مصوع) وحده ، وكان معظمهم من الإناث والأطفال . ويذكر المقيم السياسى البريطانى فى الخليج فى تقريره السنوى لحكومته ، أن عدد العبيد الذين وصلوا إلى ميناء مسقط خلال عام ١٨٣١ ، ومعظمهم من شرق أفريقيا ، بلغ ٣٠,٠٠٠ شخصاً(١) . وكانت الهند فى مقدمة الدول المستوردة للرقيق من التجار العمانيين والقواسم ، بأثمان تربو على ما قد تدفعه فارس أو بلاد العرب . وكان التجار الخليجيون يقومون بشراء الأقمشة والأدوات المنزلية الهندية ، ويبيعونها فى بلاد الزنج بأسعار عالية ، وذلك نظراً لإقبال الأهالى هناك على هذه المنتجات .

مكافحة تجارة الرقيق فى الخليج بين عامى ١٨١٢ - ١٨٣٩ م :

أصبحت بريطانيا منذ عام ١٧٩٩ ، تتحكم فى طرق المواصلات بين الهند والخليج العربى ، إلا أنها لم تحاول تطبيق قانون حظر تجارة الرقيق الذى أصدره البرلمان البريطانى فى سنة ١٨١١ ، فى منطقة الخليج مباشرة ، ولكنها فى الواقع بدأت سفنها تراقب سواحل أفريقيا الشرقى لضبط السفن التى تعمل بتجارة الرقيق ، منذ صدر قانون الحظر .(٢)

وقد بدأت حكومة الهند البريطانية منذ سنة ١٨١٢ ، اتصالاتها مع زعماء الخليج لبحث وقف هذه التجارة ، وبالذات فى شهر مارس من هذا العام عندما بعث حاكم عموم الهند (نبين) برسالة إلى سلطنة عمان ، يدعوه

---

(١) جون كيلى : ص٩ - ١٧ .

(٢) دونالد ويدنر : ص١٤٨ - ١٤٩ .

إلى التعاون مع بريطانيا للقضاء على تجارة الرقيق(١) . وقد جاء هذا الطلب البريطانى بعد تزايد عملية تصدير الرقيق إلى الهند من قبل العمانيين والقواسم .

لكن سلطان عمان ، لم يرد على الطلب البريطانى حينذاك ، على اعتبار أن ذلك تدخلاً فى شؤون بلاده الداخلية .

وفى صيف عام ١٨١٦ ، أوقفت احدى الطرادات البريطانية ، أحدى السفن العمانية ، أثناء ابحارها فى مياه الخليج فى طريقها إلى البصرة ، وكان على ظهرها عدد من العبيد لبيعهم هناك ، وتم إرسالها ومن عليها إلى بومباى، لمحاكمة بحارتهم أمام المحكمة البحرية هناك(٢) .

معاهدة ١٨٢٠ مع القواسم :

كان يقوم بعض التجار من القواسم ، بجلب الرقيق من شرق أفريقيا وبيعه فى الخليج والجزيرة العربية والعراق ، وفارس ، والهند . وقدر عدد هؤلاء الأرقاء الذين نقلتهم سفن القواسم خلال عام ١٨١١ وحده بمئتى ألف(٣) . وكان موسم تجارة الرقيق فى الخليج يتوافق عادة مع موسم حصاد البلح فى البصرة ، والذى يبدأ من شهر يوليو فصاعدا ، حيث كان التجار القواسم ، يقومون ببيع ما عندهم من العبيد فى البصرة ، ويشترون بثمنهم

(١) عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم : علاقة ساحل عمان ببريطانيا (دراسة وثائقية) الرياض ، ١٩٨٢ ،ص٢٢٨ .

(٢) جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص٢٤٥ .

(٣) جمال زكريا قاسم :ص٢٤٥ ، وانظر جون كيلى : ص٢٠ – ٢٢ .

بلحاً لبيعه فى أمارات الخليج العربى .(١) وبعد تزايد نشاط القواسم فى شرق أفريقيا ، رأت الحكومة البريطانية ، أنه لابد من وضع حد لنشاطهم هذا ، وذلك باتخاذ خطوات فعالة للقضاء على هذه التجارة فى شرق أفريقيا ، وتكون الخطوة الأولى فى سبيل تحقيق هذا الهدف ، التوقيع على معاهدات مع شيوخ القواسم ورؤساء القبائل فى الساحل المتصالح وكذلك مع سلطان عمان. وفى الخطوة الثانية ، اللجوء إلى استخدام القوة المسلحة ضد المخالفين لقانون حظر تجارة الرقيق .(٢) وتنفيذاً لهذه الخطة ، تمكن قائد القوة البحرية البريطانية فى الخليج العربى الجنرال السير (وليم جرانت كير) من الزام شيوخ الساحل المتصالح التوقيع على معاهدة حظر تجارة الرقيق ، فى ٨ يناير ١٨٢٠ ، احتوت هذه المعاهدة على أحد عشر بنداً ، جاء فى المادة التاسعة منها :

(إن حمل الأرقاء من الرجال والنساء والأطفال من سواحل أفريقيا أو سواها يعتبر نهبا وقرصنة) . كما تعهد شيوخ الساحل بعدم نقل الرقيق بسفنهم، وأن تكون كل سفينة حاملة ترخيصاً باسمها ، وبعدد العاملين عليها ، والميناء المتجهة إليه .(٣) وبمعاقبة كل من يخالف قانون الحظر من رعاياهم. وقد جددت هذه المعاهدةمرةأخرى مع زعماءالساحل فى عام ١٨٣٨م(٤).

---

(١) فؤاد سعيد العابد : ص٩١ .

(٢) جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص٢٤٧ .

(٣) د. عبد العزيز محمد المنصور : التطور السياسى لقطر (١٨٦٨ – ١٩١٦) ط٢ ، ١٨٩٠ ، ذات السلاسل – الكويت ص٦٤ – ٦٥ .

(٤) مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية،جـ٢-الدوحة،١٩٨٦ ، ص٨٢١.

معاهدة ١٨٢٢ مع مسقط :

كان نجاح بريطانيا فى التوقيع على معاهدة حظر تجارة الرقيق مع القواسم ، دافعاً لمحاولة إقناع سلطان عمان ، التوقيع على معاهدة مماثلة ولكنها اتبعت خطوات تمهيدية لتحقيق ذلك . ففى شهر أغسطس ١٨٢١ ، تقدمت بطلب سلطان عمان تدعوه إلى الاقناع عن بيع الرقيق فى الموانىء التابعة له فى شرق أفريقيا للأوروبيين ولرعاياها من الهنود ، وذلك بإصدار تعليمات بذلك إلى ولاتة فى تلك الأماكن ، وتسليم رعايا بريطانيا الذين يزاولون هذه التجارة فى ممتلكاته إلى أقرب سلطة بريطانية . وفى هذه الرسالة اعتذر حاكم عموم الهند ، لسلطان عمان إزاء قيام الطراد البريطانى باحتجاز السفينة العمانية وبحارتها فى سنة ١٨١٦ ، عندما كانت تبحر فى مياه الخليج ، قائلا ، إن ربان الطراد لم يتصرف وفقاً للتعليمات المخولة له ، وتم أطلاق السفينة وبحارتها المحتجزين .

وفى هذه المرة تجاوب السلطان مع المطالب البريطانية فقام بإبلاغ المقيم السياسى البريطانى فى (بوشهر) الكابتن بروس ، بأنه قد أصدر أوامره إلى ولاته فى أفريقيا الشرقية بالأمتناع عن بيع الرقيق للشعوب الأوروبية ، وبمنع رعايا بريطانيا من العمل بهذه التجارة . فى الوقت نفسه أكد السلطان للمقيم البريطانى فى الخليج ، أنه سوف يخسـر من وراء هذا المنع من الأموال ما يزيد عن خمسين ألف ريال . وعلى الرغم من هذا التجاوب الذى أبداه سلطان عمان مع المطالب البريطانية ، فإن حاكم عموم الهند رأى أنه غير كاف ، وأنه لابد من ربط السلطان ، بمعاهدة رسمية كالتى وقعت مع زعماء الساحل.

وبعد عدة اتصالات بين السلطة البريطانية فى الهند وبين سلطان عمان، وقعت يوم ٤سبتمبر ١٨٢٢ ، معاهدة بين البلدين خاصة بحظر تجارة الرقيق، تعهد السلطان بمُوجبها بالامتناع عن مزاولة هذه التجارة فى ممتلكاته الأفريقية ، وبتحريم بيعه لأبناء الدول المسيحية ، أو نقل هؤلاء بالسفن التابعة له أو لرعاياه إلى المستعمرات الأوروبية .(١)

أعطى سلطان مسقط ، الطرادات البريطانية ، الصلاحية الكاملة فى تفتيش ومصادرة السفن العمانية فى المنطقة الممتدة من رأس دلجار ، على الساحل الشرقى لأفريقيا إلى شرق جزيرة سقطرة ، وينتهى هذا الخط عند ميناء (ديو) الهندى ، ما لم تكن قد دفعت بها الرياح إلى تلك المناطق.

ونلاحظ أن هذا المعاهدة اقتصرت على منع بيع الرقيق للدول المسيحية فى حين أبقت هذه التجارة للاشتغال بها فى الممتلكات العمانية ، طالما أنها لم تتعد الحدود التى رسمتها المعاهدة . ونلاحظ أيضاً أن بريطانيا لجأت إلى سياسة التدرج لمنع هذه التجارة فى الخليج لأنها كانت تعلم أن دخل سلطان عمان ، السنوى كان يزيد على ١٠٠,٠٠٠ ريال وأن دخل رعيته كان مرتبطاً بهذه التجارة أشد الارتباط ، وأن منعها بصورة سريعة سوف يلحق بالأهالى أضراراً اقتصادية جسيمة(٢). وقد لاحظ المقيم البريطانى فى الخليج (جون ماكوليد) فى مستهل عام١٨٢٣ ، بعد رحلته للخليج والجزيرة العربية ، بأن تجارة الرقيق فى منطقة الخليج لازالت رائجة رغم معاهدة الحظر ، وأكد

(١) جون كيل : ص٢٦ – ٣٢ .

(٢) جمال زكريا قاسم : المرجع السابق ، ص٢٤٧ – ٢٤٨ .

على هذا أحد قادة السفن البريطانية فى الخليج ، زاعماً أنه عثر فى السنة نفسها أى فى سنة ١٨٢٣ ، على أدلة هامة عن أستمرار تجارة الرقيق فيما بين ممتلكات سلطان عمان الأفريقية ومستعمرة موزمبيق البرتغالية ، وهى المناطق التى شملتها معاهدة ١٨٢٢ ، مع سلطان مسقط .(١)

وكانت نتيجة توقيع سلطان مسقط على معاهدة حظر تجارة الرقيق ، أن ثارت ولاية ممباسا ضد السلطات العمانية هناك ، وطلبت الحماية البريطانية التى قبلت ذلك دون تردد ، حيث قام قائد القوات البحرية البريطانية فى شرق أفريقيا (وليم اوين) بضم ممباسا والمناطق المجاورة إلى الممتلكات البريطانية، كما قام اوين ، بتوجيه أنذاراً فى شهر فبراير ١٨٢٤ ، إلى والى عمان ، على زنجبار ، بأنه فى حالة عدم موافقة سيده سلطان عمان وزنجبار فى وقف الأتجار بالرقيق فى الموانىء التابعة له ، فإنه سيفقد جميع ممتلكاته فى أفريقيا (٢) غير أن شركة الهند الشرقية الأنجليزية التى كانت تتزعم مكافحة تجارة الرقيق حينذاك ، رأت أن سلطان عمان وزنجبار ، قد قدم تنازلات هامة، وأن وقف هذه التجارة فى الموانىء التابعة له فى شرق أفريقيا لن تتم القضاء عليها نهائياً إلا بعد وقت طويل ، ورأت أنه لابد من وقف الضغوط على السلطان ، وسحب القوات البريطانية من ممباسا ومن المناطق التى كانت تابعة لسلطان عمان ، وتم انتزاعها منه . وبالفعل خرجت القوات البريطانية من ممباسا وغيرها ، وأعيدت مرة أخرى إلى حظيرة السلطان سعيد سلطان

(١) جون ب . كيلى : ص ٣١ – ٣٥ .

(٢) دونالد ويدنر : المرجع السابق ص١٤٩ .

عمان وزنجبار ، فى أكتوبر ١٨٢٧ م . وأوصد باب المناقشة بشأن تجارة الرقيق مع السلطان العمانى حتى ١٨٣٥ ، عندما جددت بريطانيا مطالبتها لسلطان مسقط تجديد المعاهدة السابقة . وقد جاء هذا الطلب البريطانى بوساطة المقيم السياسى البريطانى ولكن المقيم رأى عدم أثارة هذا الموضوع مع سلطان مسقط فى هذه الأونة ، وذلك بسبب توتر الوضع فى الجزيرة العربية والخليج، لأن محمد على والى مصر كان يقوم حينذاك بعمليات توسع داخل الجزيرة العربية ويسعى للوصول إلى الخليج ، وفى الوقت نفسه كان شاه إيران يقوم بالاستعداد للهجوم على منطقة الحيرة العراقية . ولهذا كله اقتنع فرانشFransh الذى حل محل جرانت حاكما على بومباى ، بوجهة نظر المقيم البريطنى فى الخليج ، وذلك بتجميد القضية إلى الوقت المناسب . واستمرت مجمدة حتى عام ١٨٣٨ ، حينما قام المقيم السياسى البريطانى فى الخليج بزيارة للشارقة يوم ١٧ أبريل من هذا العام ، وإجراء مباحثات مع حاكمها ، تركزت حول الشكوى التى تلقاها المقيم من أحد مشايخ الصومال ويدعى عبد الله بن عوض ، والتى زعم فيها أن القواسم اختطفوا ٢٣٣فتاة صومالية من مدينة بربرة الصومالية ، فى الأول من شهر ابريل ١٨٣٨ ، وقاموا ببيعهن فى منطقة الخليج .

وقد أنكر شيخ الشارقة أن يكون أحد من أتباعه قد قام بهذا العمل ، لأنهم يعلمون أن الصوماليين مسلمون وأن الإسلام لايجيز استرقاق المسلم . وبعد أن قام المقيم البريطانى بالتحرى عن هذه المسألة ، توصل إلىمعلومات مفادها أن البنات الصوماليات قد تم بيعهن من قبل بعض القبائل الصومالية إلى بعض تجار الرقيق ، وذلك على أثر قتال نشب فى منطقة (بربرة) بين

بعض القبائل هناك ، وكان من عادة القبائل فى تلك المنطقة بيع الأسرى الذين يقعون فى أيديهم أثناء الحرب . هذا وقد وقع المقيم البريطانى أثناء زيارته هذه للشارقة ، معاهدة حظر تجارة الرقيق ، أعطت هذه المعاهدة التى وقعت فى سنة ١٨٣٨ ، الطرادات البريطانية الصلاحية الكاملة فى مصادرة السفن التابعة للقواسم فى حالة ضبطها وهى تحمل رقيقاً للبيع ، وقع على هذه المعاهدة جميع شيوخ أمارات الساحل المتصالح(١) .

مكافحة تجارة الرقيق فى الخليج بين ١٨٣٩ – ١٨٤٩ م :

عقب توقيع شيوخ الساحل المتصالح على معاهدة ١٨٣٨ ، وافق سلطان عمان ، على توسيع معاهدة ١٨٢٢ ، السابقة ، وقد تضمنت المعاهدة الجديدة التى وقعها السلطان والمقيم البريطانى يوم ١٧ ديسمبر ١٨٣٩ ، فقرة جديدة هى المادة ١٥ ، التى أصبح بموجبها قيام الطرادات البريطانية بتفتيش السفن العمانية ومصادرتها فى حالة القبض عليها وهى تحمل رقيقاً بقصد البيع(٢). إلا أنه بالرغم من هذه المعاهدات فإن التقارير التى كتبت فى تلك الفترة كانت تؤكد أن هذه التجارة لم تتوقف ولذلك نرى بعد خروج محمد على والى مصر من شبه الجزيرة العربية فى عام ١٨٤٠ ، يصدر وزير الخارجية البريطانية (بالمرستون) فى ٨ يونيه ١٨٤١ ، تعليماته إلى حاكم عموم الهند ، القيام بإبلاغ زعماء الخليج بأنه لم يعد فى مقدور الحكومة البريطانية الامتناع عن

---

(١) عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم : المرجع السابق ، ص ٢٣٢ – ٢٣٣ ، وانظر كذلك جون ب. كيلى : ص٤٠ – ٤٤ .

(٢) ج.ج . لوريمر : دليل الخليج جـ ٦ ، الدرجة ، د.ث.، ص٣٥٢٨ – ٢٥٧٧ .

استخدام القوة المسلحة ضدهم لوقف تجارة الرقيق فى المنطقة . فى الوقت نفسه أظهر بالمرستون ، استعداد حكومته تقديم مساعدة مالية لسلطان عمان ، بواقع ٢٠٠٠ جنيه إسترلنى سنوياً تعويضاً له عن الضرائب التى كان يتقاضاها من تجار الرقيق . وهو فى الواقع يعد مبلغ رمزى عما سبق أن أشرنا أن السلطان كان يحصل على ١٠٠٠٠٠ ريال وهو يزيد عن ٥٠٠٠٠ جنيه استرلينى حينذاك من وراء ضريبة المكوس على هذه التجارة . أما بالنسبة لشيوخ الساحل المهادن ، فإن الوزير لم يعدهم بأية مساعدة مالية . ولكن حاكم عام الهند (اوكلاند) لم يؤيد قرار الوزير البريطانى ، بالتهديد باستخدام القوة ضد زعماء الخليج ، واقترح بدلا من ذلك ، عقد معاهدات صداقة . وتتضمن تعويض المتضررين من وقف هذه التجارة بدلا من التلويح باستخدام القوة ضدهم .(١)

وقد شددت بريطانيا عقب معاهدة ١٨٣٩ ، قبضتها على الملاحة العربية عن طريق مراقبة السفن الخليجية وتفتيشها ، ومصادرة السفن المخالفة ، وفرضت الغرامات على المخالفين للحظر .(٢) ومنذ سبتمبر ١٨٤٢ ، انتقلت مسؤلية مكافحة الرقيق من حكومة بومباى إلى حكومة لندن مباشرة وأصبحت حكومة لندن أكثر حزماً مع زعماء الخليج فى مسألة تجارة الرقيق ، إذ نرى وزير خارجيتها (ابردين) الذى حل محل بالمرستون ، يقوم بابلاغ سلطان مسقط فى رسالة بعثها إليه فى شهر يونيه١٩٤٣ ، هدد باستخدام القوة ضده فى حالة عدم منع رعاياه من مزاولة تجارة القيق .

(١) جون ب. كيلى : ص ٥٤ - ٧٤ .

(٢) بحوث مؤتمر دراسات شرق الجزيرة العربية ، جـ٢ ،ص٨٢٢ .

وعلى أثر تلقى السلطان هذا التهديد ، بعث فوراً وفداً رسمياً إلى لندن، كان برئاسة (الشيخ على بن ناصر) وكان الوفد يحمل رسالة إلى وزير الخارجية البريطانية ، أعرب فيها السلطان ، عن تقديره للحكومة البريطانية ، إزاء ما تبذله من جهود لوقف هذه التجارة ، ولكنه أكد أن وقفها فى ممتلكاته سيؤدى حتماً إلى انهيار الأوضاع الاقتصادية فى شطرى السلطنة (عمان وزنجبار) وأنه لن يتبقى لديه مورد مالى آخر لمواجهة أعباء الحكم ، ولكن إذا كانت بريطانيا جادة فى وقف هذه التجارة ، فإنه يجب عليها تعويضه عن خسائره المالية التى سيتكبدها أو على الأقل بجزء منها . غير أن الجانب البريطانى ، رفض مسألة التعويض ، وأبلغ الوزير البريطانى رئيس الوفد العمانى ، أن يبلغ سيده ، بأن عليه الالتزام بحظر هذه التجارة ، والبحث عن مورد آخر للرزق كالتجارة المشروعة(١) .

ومع أن سلطان عمان وزنجبار ، اضطر لمنح الطرادات البريطانية حق تفتيش سفنه وسفن رعاياه إلا أنه كان فى الواقع مستاء فى قرارة نفسه نتيجة ذلك ، على اعتبار أن فى هذا إهداراً لمركزه الإجتماعى بين رعاياه . وكان يرى أن بريطانيا تهدف من وراء مكافحة تجارة الرقيق تحقيق أهدافه سياسية محضة فى المنطقة ، بدليل أنها رفضت إشراك الدولة العثمانية معها فى إجراءات المكافحة (٢) . فقد اعترضت الحكومة البريطانية ، على الدولة العثمانية التى أصدرت فى عام ١٨٤٧ ، فرمان يسمح لوالى بغداد بإرسال

---

(١) جون ب. كيلى : ص٧٨ - ٧٩ ، ٣١٩ - ٣٢٣ .

(٢) د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى - القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص١٦٢ - ١٦٣ .

السفن الحربية التركية إلى مياه الخليج لمشاركة الطرادات البريطانية فى أعمال التفتيش على المراكب التى يشتبه فى أنها تحمل رقيقاً للبيع . وأعلن المقيم البريطانى فى الخليج على أثر صدور ذلك الفرمان ، أن الهدف الحقيقى لتركيا ، هو توطيد نفوذها أكثر فى منطقة الخليج والجزيرة العربية ، أكثر من العمل على قمع تلك التجارة(١) .

وفى الوقت الذى نرى فيه الحكومة البريطانية ، تمارس كل وسائل الضغط بما فى ذلك التهديد باستخدام القوة المسلحة ضد زعماء الخليج لمنع رعاياهم من مزاولة تجارة الرقيق ، يتقدم أحد رعاياها وهو الكابتن (كوجان) الذى إعتزل الخدمة فى الأسطول البريطانى ، إلى بعض التجار فى المنطقة، طالباً مده بعدد من الرقيق للعمل فى مزرعة قصب السكر التى إنشأها فى زنجبار فى علم ١٨٤٣ م .

وكانت الشركات البريطانية للبترول العاملة فى الخليج تقوم باستئجار هولاء الأرقاء من سادتهم ، وتدفع الأجور إلى أسيادهم على مرأى الحكومة البريطانية وعلمها . وهو ما يعتبر تناقضاً مع ما تقوم به بريطانيا ضد أهالى الخليج إزاء هذه التجارة(٢) .

وفى ٢ أكتوبر ١٨٤٥ ، وقعت معاهدة جديدة بين الحكومة البريطانية وبين سلطان عمان ، تعهد الأخير بالألتزام بحظر تجارة الرقيق ، كما خول

---

(١) عبد العزيز محمد المنصور : المرجع السابق ، ص١٣٦ .

(٢) جون ب. كيلى : ص٣٢٥ – ٣٢٧ وانظر : عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم : المرجع السابق ، ص٢٣٧ .

الصلاحية الكاملة لسفن المراقبة البريطانية ، فى اتخاذ الاجراءات المناسبة ضد سفن رعاياه التى تخالف قانون الحظر على أن يبدأ تنفيذ هذه المعاهدة فى الأول من يناير ١٨٤٧ م(١) .

وفى شهر أغسطس ١٨٤٦ ، عاد بالمرستون ، إلى الوزارة مرة أخرى، وفور تسلمه وزارة الخارجية ، بعث بتعليماته إلى المقيم السياسى البريطانى فى الخليج (هاملتون) أن يحذر زعماء المنطقة ، من أن الشعوب الأوروبية قد عقدت العزم على وضع حد لتجارة الرقيق الأفريقى ، وبأن العناية الألهية قد اختارت بريطانيا العظمى لتنفيذ هذه المهمة ، وفى ضوء ذلك فإنه يجب على زعماء الخليج التجاوب مع المطالب البريطانية بشأن هذه القضية(٢). ولتحقيق هذه الغاية ، وصل المبعوث البريطانى الميجور (هنيل) فى ٣٠ إبريل ١٨٤٧ ، إلى إمارة الشارقة ، وعقد فور وصوله اجتماعاً مع حاكمها ، وفى هذا الإجتماع تم التوقيع بين الطرفين على اتفاقية جديدة خاصة بحظر تجارة الرقيق الأفريقى ، ووقع عليها كذلك بقية شيوخ الساحل المتصالح تعهدوا بموجبها بتحريم نقل الرقيق من مكان إلى آخر ، كما قبلوا بمبدأ تفتيش سفنهم وسفن رعاياهم ومصادرة أى سفينة يتم ضبطها وهى تحمل رقيقاً للبيع. على أن تكون هذه الإتفاقية سارية المفعول اعتباراً من أول محرم ١٢٦٤ هـ / ١٠ ديسمبر ١٨٤٧م . وقد جددت هذه المعاهدة معهم فى مايو ١٨٥٦ ، وأيضاً فى عام

---

(١) دليل الخليج جـ٦ : ص٣٥٣٨ .

(٢) فؤائد سعيد العابد : ص١١٠ .

١٨٨٣م(١). ولكن على الرغم من معاهدات حظر تجارة الرقيق فإن التجار لم يلتزموا بها فقد ضبطت الطرادات البريطانية خلال عام ١٨٤٧ ، وحده على أكثر من ١٢ سفينة تابعة لمسقط أثناء إبحارها فى مياه الخليج وهى تحمل عدداً كبيراً من الرقيعه الحبشى بقصد بيعهم فى البصرة ، وتم احتجازها مع بحارتها فى ميناء بوشهر ، وعند استجواب ملاحى هذه السفن عن سبب أنتهاكهم للحظر ، قالوا إنهم كانوا يعتقدون أن الحظر لا يشمل الأحباش . وعند بحث هذه المسألة مع حكومة الهند ، وجد المدعى العام فى الهند ، أن معاهدة ١٨٤٥ ، مع سلطان عمان ، لاتتضمن أى بند بمحاكمة قباطنة السفن المخالفه للحظر ومن ثم أفرج عن السفن المحتجزة وبحارتها ، وتم أطلاق حرية من بداخلها من الأرقاء . ولكن المدعى العام فى الهند أوصى حكومته بضرورة تعديل معاهدة ١٨٤٥ ، بحيث تجيز للمحاكم البريطانية أتخاذ اللازم فى مثل هذه القضايا(٢) .

وبعد أن أصبحت ولاية صحار ، التى كانت مستقلة عن مسقط تنافس العاصمة مسقط على تجارة الرقيق ، وقع المقيم السياسى البريطانى فى الخليج مع حاكمها (السيد سيف بن حمود) أتفاقية مشابهة لتلك التى وقعت مع سلطان مسقط ، وشيوخ الساحل ، وقد وقعت هذه الأتفاقية يوم ٢٢ مايو ١٨٤٩ ، قبل حاكم صحار ، بموجبها ، الامتناع عن استيراد الرقيعه الأفريقى ، وبالسماح لسفن المراقبة البريطانية ، بحق تفتيش السفن التابعة له ولرعاياه،

(١) نص الاتفاقية فى هذه الوثيقة (I .O .L. /P and S/ 7/195 . Apr ., 1847) ، وانظر كذلك : عبد العزيز محمد المنصور : المرجع السابق ص٦٧ .

(٢) جون ب. كيلى : ص٣٤٦ - ٣٦٥ .

ويمصادرتها فى حالة القبض عليها وهى تحمل رقيقاً للبيع ومعاقبة القائمين على هذه التجارة من قبل السلطات البريطانية .(١)

العمليات المنظمة لمكافحة تجارة الرقيق فى الخليج :

بعد تزايد عملية تهريب الأفارقة من قبل تجار الرقيق الخليجين فى القرن التاسع عشر ، رأت الحكومة البريطانية إنه لابد من اتخاذ إجراءات أكثر صرامة وحزماً ضد المخالفين لقانون الحظر ، فعينت فى أوائل عام ١٨٥٥ ، أحد ضباط البحرية البريطانية ، ويدعى (ترونسون) القيام بمهمة مكافحة هذه التجارة فى الخليج ، لكن هذا الرجل رأى بعد فترة من وجوده فى المنطقة أن سفن المراقبة التى تعمل فى شرق أفريقيا والخليج والبحر الأحمر والمحيط الهندى ، غير كافية ، ولذلك فقد اقترح على حكومته ضرورة إنشاء أسطول بحرى من السفن التجارية المجهزة بالتجهيزات اللازمة لتحقيق المهمة لمنع سفن التهريب وضبطها . ووفقا لهذا الاقتراح قامت الحكومة البريطانية فى عام ١٨٥٦ ، بإدخال الطرادات الحديثة فى الخدمة البحرية لمكافحة تجارة الرقيق فى الخليج ، واشتركت السفينة (فوكلاند) و(دجلة) وسفينة الحراسه الملكيه (لندن) فى هذه المهمة . وقد أدت هذه الأجراءات الجديدة إلى تقليل عملية نقل هؤلاء الأفارقة إلى الخليج خلال عام ١٨٧١ ، ١٨٨٣ م . ولكن هذه التجارة عادة إلى الانتعاش من جديد منذ بداية عام ١٨٨٤ م(٢) . ويعزوا المراقبون هذا إلى تخلى بعض السفن عن المراقبة ، وإلى المجاعة التى كانت

---

(١) دليل الخليج جـ٦ ، ص٣٥٧٨ .

(٢) دليل الخليج جـ ، ص٣٦٠٢ – ٣٦١١ .

يحتاج بعض مناطق شرق أفريقيا حينذاك ، والتى أدت إلى أنخفاض ثمن الرقيق إلى ستة شلنات ، وإن كان هذا الثمن مبالغاً فيه. وفى نهاية عام ١٨٦٩ ، قدم وزير الدولة للشئون الخارجية البريطانية (إيراف كلاراندون Earlof Clarendon) تقريراً إلى حكومته حمل فيه القنصل البريطانى فى زنجبار المسئولية الكاملة عن تهريب الرقيق من شرق أفريقيا ، كما اقترح اقتسام نفقات مكافحة تجارة الرقيق مناصفة بين الخزانة الإمبراطورية والخزانة الهندية(١) .

وقد ازدادت عملية جلب الرقيق ، بعد وفاة سلطان عمان وزنجبار السيد سعيد عام ١٨٥٦ ، وعجز السلطان الجديد على زنجبار السيد ماجد بن سعيد، عن السيطرة على الموقف فى البلاد ويقدر المعتمد البريطانى فى زنجبار ، عدد الرقيق الذين تم شحنهم من زنجبار وممباسا ، إلى الخليج قبل عام ١٨٦١ ، بما يزيد عن عشرة آلاف شخص .

وكان معظم الرقيق يجلب من المناطق الداخلية مثل بحيرتى نياسا وتنجانيق إلى زنجبار ، ومنها ينقلون إلى الخليج والجزيرة العربية ،ويقدر عدد ما ينقل من هؤلاء إلى الخليج والجزيرة بعشرين ألف شخص سنوياً .

وفى عام ١٨٦٩ ، أرسلت السلطات البريطانية فى الهند عدداً من السفن المسلحة إلى سواحل البحر الأحمر وشرق أفريقيا ، لمنع تدفق العمانيين على

(١) العلاقات العربية الأفريقية - دراسة تاريخية اللبية للإستعمار ، معهد البحوث والدراسات العربية - القاهرة ، ١٩٧٧ ، ص١١٦ - ١١٧ .

زنجبار الساخطين على السلطان ماجد المنحاز إلى السلطان سالم بن ثوينى ، الذى أستولى على الحكم فى عمان .

وقد أرسلت تلك السفن إلى تلك الجهات لأحباط أية محاولة لخطف المزيد من الأفارقة أنتقاماً من السيد ماجد . وتمكنت الطرادات البريطانية بين عامى ١٨٦٩ و ١٨٧٠ ، اعتراض وتفتيش أكثر من ٤٠٠ سفينة تابعة لعرب الخليج، وتدمير ١٣ سفينة ، والإفراج عن ٢٠٠٠ من الأفارقة ممن كانوا على ظهر سفن التجار . وهو رقم ضئيل حسب أقوال بعض المؤرخين لايمثل سوى العشر مما تم تهريبهم إلى الخليج فى تلك الفترة(١) . وكان يتم محاكمة المخالفين لقانون الحظر أمام أقرب محكمة بريطانية ، وكانت عدن ، الرأس الأخضر ، وبمباى ، من أهم الأماكن التى كان يحاكم فيها المخالفين ، ثم أصبحت زنجبار بعد عام ١٨٧٠ ، من بين المناطق التى يحاكم فيها المتهمون بمخالفة قانون حظر تجارة الرقيق(٢) .

وبعد وفاة سلطان زنجبار ، ماجد بن سعيد فى نهاية عام ١٨٧٠ ، تولى بعده حكم البلاد السلطان برغش ، بمساعدة بريطانيا.

وفى ١٢ يناير ١٨٧٣ ، وصلت بعثة بريطانية برئاسة السيرفريربرتر Sir Frere Bartr إلى زنجبار لتوقيع معاهدة جديدة تحل محل معاهدة ١٨٤٥ ، وقابلت البعثه فى اليوم التالى من وصولها السلطان برغش ، وعرضت عليه أقتراحاً يقض بتوقيع معاهدة يلتزم بموجبها بالغاء تجارة

---

(١) جون ب. كيلى : ص٤٠٠ - ٤٢٩ .

(٢) زاهر رياض : ص٨٧ ، وانظر جمال زكريا : ص ٢٥٨ .

الرقيق فى ممتلكاته التى أستقل بها عن سلطة مسقط ، والقيام بحماية الذين يتم تحريرهم من إعادتهم إلى العبودية . ولكن حدث ما لم يكن متوقعاً ، فقد رفض السلطان التوقيع على مثل هذه المعاهدة . واضطرت البعثة إلى مغادرة البلاد يوم ١٥ فبراير إلى مسقط فى محاولة أخرى لإقناع سلطانها بالتوقيع على معاهدة تنهى تجارة الرقيق فى ممتلكاته . ونجحت البعثة هنا فى إقناع السلطان (تركى بن سعيد) فى التوقيع على معاهدة جديدة يوم ١٤ إبريل ١٨٧٣ م ، حلت محل معاهدة ١٨٤٥ م . وقد تعهد السلطان ، بمنع استيراد الرقيق إلى السلطنة ، وإغلاق جميع أسواق الرقيق فى ممتلكاته ، وأعطى سفن المراقبة التابعة للبحرية البريطانية ، الحق فى تفتيش ومصادرة أى سفينة يقبض عليها وهى تحمل رقيقاً للبيع ، وكذلك محاكمة بحارتها .

وقد نجحت البعثة فى مهمتها فى مسقط ، نتيجة تعهد رئيس البعثة (فرير) للسلطان ، بدفع حكومته التعويضات التى كان يحصل عليها من وراء تجارة الرقيق(١) . بينما يعودا إخفاق مهمة البعثة فى زنجبار إلى عاملين :

الأول : عدم تعهد رئيس البعثه لسلطان زنجبار ، بتعويضه عن الأموال التى كان يحصل عليها من تجارة الرقيق .

الثانى : تعهد فرنسا للسلطان برغش ، بوقوفها إلى جانبه ضد أى تهديد بريطانى يستهدف استقلاله(٢) . وقد استقبلت الحكومة البريطانية نبأ توقيع

(١) دليل الخليج جـ ٦ ، ص٣٥٨٠ .

(٢) بدر الدين عباس الخصوصى : دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر، جـ٢ ، ذات السلاسل ، الكويت ،١٩٨٨ ، ص٤٥ .

سلطان مسقط على معاهدة ١٨٧٣ ، بالارتياح حين استقبلت نبأ رفض سلطان زنجبار التوقيع على معاهدة ، بالغضب ، وهددته بواسطة قنصلها هناك ، بأنها ستفرض على بلاده حصاراً بحرى فى حالة إصراره على رفض التوقيع على المعاهدة المعروضة عليه . وقد حاول السلطان برغش ، شرح أسباب رفضه للجانب البريطانى ، بأنه فى حالة توقيعه على منع هذه التجارة فإن شعبه سوف يثور عليه ، وذلك لأن الزراعة والأعمال الأخرى فى البلاد قائمة على هؤلاء الأرقاء ، وأن وقف هذه التجارة سيؤدى إلى القضاء على الزراعة فى البلاد وتعطيل بعض الأعمال الأخرى ، وذلك نظراً لقلة اليد العاملة . كما أشار إلى أن الرق تؤيده الشريعة الإسلامية . ولكن هذه المسوغات لم تقنع الجانب البريطانى . وأصرت الحكومة البريطانية على موقفها بأنها ستلجأ إلى الحصار البحرى إذا أصر السلطان على رفض المعاهدة المقترحة وهنا لم يجد السلطان بداً من التوقيع على المعاهدة فى الخامس من يونيه ١٨٧٣ م . وقد تعهد سلطان زنجبار ، بغلق أسواق الرقيق فى ممتلكاته ، وبحماية الأرقاء المعتقين ، وبمحاكمة كل من يقبض عليه وتثبت إدانته بالعمل بتجارة الرقيق ، وذلك أمام المحاكم البريطانية(١) .

وفور إبرام بريطانيا هذه المعاهدة مع كل من سلطان مسقط وزنجبار ، كثفت سفنها دورياتها فى موانىء إفريقيا والخليج ، كما كلفت سفينة الحراسة (لندن) بالبقاء فى ميناء زنجبار ، لمراقبة السفن القادمة والذاهبة من وإلى

---

(١) عبد العزيز محمد النصور : ص٦٧ ، وأنظر : زاهر رياض :ص٨٨ - ٩٠

الميناء . وهذا ماجعل التجـــار العمـانين يلجئـون إلـى نقـل رقيقهـم سـراً مـن شرق أفريقيا مروراً بالصومال إلى خليج عدن ، ومنهـا إلـى حضرمـوت ثـم ينقلون براً إلى داخل عمان ومنها كان يتم توزيعهم داخل بقية إمـارات الخليـج العربى. كما أن ربابنة السفن العمانية ، أستطاعوا إيهام سفن المراقبة على أن شحناتهم من الزنـوج لا تتكـون مـن عبيـد وإنمـا مـن رجـال يقومـون بـإدارة المجاذيف(١) .

مؤتمر بروكسل عام ١٨٩٠ م :

فى سنة ١٨٩٠ ، عقد مؤتمر فـى العاصمـة البلجيكيـة بروكسـل ، لبحـث تجارة الرقيق الأفريقى ، وفى نهاية الإجتماع أصدر المؤتمـرون قانونـاً يحـرم تجارة الرقيق وتضمنت المـادة ٢٧ منـه بـأن أى عبد يلجـأ إلـى أى سـفينة أو قنصلية من قناصل الدول الموقعه على هذا القانون وجـب عليهـا تحريـره فـى الحال . أما المادة ٢٨ منـه ، فقد أوجبت تحريـر العبـد سـيده ، ويكـون ذلـك بواسطة قيام أحد ممثلى البلدان الموقعة بالتوسط لدى سيده . والـدول الموقعـة هى : بريطانيا ، فرنسا ، وتركيا وهى الـدول ذات النفـوذ حينـذاك فـى منطقـة الخليج . ويذكر (لوريمر) أن عددا من العبيد فى منطقة الخليج العربـى ، بعـد إعـلان قـانون مؤتمر بروكسـل ، لجـؤوا إلـى السـفن الإنجليزيـة الراسـية فـى الموانـىء الخليجيـة ، أو إلـى المفوضيـات البريطانيـة فـى المنطقـة طـالبين التحرر ، وكان يتم تحريرهم بعد أن تتوسط السلطات البريطانية لدى أسيادهم .

---

(١) جون ب. كيلى : ص٣٨٨ - ٣٩٧ ، وأنظر كذلك ، صـلاح العقـاد : المرجـع السابق ص١٦٥ .

كما ألزمت بريطانيا زعماء المنطقة بعدم إعادة استرقاق من تم تحريره مرة أخرى .

وقد سعى المقيم البريطانى فى الخليج ، لدى أهالى المنطقة إلى تحرير عبيد المنازل ، لكن هذا المطلب لاقى معارضة من الأهالى ، بدعوى أنهم لايستطيعون الاستغناء عن خدماتهم (١) .

الرقيق المكرانى - الإيرانى :

فى عام١٨٨٤ تم ضبط عصابة من البلوش فى ساحل الباطنة فى عمان، وهى تقوم ببيع الرقيق البلوشى - المكرانى ، إلى أهل عمان . وقد تم محاكمة أفراد هذه العصابة من قبل السلطة البريطانية ، ومعاقبتهم وإطلاق حرية الأفراد الذين كانوا بحوزة رجال العصابه . وكان من أهم الذين كانوا يتاجرون بالرقيق البلوشى (سيد خان) والمير بركات أمير (جاسك الإيرانية) وعلى رضا خان - زعيم (باشكار) ويعتبر هذا الأخير من أكبر تجار الرقيق قام بتصدير عدد كبير من الرقيق المكرانى إلى صحار ، وإمارات الساحل المتصالح . وكانت ولاية (صور) تعتبر المحطة الرئيسية لاستقبال الرقيق البلوشى المكرانى ، ومنها كان يتم نقلهم إلى منطقة الباطنه ، وبالتالى يتم توزيغهم داخل ولايات عمان وإمارات الساحل المتصالح ، ثم ينقل بعض منهم عن طريق البحر إلى بقية إمارات الخليج والبصرة وكان عبد الله جمغدار الحاكم العسكرى لصحار ، من أكبر المستوردين للرقيق المكرانى .

---

(١) دليل الخليج : جـ٦ ، ص٣٥٨١ - ٣٥٩٥ ، ٣٦٢٦ - ٣٦٢٩ .

ويؤكد المقيم السياسى البريطانى فى الخليج (كوكس) الذى قام بزيارة لصور فى يونية ١٩٠٠ ، أن عدد الرقيق البلوشى ، الذى وصل خلال هذا العام إلى ميناء صور يزيد عن ألف شخص ، وكانت السفن التى تنقلهم ترفع العلم الفرنسى . والجدير بالذكر أن السفن العمانية ، بدأت ترفع فوقها منذ عام ١٩٠٠ ، العلم الفرنسى تفاديا من التفتيش من قبل الطرادات البريطانية . وقد أبلغت الحكومة البريطانية ، سلطان عمان فى سنة ١٩٠١ ، أنه لايملك التحلل من مسئوليته تجاه رعاياه الذين يرفعون علماً أجنبياً .

وقد ازدهرت تجارة الرقيق البلوشى فى صور ، فى العقد الأول من هذا القرن ، حتى وصل ثمن العبد منهم إلى ٢٠٠ دولار ، والفتاة إلى ٣٠٠ دولار، وهو ثمن يعتبر مرتفعاً جداً عما كان عليه سعر العبد الأفريقى(١) .

وكان قناصل فرنسا يشجعون العمانين على مزاولة هذه التجارة ، لأن الفرنسيين كانوا يجدون فى عرقلة المساعى البريطانية ، للقضاء على تجارة الرقيق متنفساً لهم ولا سيما فى الفترات التى تتأزم بها العلاقات بين البلدين ولكن بعد وفاق الدولتين الفرنسية والبريطانية فى عام ١٩٠٤ ، وبعد إدانة محكمة لاهى لفرنسا فى سنة ١٩٠٥ ، بالسماح برفع علمها فوق سفن تجار الرقيق ، أخذت فرنسا تكافح هذه التجارة وبالذات التصدى للسفن التى ترفع علمها(٢) .

---

(١) دليل الخليج جـ٦ ، ص٣٦٣٣ - ٣٦٣٧ ، وأنظر كذلك : عبد العزيز محمد المنصور : المرجع السابق ، ص٦٨ .

(٢) جون ب. كيلى : ص٤٤٠ - ٤٤٣ .

تكاليف مكافحة تجارة الرقيق فى الخليج :

فى شهر مارس ١٨٧١ ، تقدم وزير الخارجية البريطانى ، بطلب إلى وزير الخزانه (جرانفيل) طالباً اعتماد المبالغ اللازمة لتمويل مكافحة تجارة الرقيق فى شرق أفريقيا ، لكن وزير الخزانه ، رفض هذا الطلب بدعوى أن حكومة الهند هى المسئولة عن تمويل هذه العملية(١) . وقد استمرت حكومة الهند متحملة عبء تكاليف المكافحة حتى عام ١٨٧٣ ، عندما أبلغت حكومة بومباى حكومة لندن ، أنه لم يعد بمقدورها الإستمرار فى تحمل هذا العبء ، وأنه يجب على حكومة لندن نفسها تحمل هذه المسئولية وحدها وازاء هذا القرار لم تجد حكومة صاحبة الجلالة بداً من تحمل هذه النفقات منذ أوائل عام ١٨٧٤ م إلا أن نقل الرقيق المحرر إلى الهند أستمر حتى عام ١٧٨٩ ، ففى هذا التاريخ توقف نقلهم إلى الهند على أثر أعتراض حكومة بومباى على ذلك بحجة أن هؤلاء البشر أصبحوا يشكلون عنصر أضطراب متزايد فى البلاد ، واقترحت نقلهم إلى زنجبار ، بدلا من إرسالهم إليها .

وقد رحب سلطان زنجبار ، بالفكرة ووافق على استقبالهم فى بلاده . ووفقاً لذلك بدأ نقل أولئك المحررين إلى زنجبار منذ مطلع عام ١٨٩٠ ، حيث تم أستخدامهم فى مزارع السلطان والطبقات الغنية هناك وذلك مقابل حصولهم على أجور متفق عليها .

وكانت الغرامات التى تفرض على المخالفين لقانون حظر تجارة الرقيق، يتم تسديد منها نفقات مصاريف النقل إلى زنجبار(٢) .

---

(١) كيلى : المصدر السابق ، ص٤٢٩ .

(٢) دليل الخليج : جـ ٦ ، ص٣٥٩٩ - ٤٦٠١ .

الخاتمة :

أن الدارس لقضية تجارة الرقيق فى المجتمعات الإسلامية بصفه عامة وفى منطقة الخليج العربى خاصة ، وبالمقارنه لما عليه حال الرقيق فى أوربا، يجد الفرق شاسعاً ، فعلى سبيل المثال نجد المقيم البريطانى فى الخليج (ارنولدكمبول Arnold Kemball) يقول : أن معاملة العرب للعبيد لم تتسم بالعنف أو القسوة ، فقد كان يتم حل قيودهم أثناء رحلتهم من شرق إفريقيا إلى الخليج، وكانت تقدم لهم الوجبات الغذائية الكافية من الأرز والسمك والتمر ، كما تقدم إليهم الملابس لستر أبدانهم ، حتى إذا وصلوا إلى أسيادهم كانوا يمارسون أعمالهم بصيد اللؤلؤ والأسماك ، وفى مجالات مختلفة دون اضطهاد . وكان السيد يزوج عبده بإحدى الرقيقات ويستمر يرعاه ويرعى ذريته حتى بعد وفاته(١) .

بل أن الوثائق البريطانية ، تذكر أن العبد بمجرد وصوله إلى منطقة الخليج والجزيرة العربية يصبح فى وضع أفضل مما كان عليه فى وطنه . حيث أن العبد الذى كان يعمل فى حرس الشيخ (فداوى) يكون أفضل حالا من حر عربى وأن العبد إذا تم تحريره لايفضل مغادرة بيت سيده العربى ، لأن العرب كانوا يعاملون عبيدهم معاملة أبنائهم ، يعلمونهم القراءة والكتابه ، ويسندون لهم الكثير من الأعمال التجارية والشئون الماليه . وكان العبد بمجرد أعتناقه الإسلام ، يصبح كأى فرد من أفراد المجتمع أبناء البلاد الأصليين ويتولى المناصب الرفيعه فى الدوله الإسلامية . وترجع الوثيقه

(١) جمال زكريا قاسم : دولة بورسعيد : ٢٤٥ -٢٤٦ .

سبب معاملة العرب والمسلمين بصفه عامه ، لعبيدهم بهذه المعاملة الحسنة إلى تمسكهم بالمبادىء الإسلامية التى تحث المسلم على معاملة عبده أو خادمه بالمعاملة الحسنه ، حيث يطعمهم مما يأكل ويكسيهم مما يلبس(١) بل أن لفظة عبد لا تقال لهم وانما كان يناد على كل فرد بإسمه . وكانت (الأمة) حينما تلد تصبح أم الولد حسب تعاليم الشريعة الإسلامية ، وترفع بذلك إلى مصاف الأحرار ، ويرث إبنها أباه . وهذه المعاملة الإسلامية لعبيدهم ، فى الواقع عكس معاملة الغرب المسيحى لمثل هؤلاء ، فقد كانوا يكبلون عبيدهم طيلة الرحلة ، واحياناً يمنع عنهم الأكل ، وعند وصول العبد إلى سيده كان يعامل معاملة قاسيه ، ويمنع من التعليم والزواج .

واتصفت معاملة الاوروبين لهؤلاء البشر بالقسوة البالغة ، حتى شكلت هذه الفئة البائسة فى تلك المجتمعات مجموعة مضطهده ، مقهورة لاحقوق لها بتاتاً ، وهى مشكلة لايزال أهل البشرة السوداء رغم تحريرهم يعانون منها حتى يومنا هذا على الرغم من أن الغرب المسيحى يدعى أنه من أنصار الحرية . والعدالة ، وهى دعوة يدحظها الواقع .

وكان هذا الخلاف فى النظرة إلى الرقيق بين أبناء الخليج والأوروبين، سبباً من أسباب حقد وكره أبناء هذه المنطقة على الإنجليز ، حينما أرادوا وقف عملية تجارة الرقيق باللجوء إلى حرق ومصادرة السفن العربية ، واعتبروها إجراءات ظالمة ، وتدخل غير مقبول فى شؤونه الداخلية(٢) . وقد

---

(1) F.O.371/17822. Slave Trade in the Gulf .

(٢) محمد مرسى عبد الله : دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها ، الكويت ، ١٩٨١، ص٤٨ - ٤٩ .

كان أولى لبريطانيا أن لاتكافح تجارة الرقيق فى الخليج بالاتفاقيات التى تسندها القوة المسلحة وانما كان يجب التعاون بينها وبين شعوب المنطقة بشأن هذه القضية للأخذ بأساليب الحضارة الحديثه الراقيه البعيدة عن العنف والتسلط (١) .

ولكن بريطانيا فى واقع الحال لم تكن مهيأة لأن تقوم بدور ناشر الحضارة فى بلاد العرب ولهذا اتخذت من مكافحة الرقيق أداة للتدخل فى شئون الخليج الداخلية ، بما فى ذلك حق محاكمة المخالفين لأوامر الألغاء ، واتسمت هذه المحاكمات بالعنف وبروح الاستعلاء حتى تعرضت بريطانيا لانتقاد بعض الكتاب الانجليز أنفسهم أزاء هذه الأجراءات التى أتخذت ضد تجار الرقيق فى الخليج وكانت إجراءات مكافحة الرقيق حجة للسيطرة على منطقة الخليج العربى ، والتدخل المستمر فى جميع المشكلات السياسية والعسكرية التى شهدتها المنطقة بالمعنى الجغرافى الواسع .

ومما يعضد ذلك كله أن التدخل البريطانى امتد من الخليج إلى بغداد ، من جهة ومن جهة ثانية قاومت بريطانيا الأجراءات العثمانية لتسليح شط العرب ، كما أخذت تتوسط فى الخلافات على حدود ولاية بغداد بين الدولة العثمانية وفارس ، وأصبحت طرفاً فى المعاهدة التى وقعت سنة ١٨٤٧ ، بهذا الشأن بين بغداد وطهران . وحلت الملاحة البريطانية محل الملاحة العربية ، وأصبحت أهم وسيلة لنقل التجارة الخارجية بين فارس وولاية بغداد من جهه وبين الشرق الأقصى وأوروبا من جهه ثانية ولما كانت فاس كسوق

(١) عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم : ص٢٣٥ - ٢٣٧ .

للاستهلاك تتقدم على القسم العربى من الخليج ، فقد أهتمت بريطانيا بفتح الطرق البريه بين موانىء الخليج وبين مراكز العمران فى فارس . وأخذت بريطانيا تتغلغل فى المجالات الأقتصادية داخل الوطن العربى وفارس منذ بداية القرن الحالى . ويمكن القول أن بريطانيا صارت تعتبر الخليج بحيرة بريطانية أطلقت عليها بالفعل اسم (السلام البريطانى Pax Britainica) (١) وسبق أن أشرت إلى أن الشركات البريطانية للبترول العامله فى الخليج ، كانت تؤجر الرقيق من سادتهم وتدفع الأجر لأولئك السادة على مرأى وعلم الحكومة البريطانية ، وهو ما يؤكد القول أن بريطانيا اتخذت من محاربة تجارة الرقيق فى الخليج ، ذريعة لتضليل الرأى العام العالمى لأخفاء حقيقة نياتها لبسط سيطرتها على المنطقة ، متخذة من الأتفاقات التى فرضتها على حكامها صفة الشرعية أو القانونية وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول أن الدور الذى قامت به بريطانيا، كان لخدمة مصالحها السياسية والأقتصادية ، ولايخدم الدورالحضارى الذى حاولت الظهور به.(٢) ويبدو هذا جليا للمتتبع لتاريخ الصراع بين البريطانين والفرنسيين على مسقط والساحل الأفريقى ، فالخوف من أستثراء النفوذ الفرنسى فى الساحل الأفريقى والخليج ، كان العامل الرئيسى الذى وجه البريطانين إلى استخدام الضغط على شيوخ الخليج للتوقيع على اتفاقيات لمنع تجارة الرقيق .

---

(٥٩) صلاح العقاد : المرجع ،ص١٦٦ – ١٧٢ .

(٢) عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم : ص٢٣٨ ، وانظر كذلك ، فؤاد سعيد العابد : ص١١٥ .

مع أن الرأى العام البريطانى لم يكن ليهتم فى كثير أو قليل لالغاء الرقيق فى البلاد العربية لأنها لن تؤثر فيه كما أثرت قرارات الغاء تجارة الرقيق فى بريطانيا نفسها(١) وأن توقفها فى المنطقة العربية وبالذات فى منطقة الخليج، لم يكن نتيجة لما قامت به بريطانيا من اجراءات ظالمة ضد أهالى الخليج من حرق ومصادرة لسفنهم ، وما فرضته من غرامات ماليه عليهم ، وإنما كان توقفها نتيجة قناعة الأهالى بذلك ، لأن تحرير الرقيق أصل من أصول المبادىء الإسلامية ، وأن الرق فى الإسلام كان مقيداً بمبدأ المعاملة بالمثل ، وبمجرد التزام الآخرين بالأمتناع عن هذه العملية التزم العرب بها كذلك .

كما أن الظروف التى خلقت هذه التجارة لم يعد لها أهمية فى منطقة الخليج بوجه خاص بعد أستخراج البترول وتصديره وانتعاش التجارة والأعمال الأخرى ، وتحسن أحوال الأهالى المعيشية نتيجة للنهضة الإقتصادية . أى أنه يمكن القول أن توقف تجارة الرقيق فى منطقة الخليج ، كان قناعة تامة من أهالى المنطقة بتحريمها وليس نتيجة لما قامت به بريطانيا فى المنطقة كما تزعم هى فى مصادرها المختلفة .

وفى الواقع توقفت هذه التجارة بشكل فعلى فى منطقة الخليج العربية ، فى منتصف الستينات من هذا القرن تقريباً .

المراجع :

١ - ج. ج. لوريمر : دليل الخليج جـ٦ - الدوحة ، د. ت.

---

(١) صلاح العقاد : ص١٦٦ .

٢ - جون ب. كيلى : بريطانيا والخليج (١٧٩٥ - ١٨٧٠) جـ٢ ، ترجمة محمد أمين عبد الله ، القاهرة ، ١٩٧٩ م .

٣ - د. عبد العزيز عبد الغنى إبراهيم : علاقة ساحل عمان ببريطانيا، (دراسة وثائقية) الرياض - ١٩٨٢ م .

٤ - د. شوقى الجمل : تاريخ كشف أفريقيا وأستعمارها ، القاهرة ، ١٩٨٠ م .

٥ - د. فؤاد سعيد العابد : سياسة بريطانيا فى الخليج العربى ، خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ذات السلاسل - الكويت ، ١٩٨١ م .

٦ - زاهر رياض : استعمار أفريقية ، القاهرة ، ١٩٦٥ م .

٧ - د. جمال زكريا قاسم : دولة بورسعيد فى عمان وشرق أفريقا (١٧٤١ - ١٧٦١) ، القاهرة ،١٩٦٧ م .

٨ - د. عاصم الدسوقى : دراسات فى التاريخ الاقتصادى ، القاهرة ، ١٩٨١ م .

٩ - د. صلاح العقاد : التيارات السياسية فى الخليج العربى ، مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة ، ١٩٧٤ م .

١٠ - د. بدر اللدين عباس الخصوصى : دراسات فى تاريخ الخليج العربى الحديث والمعاصر ، جـ٢ ، ذات السلاسل - الكويت ، ١٩٨٨ م .

١١ - محمد مرسى عبد الله : دولة الإمارات العربية المتحدة وجيرانها، الكويت - ١٩٨١ .

١٢ - عبد السلام الترمانينى:الرق، ماضيه وحاضره ، الكويت ١٩٧٧م.

١٣ - العلاقات العربية الأفريقية - دراسة تاريخية للآثار السلبية للإستعمار ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ١٩٧٧ م .

١٤ - جاك ووديس : جذور الثورة الأفريقية ، ترجمة : أحمد فؤاد بلبع، القاهرة ، ١٩٧١ م .

١٥ - دونالد ويدنر : تاريخ أفريقيا (جنوب الصحراء) ترجمة : د. راشد البراوى ، القاهرة ، د. ث ، الطبعة الإنجليزية ١٩٦٢ م .

١٦ - الشيخ / سعيد بن على الغيرى : جهينة الأخبار فى تاريخ زنجبار، عمان ،١٩٨٦ م .

١٧ - د. عبد العزيز محمد المنصور : التطور السياسى لقطر (١٨٦٨ - ١٩١٦) ط٢ ، ذات السلاسل - الكويت ، ١٩٨٠ م .

١٨ - مؤتمر دراسات تاريخ شرق الجزيرة العربية ، جـ٢ ، الدوحة - قطر ، ١٩٧٦ م .

١٩ - د. سلطان بن محمد القاسى : تقسيم الأمبراطورية العمانية ، (١٨٥٦ - ١٨٦٢ م) ، ط الأولى ، مؤسسات البيان - دبى ، ١٩٨٩م .

20 - F.O. 371/17822 . Slave Trade in the Gulf .

21 - I.O.L./P.S/ 7/ 195.35 April , 1847 .

22 - Mac Millan , w .: Africa Emergen/ , London , 1949 .

23 - Donald L. Wiedner : A History of Africa : South of the Sahara , New York , 1962 .

مجلس التعاون الخليجى

بين الأمن الإقليمى والتحديات الخارجية

د. محمد حسن العيدروس

كلية الآداب - جامعة الكـويت

مقدمة :

يتناول هذا البحث مجلس التعاون الخليجى بين متطلبات الأمن الإقليمـى والأمـن القومـى، والتحديـات الخارجيـة، لأن الأمـن العربـى فـى هـذه الـدول يتعرض للتهديد والتحديات الخارجية وليس الأمن الإيرانى، فقد تحررت إيران من السيطرة الأمريكيـة بعـد قيـام الثـورة الإسـلامية وإسـقاط الشـاه الشـرطى الأمريكى فى الخليج العربى، الذى لم يكن يهدد أمن الدول العربية فى الخليـج فحسب، إنما الأمن القومى العربى بتعاونه الوثيق مع اسرائيل .

ولهذا فـإن الأمـن العربـى لـدول مجلـس التعـاون الخليجـى هـو المعنـى بالتحديد، نظراً لانحسار المصالح الأمريكيـة مـن جمهوريـة إيـران الإسـلامية وفقدانها السيطرة على نفط العراق وإيران، وبالتالى ازداد التحـدى والمخـاطر بعدمـا اعتبرت الولايـات المتحـدة أن منـابع النفـط فـى دول مجلــس التعــاون الخليجى من أمنها القومى، مما شكل تهديداً للأمـن القومـى العربـى، لأن دول مجلس التعاون الخليجى جزء من الأمة والوطن العربى.

ويتناول البحث فى البداية الأمن الإقليمى والمخططات الأمريكية لإيجاد نوع مـن الأمـن الإقليمـى ومشـروع سيسكو - روجـرز والمشـاريع الأخـرى

كالمشروع الإيرانى والعمانى والكويتى ثم تأتى بعد ذلك دراسة الأمن القومى العربى .

وننتقل إلى التحديات الخارجية وخاصة التهديدات الأمريكية للمنطقة والتخوف على مصالحها وخاصة من انقطاع النفط أو ارتفاع أسعاره، وبعدها التهديد السوفيتى الذى كان قائماً حتى مجئ غورباتشوف، ولا نعتقد أنه سوف يهدد فى المنظور القريب، ولكن التهديد الحقيقى قائم فعلاً من إسرائيل .

دول مجلس التعاون بين الأمن الإقليمى والقومى :

جرت عدة محاولات لإيجاد أمن إقليمى خليجى، ولكنها لم تظهر إلى حيز الوجود لتدخل الولايات المتحدة لربط أمن المنطقة بأمنها القومى، غير أن معارضة الدول التقدمية العربية لها أفشل المخطط الأمريكى، ولهذا يجب أن ينطلق الأمن من تحليل دقيق لواقع دولها ونتناول الأمن الإقليمى الخليجى أولاً ثم الأمن القومى العربى ثانياً .

أولاً : الأمن الأقليمى الخليجى :

يرتبط الأمن الإقليمى الخليجى بعدة عوامل منها العسكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية وجميعها مترابطة البعض بشكل يصعب تقديم أى منها على الآخر برغم أهمية العامل العسكرى، وهذا هو مفهوم الأمن الإقليمى الشامل المتكامل، الذى قد يكون غائباً أو متجاوزًا من دول المنطقة، لكون الأمن العسكرى الضيق أكثر شيوعاً برغم عدم جدواه دون الأمن السياسى والاقتصادى والاجتماعى للدفاع عن أمن حماية الموارد والثروات ضد سياسات النهب والاستغلال والتسلط .

وبرزت فكرة الأمن الإقليمى الخليجى من جديد بعد قيام الثورة الإسلامية فى إيران لإيجاد تعايش سلمى بين أنظمة الحكم العربية ذات التوجهات المختلفة فى المنطقة بين السعودية من جهة وكل من العراق واليمن من جهة أخرى ، للحفاظ على أمنها ضد التدخل الخارجى، ولكن ما هو مصدر هذا الخطر؟ وهل استطاعت هذه الأنظمة إيجاد حد أدنى من التقارب السياسى وليس التطابق حول طبيعة التحديات والتهديدات لأمنها؟

وتحاول دول المنطقة الحفاظ على أمن أنظمتها وشعوبها، فى حين تعمل الولايات المتحدة ليس فقط فى حفظ أمنها القومى وإنما أمن مصالحها الاقتصادية والاستراتيجية فى العالم بما فيها دول مجلس التعاون الخليجى وذلك بإخفاء حقيقة مصالحها وتأمين سيطرتها على النفط الخام بكميات معقولة وبأسعار رخيصة تحت ستار أمن الخليج العربى.

ولذا يجب أن تكون هناك استراتيجية أساسية ثابتة للأمن الإقليمى الخليجى نابعة من تقدير شعوبها، ووضع المصالح العربية القومية فوق الاعتبارات القطرية الوطنية الضيقة، انطلاقاً من وعى أمنها الإقليمى الخليجى بدوافع ذاتية دون تدخل القوى الكبرى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة بفرض وممارسة سياستها الاستراتيجية على دول المنطقة ، كما حدث عند قيام حلف بغداد والحلف المركزى بتحريض من الولايات المتحدة وبريطانيا، إضافة إلى طرح العديد من مشاريع الأمن الإقليمى من قبل الولايات المتحدة عن طريق حلفائها من دول الخليج العربى نفسها .

ولم تتوصل دول المنطقة إلى تحقيق الأمن الإقليمى بالمفهوم الشامل لعدم وجود الأرضية الأساسية لاختلاف التصور، فالبعض كان يرى التهديد

الخارجى قادم من الإتحاد السوفييتى، فى حين يرى البعض الآخر من الولايات المتحدة ، وذلك لكثرة النزاعات العلنية والخفية بينهم .

وفشلت الولايات المتحدة باعتمادها سياسة التحالف بين الحكومات الصديقة (كما تسميها) فى تخطى نزاعاتها بعمل ترتيبات أمنية إقليمية سواء كانت رسمية أو غير رسمية تكون قادرة على تخفيف حدة الخلافات والتناقضات لتحمى المصالح الغربية الرأسمالية أمام التهديدات السوفيتية المحتملة(١)، التى كانت ترددها الإدارة الأمريكية لدى بعض دول المنطقة ولكن أحداث الكويت أثبتت بأن التهديدات نابعة من داخل المنطقة وليس من خارجها ضد المصالح الأمريكية .

ولتحقيق الأمن الإقليمى الخليجى يجب تخفيف حدة التوتر إن لم يكن إزالة الخلافات السياسية لمختلف الأنظمة التى استغلتها القوى الكبرى لمنع تحقيق الأمن دون مساعدتها أو مشاركتها، وهذا سهلاً لوجود التناقضات فى المصالح واختلاف الأنظمة السياسية ومشاكل الحدود والمنافسة التقليدية ومحاولة كل دولة الاحتفاظ على المكاسب النفطية .

فبرغم أن شعوب الخليج العربى تدين بالإسلام(٢)، إلا أن هناك فرقاً ومذاهب مختلفة لا تلعب دوراً فى تقريب شعوب المنطقة بقدر ما تلعب درواً

---

(١) البرت دولستر: أنصاف حروب وأنصاف سياسات فى الخليج. دراسات استراتيجية. دراسة رقم (٢٦) السنة الثانية ٢/ ١٩٨١ ص ٢٩ .

(٢) ر. ك. رمضانى: الأمن فى الخليج العربى. منشورات مركز دراسات الخليج العربى. جامعة البصرة ص ٢٥ .

فى تفريقها، ففى الوقت الذى تتزعم إيـران المذهب الشيعى الإمامى، تتزعم السعودية المذهب الوهـابى([1])، وهمـا قطبـى النقيض، اضافة إلـى الترسبات التاريخية والعلاقات العدائية بينهما عبر الفـترة المتأخرة وخاصـة بعد هجوم الوهابيين على الأماكن المقدسة فى كربلاء والنجـف حيث مرقد الإمـام علـى والإمام حسين وآل بيته الطاهريين، فـى نهايـة القرن الثـامن عشـر، ومـرورا بأوضـاع الشيعة فـى إقليم الإحسـاء بشـرق السـعودية وأخـيراً وليـس آخـراً بحوادث الشغب والقتل فى مواسم الحج بمكة المكرمة، التى جرت بتحريض من إيران عن طريق مواطنين يحملون جنسيات دول مجلس التعاون الخليجـى من أصل إيرانى مما يعنى وجود أقلية إيرانية نشطة فى دول التعاون الخليجى تعتمد عليها إيران فى تحقيق أهدافها .

ويوجـد المذهـب الزيـدى والشـافعى فـى اليمـن وظفـار، والإبـاضى فـى عمان والشيعى والسنى فى الإمارات والبحرين والكويت والعراق، ولكـن هـذه المذاهب الإسلاميةباستثناء المذهب الإمامى الشيعى فى إيران الإسلامية ليست لها سلطة سياسية إدارية تستطيع فرض آرائها .

وهناك تيارات فكرية وعقائدية مختلفة فى أنظمة الحكم السياسـية منها ما يسمى بأنظمة محافظة رأسمالية ، وهى جميع دول الجزائر العربية ما عـدا اليمن، الذى كان فى جنوبها تيار ماركس اللينينى فى عدن، ولكن تلاشـى إلـى حد ما بعد الوحدة اليمنية وبدا يـبرز تيـار تقدمـى إسـلامى إضافـة إلـى بعـض التيارات العلمانية الأخرى. وجميعها تعمل من أجل تقدم وتطور اليمن، وهناك التيار البعثى فى العراق وتيار الثورة الإسلامية فى إيران.

---

(١) ر. ك . رمضانى : نفس المرجع ص ٢٥ .

وانطلاقاً من تلك المعطيات نضع بعض الأسئلة لنستشف المستقبل حول ما مدى إمكانية قيام تعاون إقليمي خليجي .

- هل يمكن من الناحية العملية أن يقوم حكام المنطقة بتطوير إحساسهم بالمسؤولية المشتركة للأمن؟ وهل هو أمن الشعوب أم أمن الأنظمة؟ وخاصة أن جميع شعوبها تدين بالإسلام، فهل سيكون الإسلام عامل جمع بينهم فى وجه الغرب المسيحى الرأسمالى والشرق الشيوعى الاشتراكى المنهار بعد فشل الانقلاب الشيوعى الأخير وكلاهما ضد الإسلام؟

وهل يمكن لهذه الأنظمة إيجاد صيغة مشتركة للأمن الإقليمى للحفاظ على كيانها وأنظمة حكمها من المخاطر الداخلية والخارجية؟ ولإيجاد حد أدنى للتعاون المشترك على الأقل لمنع التجاوزات والخلافات الإقليمية مما يهدد كيان بعضها البعض مثلما حدث باجتياح العراق للكويت؟

وقد نشك كثيراً فى انجاح أو إقامة تعاون أمنى خليجى حاليا إن لم يكن العكس من ذلك، هو ظهور نوعين أو حلفين مختلفين متناقضين إن لم يكن أكثر فى المنظور القريب، بعد تزايد الوجود الأمريكى والأوروبى فى دول الخليج والشكوك حول نواياها .

وسوف نورد بعض المشاريع والاقتراحات التى قدمت حول الأمن فى الفترة الماضية للتعرف على الخطوات التى تمت ومرت على المنطقة لإيجاد نوع من التعاون للأمن الإقليمى الخليجى .

المخططات الأمريكية لإيجاد نوع من الأمن الإقليمى :

بدأت الولايات المتحدة منذ إعلان بريطانيا الانسحاب من المنطقة، تخطط لملء الفراغ الاستعمارى البريطانى بالأمريكى، أى استعمار جديد من نوع جديد، وبما أنها تكبدت خسائر كبيرة فى فيتنام، أرادت أن تغير سياستها بتوكيل حفظ المصالح الغربية إلى القوى المحلية الحليفة، لإيجاد نوع من الأمن الإقليمي للحفاظ على مصالحها دون التدخل المباشر خوفاً من عقدة فيتنام الجديدة الذىعرف بمبدأ نيكسون عام (١٩٦٩) وبدأت تشكل قوة عسكرية كبيرة فى إيران وتسند إليها مهمة حماية النظام الاقتصادى(١)، وإن يتعدى حماية الأمن القومى الإيرانى إلى حماية ومحافظة الأنظمة الحليفة للغرب وتأمين الإمدادات النفطية إلى العالم الرأسمالى(٢).

وبهذا يمكن القول بأن إيران أصبحت تطبق نظام الأمن الإقليمى الخليجى من جانب واحد وبتفويض من الولايات المتحدة حلفائها فى المنطقة .

مشروع سيسكو وروجرز لعام ١٩٧٢ :

وجدت الولايات المتحدة بأن شرطيها فى المنطقة برغم قوته العسكرية لم يستطع إيجاد نوع من الأمن الإقليمى مع الدول العربية الحليفة والصديقة، فأوفدت إليها وزير الدفاع ومساعده لإطلاع المسؤولين فيها على المخططات الأمريكية للأمن الإقليمى فقد قال جوزيف سيسكو:

" إن الولايات المتحدة تهتم بالمحافظة على الاستقرار فى الخليج " .

---

(1) J. B, Krabia The Guif & The west - Basic P. 308

(٥) د. عبد الجبار وآخرون : دراسات عن تاريخ الخليج ص ٢٦٣ .

وكما قال :

" إن الولايات المتحدة لا تنوى أن تحل محل بريطانيا فى الدفاع عن مصالح الغرب فى الخليج، ولكنها مصممة على مساعدة دول المنطقة فى الدفاع عن نفسها، إن سياسة الولايات المتحدة فى المنطقة تقضى بتشجيع إيران والمملكة العربية السعودية والكويت وإمارات الخليج على التعاون بكل إخلاص من أجل أن تظل المنطقة آمنة ".

وبهذا الإعلان الذى صرح به "سيسكو " دون لبس أو غموض عن المخطط الأمريكى للأمن الإقليمى بتحالف ضمنى وغير معلن بين دول المنطقة، تحت رعايتها وإشرافها وتوجيهها وتقديم الاحتياجات اللازمة لهذا الحلف من الخبراء والمعدات العسكرية([1]).

كما صرح أيضاً وليم روجز عندما وصل إلى الكويت فى صيف يوليو عام (١٩٧٢):

" بأن هذه الزيارات تعكس اهتمامنا القومى بأمن هذه المنطقة المهمة من العالم وفى نفس الوقت فإن الولايات المتحدة لا تطالب ولا تسعى إلى امتياز خاص، بل إننا نعتقد أن الاستقرار والتقدم فى الخليج تعاون إقليمى فعال يأتى بجهود دول المنطقة نفسها ونحن بدورنا سنساعد بالوسائل الفعالة التى بمقدورنا ".

وهذا يعنى بأن زيارة وليم روجرز كانت لوضع النقاط على الحروف فى المخطط الأمريكى لإقامة حلف سياسى وعسكرى بين دول المنطقة والذى

---

(١) سامى المنيس : الطليعة فى معركة الديمقراطى ص ٦٧ .

لم يكن رغبة مفاجئة بل إنها ثوب قديم فى لبس جديد، فكان هذا المخطط قد صرح به "مستر روستو" وكيل الخارجية الأمريكية عام (١٩٦٨) عندما أعلن إقامة مثل هذا الحلف بين دول الخليج العربى بما فيها العراق، فى حين استثنى من مشروع "سيسكو - روجرز" العراق وأدخل الكويت ضمن المخطط الأمريكى للأمن الإقليمى(١).

واستمرت الجهود الأمريكية فى هذا المضار سواء عن طريق الإدارة أو عن طريق الجلسات البرلمانية للكونغرس ومجلس النواب، ومما جاء فى تلك المناقشات معبراً عن ذلك التصور الأمريكى للأمن الإقليمى ما يلى (٢):

" وفى رأينا إن على دول الخليج نفسها، وبخاصة الدولتان الكبيرتان، إيران والمملكة والعربية السعودية أن تتحمل العبء الأكبر لتأمين الاستقرار فى المنطقة ، لقد كان لنا ولا يزال تقليد طويل من التعاون العسكرى مع تلك الدول من خلال تجهيزنا إياها بالمعدات العسكرية أو من خلال التدريب فى الخليج، أعدنا النظر من جهتنا فى سياستنا بعناية واعتمدنا سياسة تؤكد على النقاط الآتية :

١ - الاستمرار على تعزيز التعاون الإقليمى عن طريق تشجيع أقوى الدولتين الساحليتين إيران والمملكة العربية السعودية على تحمل مسؤوليات أعظم بما يخدم الأمن الجماعى فى المنطقة .

(١) سامى المنيس : نفس المرجع ص٦٨ .

(٢) الخليج العربى : المناقشة البرلمانية الأمريكية المستمرة بشأن مبيعات الأسلحة إلى أقطار الخليج العربى ص ٢٦ .

٢- إقامة علاقات أمريكية مباشرة مع الكيانات السياسية الجديدة التى لم تكن موجودة من قبل .

٣ - تطوير مشاريع للمعونات التقنية والتعليمية والتبادل الثقافى من خلال برامج خاصة وعامة من أجل التطوير بصورة منظمة.

إن تنفيذ سياسة إقليمية تركز على هذه المؤشرات العامة استلزم توجيه نشاطاتنا نحو الدول المعنية مباشرة آخذين بعين الاعتبار مواردها البشرية وحجمها وسماتها الجغرافية ودرجة تطورها والتهديدات الأمنية التى تعتقد أنها تواجهها.

المشروع الإيرانى :

قدمت إيران عدة مشاريع ولكن لم تنال ثقة عرب المنطقة لسياستها التوسعية الرامية إلى بسط هيمنتها عن طريق المخططات الأمنية لتلعب دروا أكبر فى الخليج العربى بفرض نفوذها على الكيانات الصغيرة[١]، ومن أهم تلك المشاريع ما قدمته إيران عام (١٩٧٥) إلى دول المنطقة، والتى تتضمن ما يلى[٢] :

١ - إقامة حلف عسكرى تحت مسميات مختلفة "منظمة الدفاع الإقليمية" الحزام الأمنى الخليجى .

٢ - حماية أمن وحدود الدول الأعضاء .

---

(١) د. عنان فواز الكبيس: إيران عصا الامبريالية فى منطقة الخليج العربى. مجلة الخليج العربى. العدد الأول عام ١٩٨٣ . ص٦٩ .

(٢) برزان التكريتى: الصراع الدولى فى منطقة الخليج العربى والمحيط الهندى وتأثيره على أقطار الخليج العربى ص ٩٧ .

٣ – إخلاء المنطقة من القواعد العسكرية مع الأخذ بنظر الاعتبار جعل خليج عمان خارج نطاق المياه الإقليمية .

المشروع العمانى :

طرحت عُمان مشروع أمن إقليمى فى اجتماع وزراء خارجية دول المنطقة الذى عقد بمقسط فى نوفمبر عام (١٩٧٦) ودعت فيها إلى تحالف عسكرى فيما بين دول الخليج العربى إضافة إلى الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا، لحماية الممرات المائية، ورفضها العراق لجعل الأمن الإقليمى الخليجى كإحدى المسؤوليات الرئيسية لحلف شمال الأطلسى "ناتو" وعودة المنطقة إلى النفوذ الاستعمارى الغربى من جديد، بحجة حماية أمن المنطقة للسيطرة على مقدراتها، مما جعل المشروع طبق الأصل للمشاريع الأمريكية السابقة للسيطرة على حقول النفط مع إدخال ألمانيا الغربية وبريطانيا فى العمليات العسكرية المزمع إجراؤها عند الضرورة([1]) .

علماً بأن الدستور الألمانى لا يسمح لقواتها بالتدخل أو العمل خارج نطاق حقل الناتو إلا إذا كان ذلك امتداداً لعمليات الحلف أو مكمل لها .

المشروع الكويتى :

برغم أن مجلس التعاون الخليجى أكد مواقف أعضائه التى ترى أن أمن الخليج العربى مسؤولية دولها ولذا يجب إبعاده عن صراعات القوى الكبرى لمنعها من التدخل فى شؤونها الداخلية ومنع إقامة قواعد أو منح

---

(١) إسماعيل صبرى مقلد: أمن الخليج وتحديات الصراع الدولى ص٤٧ .

تسهيلات عسكرية(١)، إلا أن وزير خارجية الكويت حاول إزالة مخاوف البعض بوجود روابط أو علاقات لمجلس التعاون الخليجى مع الولايات المتحدة أو حلفائها وذلك عندما أدرج فى جدول الأعمال اقتراحاً بمشروع للأمن الإقليمى الخليجى موضحاً الهدف منه بما يلى(٢):

" إن الأمن الخليجى نوع من المشاركة الجماعية للحفاظ على أمن المنطقة حتى لا يصبح حكراً على دولة واحدة لأن الأمن الجماعى هو الضمانة الأفضل لاستقرار المنطقة، وإن أمن الخليج ليست فكرة مطروحة ضد أحد، بل ضد كل من يحاول إيذاء أمن الخليج . فالثروة الطائلة والحجم الصغيرة لدول المنطقة كل ذلك يثير مطامح ومطامع الدول الأقوى. والخيار أمام دول المنطقة هو إما قبول الأمر الواقع دون تعديله أو توحيد الجهود وتقويتها لخلق تيار موحد لمواجهة التحديات".

الأمن القومى العربى :

تهدد كيان الأمة العربية أخطار كثيرة يتحتم علينا على الأقل العمل من أجل الأمن القومى برغم أنه مرتبط بالوحدة العربية وبكيان عربى موحد، ولكن الواقع الحالى بكل إفرازاته يدل على صعوبة تحقيقها، ولكن يمكن إيجاد الأمن القومى على ضوء الأخطار المحدقة.

ويستند الأمن القومى إلى روابط وحقائق ثابتة للأمة العربية، مع الأخذ بأن الأمن الوطنى القطرى يجب ألا يتعارض مع الأمن القومى بل يساير

---

(١) د. عبد الله الأشعل: العلاقات الدولية فى إطار مجلس التعاون دول الخليج العربى. مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية: العدد (٣٧) يناير ١٩٨٤ ص ٧٨ .

(٢) د. حسن على الابراهيم:الدول الصغيرة والنظام الدولى.الكويت والخليج ص ١٦.

ويتوافق جنباً إلى جنب والأمن القومي يعني حماية دولة أو مجموعة دول عربية من الأخطار التي تتهددها وحماية المصالح الحيوية وأمن وسلامة واستقرار وتهيئة الظروف المناسبة لتحقيق الأهداف والغايات(1)، لاستغلال مواردها الاقتصادية بما يخدم مصالحها المشتركة، والحفاظ على الطابع القومي والحضاري للأمة العربية وحقوقها في السيادة والتقدم(2)، وتسعى في إطار قومية واحدة فيما بينها لمواجهة الأطماع الخارجية والتكتلات الدولية بإيجاد استراتيجية مشتركة قادرة على التعامل مع التحديات السياسية والاقتصادية والعسكرية التي يتعرض لها، والعمل على التكامل في كافة المجالات للوصول نحو إرادة عربية بتنمية وتوظيف الموارد القومية مثل الثروة النفطية وعوائده والموارد الاقتصادية الحيوية الأخرى لرفع مستوى الإنسان العربي(3).

ليس الأمن القومي هو الأمن الإقليمي، ولكن تعبير عن الحماية الذاتية للأمة العربية في حين تنظر القيادات السياسية في أنظمة الحكم العربية إلى الأمن القومي العربي نظرة ذاتية، ولذا يجب إيجاد مفهوم موحد للأمن القومي يعكس المصالح الحيوية المشتركة للأمة في الوقت الذي تعاني من تهديد لأمن شرق الجزيرة العربية وخاصة منابع النفط وعوائده، وقد أضعف الموقف

---

(1) مصطفى نبيل: مثلث الخطر، مضيق هرمز، جبل طارق، باب المندب ف٢٨.

(2) السيد زهرة : المرجع السابق ص ٩١ .

(3) د. بكر مصباح تنيرة: التطور الاستراتيجي لصراع القوى العظمى ودائرة على أم الخليج العربي. مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية. العدد (٤٦) إبريل ١٩٨٦ ص٧٧ .

المصرى بعد كامب ديفيد مما جعل إسرائيل تضرب المشرق العربى (بغداد) والمغرب العربى (تونس) وتحجم التضامن العربى بالتعاون الاستراتيجى مع الولايات المتحدة لإثارة النعرات الطائفية والحروب الباردة والقضاء على عناصر القوة السياسية العربية ، وإحياء النظام الإقليمى من تمحور لسياسة ضد الأطراف على حساب النظام القومى العربى، والأهم من هذا كله زيادة التغلغل الأجنبى(١)، وخاصة الوجود العسكرى الأمريكى فى المنطقة .

وتهدد الأخطار الكيانات العربية بل والأمة العربية ككل، فى ظل غياب الأمن القومى إذا لم يوضع تعريف مشترك للأمن القومى العربى، الذى يصعب تحقيقه فى ظل واقع التجزئة المرير لوجود عشرون دولة وعشرون إرادة سياسة عربية بدون كيان سياسى موحد، برغم اعتراف حكام الأقطار العربية فى المؤتمرات والاجتماعات بأن الأمن القومى العربى هو تعبير عن المصير الواحد، ولكن الواقع عكس ذلك فالأقوال لا تتفق مع الأفعال لعدم وضوح رؤية موحدة للأمن العربى وتهديداته سواء على مستوى القيادات أو المفكرين .

ولذا نجد الاستراتيجية الأمريكية تحاول عزل أمن دول مجلس التعاون الخليجى عن الأمن القومى العربى وربطه بأمنها عن طريق حلفائها فى

---

(١) د. خليل الياس مراد :حرب الخليج وانعكاساتها علىالأمن القومى العربى ص٦٨.

المنطقة أو بأمن غرب آسيا والصراع الدائر حول المحيط الهندى([1])، وهذا يعنى ضمن أشياء أخرى([2]):

١ - فصل الأمن الأقليمى الخليجى عن مشكلة الصراع العربى - الإسرائيلى بجوانبها وحساسياتها المتعددة.

٢ - عدم السماح باستخدام سلاح النفط فى أية محادثات لتسوية القضية الفلسطينية.

٣ - عزل دول مجلس التعاون الخليجى ومواجهتها منفردة ومنع أية إمكانية عربية لدعم مواقفها الأمر الذى يفتح الباب على مصراعية أمام محاولات الضغط عليها وإقناعها بقبول الاستراتيجية الأمريكية بأبعادها المختلفة.

٤ - الاستمرار فى تحقيق الالتزام الأمريكى الدائم والمتعلق بالحفاظ على أمن إسرائيل وقوتها فى المنطقة.

تعطى الولايات المتحدة عن طريق تأكيد الخطر السوفياتى قبل مجئ غورباتشوف للحكم المبرر الشرعى لدعم موقف العدو الاسرائيلى بكافة تصرفاته، ولا ينبغى على دول مجلس التعاون الخليجى أو غيرها من الأنظمة العربية، التحدث عن أخطار الكيان الصهيونى أو تهديد لسياستها لأمن

(١) د. خليل الياس مراد: نفس المرجع ص ١٣ .

(٢) السيد زهرة: استراتيجية القوتين الأعظم وقضايا الأمن فى الخليج - الفكر الاستراتيجى العربى - العدد الثانى أكتوبر ١٩٨١ ص ٩٠ .

المنطقة، وتكلفها بعمليات حفظ الأمن والاستقرار[١]، ليس فى دول مجلس التعاون الخليجى وإنما الوطن العربى من المنظور الأمريكى .

ولذا يجب أن يكون هناك حد أدنى للتعاون القومى فى المجال الاقتصادى والسياسى والعسكرى بإيجاد عمل مشترك على غرار السوق الأوروبية المشتركة بهدف حماية المصالح الحيوية وتشجيع وتنشيط التعاون على مستوى القاعدة لتعميق أواصر التلاحم العربى وإزالة موانع الانتقال لرؤوس الأموال والأفراد فيما بين كياناتها، وإقامة صناعة ثقيلة متطورة وخاصة العسكرية لاستقلالية وتدعيم القرار السياسى والعسكرى، مما يعزز الأمن القومى العربى، وإلا فإن الأنظمة العربية تكون مهددة داخليا وخارجيا، وقد يحدث تغير فى وجودها السياسى أو الوحدة بالقوة وما ينتج عنه من تدخلات خارجية وخاصة الأمريكية، كاجتياح العراق للكويت وما كان يحدث هذا لولا غياب التضامن والأمن القومى، وما يفرض من الأمن الأمريكى بتواجده العسكرى فى السعودية مما يعنى صعوبة الخروج من هذا المأزق الأمريكى بدون إيجاد الأمن القومى العربى .

وخلاصة القول بأن اختلاف تفسير الأمن الإقليمى الخليجى من قبل الدول العربية وعن التهديد الخارجى ، أصبح عديم الجدوى وإلى حد ما الأمن القومى العربى ، فى حين تركز معنى الأمن حول كيفية حماية الأنظمة من الداخل لمنع تفريغها، ولم يعد التهديد الخارجى ذا أهمية إذا ما قورن بأمنها الخاص، كما مارست بعض الأنظمة التدخل ضد بعضها الآخر ليس بهدف الدفاع عنها ضد الأخطار الخارجية بعدما كان تثبيت النظم الداخلية والإبقاء عليها فى السلطة.

---

(١) د. إسماعيل صبرى مقلد: أمن الخليج وتحديات الصراع الدولى ص ١٤٥ .

التحديات الخارجية :

تنحصر التحديات الخارجية من ثلاثة قوى أجنبية وهى: التهديدات الأمريكية والسوفيتية والإسرائيلية.

أولا : التهديدات الأمريكية لأمن شرق الجزيرة العربية :

بعد سقوط الشاه وقيام الثورة الاسلامية فى إيران والتى انتقلت من دولة حليفة لإسرائيل وأمريكا إلى دول المواجهة ، ورفض التواجد العسكرى الأجنبى وخاصة الأمريكى بعد تراجع السوفيت إلى الوراء نتيجة البروسترِيكا "غورباتشوف" وما يعانيه من المشكلات الداخلية وانسحابه من أفغانستان والتخلى عن الأصدقاء والحلفاء مثل أثيوبيا والعراق واليمن واتباع سياسة الوفاق مع الولايات المتحدة حول الخليج العربى الذى كان خارج محور الوفاق أثناء التنافس التقليدى والحرب الباردة ، وحتى موقف السوفيت المعارض للحليف السابق العراق لاجتياحه الكويت ، وما نشأ من تقارب إلى حد التباين بعد لقاء حفلة الغداء فى هلسنكى بين غورباتشوف وبوش فى العاشر من سبتمبر ١٩٩٠، وما نتج عنه زيادة القوات الأمريكية حول منابع النفط فى السعودية شرق الجزيرة العربية إلى أكثر من ربع مليون جندى بأحدث الأجهزة الحربية المعقدة مع ما يمكن أن نعتبره المرحلة القادمة بالأمن الأمريكى لدول مجلس التعاون الخليجى إذا ما صحت توقعاتنا للسيطرة الأمريكية على الأقل فى المستقبل القريب إن لم يكن البعيد حتى عام ٢٠٠٠.

وعلى ضوء تلك التطورات السريعة التى قد لا نستطيع ملاحقة أحداثها ورصدها وتحليلها، يمكننا دراسة سياسة الولايات المتحدة تجاه أمن المنطقة

إلى يومنا هذا منذ أن كانت آراء وخطط متحفظة إلى التدخل العسكرى المباشر وفرض الأمن الأمريكى فى عهد جورج بوش.

اتبعت الولايات التحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية سياسة لضمان سيطرتها على دول مجلس التعاون الخليجى بأساليب خبيثة والتدخل فى الشئون الداخلية وعمل الانقلابات العسكرية والاغتيالات والمؤامرات وإشعال النزاعات الإقليمية والطائفية ومشاكل الحدود، وإقامة القواعد والأحلاف العسكرية وزيادة التواجد العسكرى والضغط السياسى.

وتطور مفهوم الأمن الأمريكى للمنطقة مع تطور الإدارات السياسية للبيت الأبيض بشكل أساسى لحماية مصالحها وليس مصالح دول وكيانات المنطقة، ابتداء من مبدأ إيزنهاور إلى مبدأ نيكسون ومبدأ كارتر وحتى بوش، وتهدف تلك المبادىء إلى المحافظة على استمرارية الأوضاع القائمة وحمايتها وإحكام الخناق على شعوبها[١]، وتعميق ارتباطها بالغرب الرأسمالى وتغلغلها إلى المؤسسات المهمة بعد إقناعها بأن الاستقرار والأمن فى المنطقة لا يمكن تحقيقه إلا بالاعتماد عليها[٢]، وحتى لا تخرج خارج نطاق المرسوم لها من قبل إدارتها.

ومنها تغلغلت إلى المؤسسات العسكرية بإرسال الأسلحة والخبرة واستجلاب كوادر عسكرية إلى المنطقة[٣].

(١) د. عبدالله فهد النفيس : مجلس التعاون ص٧ .

(٢) ادوردريس : التوسع الأمريكى فى الخليج ص٢٨١.

(٣) ادورديس : نفس المرجع ص٢٨١.

يعتبر النفط من أهم المواد الخام حيوية للولايات المتحدة وهى بعيدة عن مكان الاستهلاك بعدة آلاف من الأميال عبر البحار، مما يعرضها لمخاطر كبيرة قد يؤدى إلى انقطاعها(١) ، وتقول وجهة النظر الأمريكية حين تصل مصالح الغرب إلىحافة الخطر فعلى كل من الولايات المتحدة وأوروبا الغربية أن تتفقا على الحاجة إلى قوة غربية للتدخل وأن تتخذ خطوات لتحسين الوسائل اللازمة لهذا العمل(٢)، كما حدث مؤخرا بمجىء القوات الأمريكية والأوروبية وخاصة من فرنسا وبريطانيا إلى الخليج.

ومن هنا تطورت المفاهيم والمبادىء الأمريكية تجاه المنطقة عندما خلفت تركة وأرث الاستعمار البريطانى بعد انسحابها عام (١٩٧٢) ونتيجة لهزيمتها فى فيتنام وتخوفها من تجربة جديدة فاشلة وملاحقتها ما يعرف بعقدة فيتنام فقد خططت لبناء قوة محلية لحماية مصالحها بدلا من تورطها المباشر، وهو الموقف الأمريكى الذى كان واضحا من مبدأ نيكسون لحماية استمرار تدفق النفط بحراسة إيران وبدرجة أقل من السعودية مما أدى إلى بناء القوة العسكرية لإيران(٣). ودعم الشاه سياسياً وإقتصاديا للقيام بدور شرطى المنطقة لحماية المصالح الأمريكية والعالم الرأسمالى كما طورت علاقاتها مع السعودية بدرجة كبيرة، وعملت على إيجاد تنسيق أمنى بين إيران والسعودية للمحافظة على مصالحها، وحاول الشاه استغلال هذا الدور لمصلحته أيضاً،

---

(١) فريد هاليدى : السياسة السوفيتية فى قوس الأزمة ص٢٥.

(٢) كارل كايزر - ونستون لورد : أمن الغرب. دراسات استراتيجية . الدراسة(٣٣) السنة الثانية ١٩٨١/٩ ص٣٧.

(٣) J. B. Kelly-OP. cit. p. 308.

باتباع سياسة التوسع والهيمنة والقيام بدور القوة الرئيسية الإقليمية الوحيدة فى المنطقة.

ونتيجة لمبدأ نيكسون حصلت إيران على كميات كبيرة من الأسلحة الحديثة والمتطورة برغم عدم قدرة إيران على استيعابها ، واستهدفت السياسة الأمريكية بمبدأ المشاركة أو سياسة تخويف الأنظمة المحلية الأخرى والتى لا تخضع لسياستها كالعراق واليمن وتهديدها بالتدخل الأمريكى المباشر ومحافظة الأنظمة الحليفة[١].

ولكن بقيام الثورة الإيرانية وظهور الدولة الإسلامية بكل أبعادها تخلت إيران الثورة الإسلامية عن دور شرطى الخليج العربى لحماية المصالح الأمريكية وسحبت قواتها التى أرسلها الشاه لقمع الثورة الشعبية فى ظفار، وأعلن رئيس الأركان الإيرانى الجنرال محمد قرنى فى ١٩٧٩/٣/٣ : " أن الثورة جعلت إيران دولة مجابهة مع إسرائيل " وبرر قرار حكومته الخاص بسحب الوحدة الإيرانية (٤٠٠ ٢٥) رجلا من قوة حفظ السلام الدولية العاملة فى الجولان بقوله: " ليس من المنطقى أن تعمل القوات الإيرانية كحاجز بين العرب واسرائيل فى حين أننا نعتبر أنفسنا دولة مجابهة مع إسرائيل جنبا إلى جنب مع الدول العربية "[٢].

وبذلك انتقلت إيران من حليف إلى معارض بعد الثورة الإسلامية، وأفشلت المخططات الاستعمارية المعروفة بالركائز الأمريكية الثلاثة لحماية

---

(١) د. خليل الياس مراد: المرجع السابق ص٨٩.

(٢) الهيثم الأيوبى: نفس المرجع ص٣٦.

أمن الخليج العربى، فالأولى والثانية كانتا إيران والسعودية فى حين كانت الثالثة إسرائيل ، وبقيام الثورة الإسلامية فى إيران انهارت الركيزة الثالثة إسرائيل وباتت تهدد الركيزة الثانية.

وبسقوط الشاه سقط مبدأ نيكسون وما أعقبه من إعادة للسياسة الأمريكية فى المنطقة من نوع جديد لمفهوم الأمن الأمريكى عندما قال كارتر[١]: وسنحافظ على قدرتنا الاحتياطية لاستخدام القوة العسكرية الإضافية اللازمة لمساعدة الدول المهددة فى المنطقة عندما تدعو الحاجة وسنختار سبلنا بعناية من أجل ضمان ألا تخلق الأعمال الأمريكية مسؤوليات سياسية محلية تقلل من فعالية جهدنا العام، وقد أقمنا أيضا علاقات مع عدد من دول المنطقة تقضى بتزويدها بالعتاد العسكرى ولا تساهم هذه العلاقات فى زيادة قدرات هذه الدول على الدفاع عن النفس وحسب بل تسهم أيضا فى تنمية شعورها بالاستقرار واستعدادها للمشاركة فى جهد الأمن المشترك.

وهذا يعنى التراجع عن مبدأ نيكسون والانتقال من مرحلة التدخل الغير مباشر عن طريق إيران والسعودية قبل الثورة الإسلامية إلى التدخل المباشر، ومن التركيز عل الإجراءات الدبلوماسية إلى التركيز على الإجراءات العسكرية، ومحاولة إحياء النزاعات التقليدية فى السياسة الأمريكية فى المنطقة والتى جمدت منذ الستينات حتى مجىء كارتر وبدأت بإحياء المحالفات الأمنية وإقامة القواعد والتسهيلات العسكرية[٢].

(١) محمد عدنان مراد: صراع القوى فى المحيط الهندى والخليج العربى ص٥٢٠.

(٢) د. اسماعيل صبرى مقلد: المرجع السابق ص١٤٥.

ولم يكن اهتمام الولايــات المتحدة بأمن المنطقة ومحاولــة تثبيت الأوضاع ما هو إلا طريقة لاستمرار تدفق النفط إلى العالم الرأسمالى([1])، باستخدام القوة العسكرية لمواجهة أى تهديد لمصالحها الحيوية فى الخليج العربى، أى أنها تحت رحمة الأمن الأمريكى.

ولجعل هذا المبدأ حيز التنفيذ اتجهت السياسة الأمريكية إلى زيادة حجم التواجد العسكرى فى المناطق المحيطة بالمنطقة وإيجاد القواعد والتسهيلات العسكرية ابتداء من شمال الخليج العربى فى تركيا وإسرائيل والبحر الأحمر فى مصر والقرن الأفريقى فى الصومال وكينيا والمحيط الهندى وفى داخل كيانات شرق الجزيرة العربية وإنشاء قوة الإنتشار السريع وتقوم هذه السياسة على:

١ - التدخل العسكرى الأمريكى إذا كان هناك تهديد لمصالحها الحيوية التى تتخلص بضمان إمدادات النفط لها ولحلفائها بأسعار معقولة والكميات التى تحتاجها.

٢ - إيجاد نوع من التقارب فيما بين الأنظمة الحليفة للمحافظة على أمن المنطقة من المنطلق الأمريكى لحماية مصالحها.

التخوف الأمريكى على مصالحه فى المنطقة :

يبرر المسؤولون الأمريكيون فى البيت الأبيض تخوفهم على أمن المنطقة من انقطاع النفط أو السيطرة الوطنية عليه مما يؤدى إلى التحكم فى

---

(١) محمد عدنان مراد: المرجع السابق ص٢٢٦.

الأسعار والإيرادات وكمياته والقرار السياسى الذى قد يرتبط به وخاصة الربط بين المصالح الأمريكية والمصالح العربية بقضية فلسطين، ولذا نتناول أولا تخوف الأمريكيين من انقطاع النفط ومواقفهم المعلنة، وثانيا ماذا لو احتلوا منابع النفط؟

أولا: التخوف الأمريكى من انقطاع النفط :

صرح بروان وزير الدفاع السابق فى شهادة له أمام لجنة الشؤون الخارجية بالكونغرس ضرورة استمرار تدفق نفط منطقة الخليج العربى معتبرا ذلك بمثابة مصلحة جيوية فى منطقة تفتقر فى رأيه إلى القدرة الكافية للحماية[1]: " إن ما نراهن عليه فى الخليج هو الرخاء الإقتصادى والعافية السياسية للولايات المتحدة وحلفائها. فلو حرمت الدول الصناعية فى العالم من حرية الوصول إلى مصادر الطاقة فى الخليج فستكون النتيجة على الأرجح هى الانهيار لحلفائنا وللاقتصاد العالمى.

كما صرح ريغان على ضرورة الاستمرار فى الحفاظ على أمن الخليج ولكن من خلال التنسيق مع الحلفاء: "إن التزامنا بالمحافظة على الأمن والاستقرار فى الخليج لن يضعف التزاماتنا الأخرى بل إن العكس هو الصحيح، إن أوروبا واليابان والولايات المتحدة تحتاج إلى النفط الذى ينتجه الخليج، كما أن أصدقاءنا فى الخليج يحتاجون إلىمساعدتنا لوقف امتداد النفوذ السوفيتى".

---

(١) د. أحمد عبدالرازق شكارة : الدور الاستراتيجى للولايات المتحدة الأمريكية فى منطقة الخليج ص١٣٧.

وأضاف: " أن هناك تهديدات متزايدة فى الثمانينات لأمننا المشترك ليس فى أوروبا فحسب بل فى الخليج العربى أيضاً، ولذلك ندعو أصدقاءنا وحلفاءنا الأوروبيين إلى القيام بدور كبير لا غنى عنه فى مجال تنظيم أمننا، لأن الرد على التهديد يكمن فى الاستخدام المشترك لموارد الولايات المتحدة وحلفائها ولجهودهم السياسية(١) .

ويتضح من تلك التصريحات التخوف الأمريكى من انقطاع النفط أو توقف الإمدادات لفترة طويلة مع ما ينتج عنه من مخاطر للأمن القومى الأمريكى ولحلفائه، أو وقف إمدادات النفط لفترة قصيرة لا تؤثر كثيرا على الأمن القومى الأمريكى ولحلفائه، ولكن قد يهيىء الظروف المناسبة لرفع الأسعار مما يعنى تراكم عشرات البلايين من الدولارات كفوائد مالية لعوائد النفط تهدد النظام النقدى والمالى العالمى بالانهيار فى حالة عدم إعادة تدويرها(٢) ، وذلك كما حدث من انقطاع النفط العراقى والكويتى نتيجة للحظر الأمريكى ، وبرغم زيادة الإنتاج السعودى بما يكفى إلا أن التخوف من الانقطاع لفترة قصيرة عندما وقعت الحرب بين الولايات المتحدة وحلفائها ضد العراق ، أدى إلى ارتفاع قيمة البرميل الواحد إلى أكثر من أربعين دولار بعدما كان لا يتجاوز ثمانية عشر دولاراً.

---

(١) نهى تادرس: السياسة الخارجية لإدارة ريغان. مجلة الفكر الاستراتيجى. العدد الثانى. أكتوبر ١٩٨١ص٣٤.

(2) Richard W.Murphy: protcting U.S. Interests In the Gulf P.5

ولذلك يهدف الأمريكيون بإرسال الأسلحة إلى حلفائهم وأصدقائهم فى المنطقة كوسيلة يستطيعون بها الدفاع عن أنفسهم حتى تحضر قوات أمريكية لحماية أمن الخليج(١)، ولذا قررت الولايات المتحدة أن يكون التوكيل لحماية المصالح الغربية من دول منطقة الخليج العربى(٢)، بإرسال الأسلحة للصمود مؤقتا حتى تصل القوات الأمريكية ، ويقول الكاتب الأمريكى "أنتونى ديوك": "ليس هناك حاجة لحماية المصالح الحيوية عن طريق تواجد القوات الأمريكية للدفاع عن الكيانات الستة لمجلس التعاون الخليجى وإنما يجب علينا تقديم كافة المساعدات لأن أمنهم المباشر مرتبط وتابع لأمننا"(٣).

ويكمن التخوف الأمريكى فى عدة نقاط وهى :

أولا : على منابع النفط فى دول مجلس التعاون الخليجى وخاصة فى شرق السعودية، ومحاولة العراق الاستيلاء على حقوله الرئيسية أو من الإقليمية الأخرى كإيران فى المنطقة ، أو قفل الممرات الملاحية لناقلات النفط عند النقاط المهمة والمضايق البحرية .

ثانياً : التخوف من مناطق الاضطراب والتوتر التى تحيط بمنابع النفط والتدخل فى عمليات الإنتاج والشحن، ومحاولات قلب الأنظمة الحليفة لأمريكا كما حدث لشاه إيران أو حظر تصدير النفط أو التحكيم بأسعاره وبكمياته.

---

(1) David H.Albert: Tell the American People.

(2) John Duke Anthony: Goals In the Gulf an America's Interests In The Gulf on Council, p.6.

(٣) د. حسن البدرى: الولايات المتحدة ومشاكل أمن الخليج العربى فى الثمانينات. السياسة الدولية. العدد (٥٧) ١٩٧٩.

ثالثاً : التخوف من ضعف الأنظمة الحليفة وعدم قدرتها على الصمود أمام أى أطماع خارجية.

ثانياً: ماذا لو احتلت أمريكا منابع النفط ؟

ماذا لو تعرضت منابع النفط السعودية للاستيلاء من قبل الولايات المتحدة ؟

احتلال منابع النفط السعودية فى شرق الجزيرة العربية واردة فى جميع الظروف وفى كل الأحوال بضوء احتياجاتها المنطقية والغير منطقية، لأنها أساسية واستراتيجية حتى النصف الأول من القرن القادم أى إلى عام ٢٠٥٠.

سوف تتدخل الولايات المتحدة عسكريا لحماية واحتلال المنابع السعودية إذا ما تعرضت لتهديد خارجى سواء كانت قوة إقليمية أو دولية كما حدث فى اجتياح العراق للكويت فدخلت القوات الأمريكية وطلبت من حلفائها العرب مساعدتها فى تحقيق حماية المنابع النفطية لاعطاء شرعية دولية لتدخلها السافر، تحت مبرر حماية السعودية من العراق.

ولكن ماذا لو كان التهديد لأمريكا نابعا من الداخل، فعلى سبيل المثال إذا هدد السعوديون بحظر تصدير النفط إلى الولايات المتحدة أو زيادة الأسعار أو تخفيض الإنتاج من أجل عدم الإهدار أو الاستنزاف للمورد الوطنى القومى الوحيد، والوقوف مع دول المواجهة العربية لاسترجاع الحقوق الشرعية الفلسطينية من العدو الصهيونى ؟ .

وماذا لو استطاعت الولايات المتحدة الاستيلاء على منابع النفط السعودية برغم الصعوبات وبعمل عسكرى.

جميع هذه الأسئلة واردة فى ظل الظروف الراهنة، علما بأن خطة الاستيلاء على حقول النفط السعودية من قبل الولايات المتحدة كانت موضوعة منذ فترة وإن لم تظهر فى البيانات والوثائق الرسمية للبنتاغون، ولكن الاستراتيجيون الأمريكيون درسوا دائما وإن كان بشكل مكتوم تلك الإحتمالات التى ذكرناها سابقا، ومفهوم الاستيلاء على نفط العرب أيضاً كان دائما موجوداً ، وقد برز ذلك على السطح فى كل مرة رفع فيها السعوديون أسعار النفط الخام، أو هددوا بإجراء جماعى ضد الكيان الصهيونى(١) .

وفى الحالتين سواء تهديد المصالح الأمريكية فى دول مجلس التعاون الخليجى من الخارج أو من الداخل، كما حدث من قبل العراق أو ما قد يحدث مستقبلاً، فإن النتيجة قد حصلت فعلاً ما كان يتمناه الأمريكيون وهو تأمين السيطرة على نفط الخليج فى ظل ظروف مناسبة وتحت مبررات شرعية بقرارات مجلس الأمن الدولى.

ولكن يبقى سؤال ملح: هل تستطيع الولايات المتحدة أن تتحمل تكاليف حماية آبار النفط فى غياب المساندة الخليجية معنوياً وأمنياً.

إن حماية حوالة (٧٠٠) بئر نفطى وسبعة آلاف متر من خطوط الأنابيب المعرضة للتخريب أو المخاطر ، تحتاج من أمريكا إلى قوة عسكرية دائمة للحفاظ عليها لا تقل عن مائة ألف جندى، هذا غير الحماية عنها من هجمات داخلية أو خارجية، والسؤال المطروح ما هى تكاليف الإقامة لهذا العدد الضخم فى منطقة تعتبر من أغلى المناطق فى مستوى المعيشة، سواء

---

(١) مايكل كلير: نفس المرجع ص١٥٧.

من المأكل والمشرب والمسكن وحماية مستمرة ضد الهجمات من الداخل أو الخارج أو أعمال إنتحارية، كل ذلك يتطلب جهداً يوازى فى المال والرحال تورط الولايات المتحدة في فيتنام[١] ، وهى قضية تقلق الأمريكان وتجعلهم يراجعون حساباتهم جيداً قبل الإقدام على مثل هذه الخطوة.

ثانياً : التهديد السوفيتى :

طرح السوفيت عدة مبادرات للأمن فى الخليج العربى وهى تدعو إلى التعاون والسلام دون هيمنة القوتين وتتناول مبادرتين الأولى عن الأمن الجماعى والثانية عن مبادرة بريجنيف.

أولاً : فكرة الأمن الجماعى :

قدم الإتحاد السوفيتى مبادرة للأمن الجماعى فى أسيا بما فيها الخليج العربى الذى يمكن توطيد العلاقة ما بين دولها وكياناتها إذا ما تم تطوير التعاون وتعزيز الأمن والإمتناع بإستخدام القوة العسكرية وعدم التدخل فى الشؤون الداخلية والحفاظ على الحدود القائمة والاحترام المتبادل للسيادة، ووحدة الأراضى والتعاون الكامل على مبدأ المساواة والمنفعة المتبادلة، وحرية الملاحة فى الخليج العربى والمياه الدولية المجاورة له والمؤدية إليه.

وتؤكد الفكرة بأن التعاون المشترك بين الجانبين العربى والإيرانى ممكن تحقيقه إذا راعا كل جانب مصالح الجانب الآخر فى سبيل منع استغلال الاستعمار الرأسمالى وخاصة الولايات المتحدة لموارد النفط والعمل لصالح

(١) جريدة الخليج الصادرة فى (١٩٨٤/٤/٣).

شعوب المنطقة، وعدم اللجوء إلى الحروب المحلية، وعدم إراقة الدماء وتخفيف الميزانيات العسكرية وتحويلها للتنمية الاقتصادية الاجتماعية[1].

ثانياً: مبادرة بريجنيف :

يرى الإتحاد السوفيتي أن مبادرة بريجنيف ذات أهمية لعدة أسباب أهمها ما يلي:

١ - إعطاء دليل على عدم وجود أطماع سوفيتية في المنطقة كما يردده المسؤولون الأمريكيون.

٢ - كانوا يرون بأنها تحل المشكلة الأفغانية وتؤدي إلى الإنسحاب السوفيتي وقد انسحبوا منها مؤخرا.

٣ - ينهي مشكلة أمن الخليج العربي لإعطائه الضمان الكامل بجانب حرية الملاحة والتجارة الدولية منه وإليه.

٤ - وانتقل السوفيت بذلك من المبادرة الثنائية إلى المبادرة الجماعية لضمان أمن الخليج العربي، ومراعاة مصالح الأطراف المختلفة وخاصة المصالح الغربية، وفي المقابل تأكيد لحماية أمن السوفيت الجنوبية أي مبادلة بين الإقرار السوفيتي بوجود مصالح غربية نفطية مقابل اعتراف الغرب بتواجد مخاوف سوفيتية أمنية شرعية[2].

---

(١) جريدة الخليج الصادرة في (١٩٨٤/٤/٣).

(٢) د. خليل الياس مراد: المرجع السابق ص٦٤.

وشكل الإتحاد السوفيتى نوع من التهديد، ولكن لم يصل بمستوى التهديد الأمريكى لأمن الخليج العربى، وإنما مجرد الحفاظ على حدوده الجنوبية، ومساعدة حلفائه فى المنطقة، أكثر من التهديد بالتدخل العسكرى مثل الولايات المتحدة، ولا نعتقد بأن السوفيت سوف يشكلون أى تهديد لأمن الخليج العربى على الأقل فى المنظور القريب إن لم يكن حتى المنظور البعيد إلى نهاية القرن الحالى، وهذا راجع لعدة أسباب منها:

١ - حالة الوفاق بين الولايات المتحدة لتخفيف حدة التوتر فى العالم مع الموافقة الضمنية للسيطرة الأمريكية فى المناطق الحيوية والخليج العربى بعد قمة هلسنكى.

٢ - تزايد المشاكل الاقتصادية والسياسية فى داخل الإتحاد السوفيتى، فمن الجمهوريات التى تطالب بالانفصال وبعضها أعلن الاستقلال مثل لتوانيا إلى مشاكل القوميات العرقية، وأعلن البرلمان السوفيتى إتخاذ قرار التحول من الشيوعية إلى الاقتصاد الحر يوم ١٩٩٠/٩/٢٤ عندما فرض غورباتشوف إيجاد صيغة للتحول من الإقتصاد الشيوعى الذى دام أكثر من ٧٣ عاما إلى اقتصاد السوق الحر، وفى ١٩٩٠/١٠/١٩ وافق البرلمان السوفيتى على خطة غورباتشوف المعدلة بين خطتين لستالين المتطرفة وهو خبير اقتصادى وريمكوف المحافظة وهو رئيس الوزراء مع السماح للجمهوريات السوفيتية بتطبيق ما تراه مناسباً فى نطاق الانفتاح للاقتصاد الرأسمالى.

وهذا التحول الاقتصادى للسوفيت أخذ أبعاداً جديدة وخاصة بعد فشل الانقلاب الشيوعى واستقلال الدول التى سميت بالكومنولث.

٣ - انسحاب السوفيت من أفغانستان ومن ألمانيا الشرقية وتخفيض تواجدها العسكرى فى بقية الدول الحليفة، والتقليل من المساعدات العسكرية والاقتصادية إلى اليمن وأثيوبيا قد ساعد على إزالة المخاوف من السوفيت أو حلفائه فى المنطقة.

٤ - تحسين علاقة روسيا مع دول مجلس التعاون الخليجى ابتداء من عمان والإمارات وقطر وانتهاء بالسعودية ورفع المستوى الدبلوماسى إلى إقامة السفارات، جعلها أقرب إلى المعسكر الأمريكى بعد موقفها من الإجتياح العراقى للكويت برغم وجود معاهدة الصداقة.

٥ - السماح لأكثر من مليون يهودى بالهجرة إلى إسرائيل ومحاولة إعادة العلاقات برغم خطورة ذلك على العلاقات مع العرب، مما يعنى عدم الاهتمام كثيرا بالقضايا العربية وخاصة الشرق الأوسط وفى مقدمتها القضية الفلسطينية.

كل تلك التطورات التى ذكرناها نقلت روسيا إلى المواقع الخلفية فى حين عززت المواقع الأمامية للولايات المتحدة إضافة إلى احتياجات روسيا للدعم الإقتصادى والتكنولوجى الأمريكى والغربى جعلها تخفف من معارضتها لخطط الهيمنة والتوسع الأمريكى فى مختلف أرجاء العالم، وخاصة الخليج العربى مما يعطيها اليد العليا فى الحكم بمصائر الشعوب المغلوبة دون رادع حقيقى لسياستها.

وقد عودنا التاريخ الروسى بأنهم كأمواج البحر ينحسرون لفترة لأسباب داخلية كما حدث بعد ثورة ١٩١٧ ثم يعودون مرة ثانية أقوى من السابق،

وبمعنى آخر إن عودة روسيا من جديد لا بد منه كقوة عالمية تلعب دوراً مهماً فى القضايا الدولية الإقليمية وخاصة أمن الخليج العربى ولا محالة من ذلك، ولكن بعد ترتيب البيت الداخلى وتعزيز الاستقرار الاقتصادى الجديد ثم الخروج إلى العالم الخارجى .

ثالثاً : التهديد الإسرائيلى :

لا تقل خطورة إسرائيل وتهديدها لأمن الخليج العربى عن الولايات المتحدة، لأنها تمثل القاعدة الأمريكية المتقدمة فى الشرق الأوسط، ومما زاد أهمية ذلك هو التحالف الاستراتيجى وخطورته ليس فقط لتهديد أمن دول مجلس التعاون الخليجى، وإنما على الأمن القومى، وهذا هو الأهم بعد توقيع الولايات المتحدة الأمريكية مع إسرائيل الاتفاقية الاستراتيجية عام (١٩٨١) وتجديدها عام (١٩٨٣) اعتبرت إسرائيل أمن الخليج العربى من أمنها الوطنى فى الوقت الذى تنظر إلى دول مجلس التعاون الخليجى على أنه الخط الثانى أو الظهير الخلفى للجبهة الأمامية وبالتالى جزء من الأمن القومى العربى الذى يشكل خطراً على الأمن الإسرائلى.

وأعطت الاتفاقية الاستراتيجية لإسرائيل مع الولايات المتحدة حرية الحركة واستخدام كل إمكانياتها لحماية المصالح الحيوية فى دول مجلس التعاون الخليجى، وأصبحت الشريك الاستراتيجى الأمثل االذى يضمن تعزيز ترتيبات الأمن الأمريكى فى المنطقة، ويمكن الإعتماد على إسرائيل فى التقليل من مشاكل نقل القوات فى الظروف الطارئة ، وكذلك يمكن للقوات الجوية الأمريكية استخدام إسرائيل كمحطة لضرب الأهداف المطلوبة فى

الخليج العربى إذا دعت الحاجة، ولتحقيق ذلك قامت اسرائيل ببناء قاعدتين "رامون" و "دافدا" فى صحراء النقب بمساعدة الولايات المتحدة، إضافة إلى قاعدة بئر السبع المخصصة لاستخدام القوات الأمريكية فى حالة التهديد المباشر لمصالحها فى المنطقة، وراجع التهديد الإسرائيلى لأمن الخليج العربى باعتبارها جزء من الاستراتيجية الأمنية المشتركة مع الولايات المتحدة انطلاقاً من عدة مؤشرات أهمها([1]):

١ - حرب يونيو (١٩٦٧) وأكتوبر (١٩٧٣) واجتياح لبنان (١٩٨٢) .

٢ - استخدام نفط العرب كسلاح فى المعركة ضد اسرائيل .

٣ - مساعدة دول المنطقة مالياً ومعنوياً وسياسياً لمنظمة التحرير والفلسطينيين ودول المواجهة العربية .

٤ - استضافة دول مجلس التعاون الخليجى للأخوة العرب من الفلسطينين بتوفير الفرص المناسبة للإقامة . استمرار النزاع العربى - الإسرائيلى يزيد من خطورة أمن الخليج العربى ، ليس فقط من جانب الأطماع الإسرائيلية ، ولكن من جانب آخر وهو تعقيد العلاقات بين دول مجلس التعاون الخليجى وبين دول الغرب الرأسمالى وخاصة الولايات المتحدة. ويقف حائلاً دون تطويرها وقد شدد بعض حكام المنطقة فى الأحاديث التى جرت مع اللجنة الثلاثية المكونة من اليابان وأوروبا

---

(١) غارسيت فيتزجيرالد: دراسات استراتيجية. الدراسة (٣٥-٣٦) السنة الثانية (١١ - ١٩٨١/١٢).

والولايات المتحدة، على المسألة العربية الإسرائيلية بتحذير هؤلاء الزوار من أنه لم تتم تسوية هذا النزاع خلال خمس سنوات فإنهم (الحكام المعتدلون) قد لا يكونون بعد ذلك فى موقع السلطة([١]).

وكانت دول مجلس التعاون الخليجى ترى أن التعاون الأمريكى - الإسرائيلى لا يقل خطورة عن التهديد السوفيتى لاستقرار أمن المنطقة وتهديد لأمن الاستقلال، لأن إسرائيل دولة عدوانية توسعية تهدد الأمن القومى وهى تنفق ميزانية ضخمة لشراء الأسلحة، وفى السنوات القليلة القادمة تواجه مشكلة اقتصادية خطيرة والبعض يطالب بوضع خطة إسرائيلية أمريكية شاملة لغزو حقول النفط فى شرق الجزيرة العربية.

لدى إسرائيل القدرة العسكرية للوصل إلى آبار النفط، وخير دليل على ذلك عدوانها السافر فى (١٩٨١/٦/٧) على العراق عندما قامت بتدمير مركز الأبحاث النووى العراقى "تموز" فما الذى يمنعها من غزو آبار النفط فى دول مجلس التعاون الخليجى، بل هناك تهديدات إسرائيلية بضرب كيانات المنطقة، كما ظهرت عقب إعلان نية ألمانيا الغربية بيع أسلحتها للسعودية([٢]).

ولكن الأحداث الأخيرة بعد الاجتياح العراقى للكويت ودخول القوات الأمريكية إلى السعودية، لم تقم إسرائيل بأى دور يذكر بل العكس من ذلك أن بعض الدول العربية أسرعت بنجدة أمريكا، من واقع المسئولية القومية تجاه غزو غادر من دولة شقيقة، وهى خطيئة لا تغتفر فى حق هذا النظام الغادر.

(١) د. توفيق حصو : العلاقات الخليجية العربية - الأمريكية ص٧٧.

(٢) جون بولوك: الخليج ٢١٦.

ومع هذا لا نعتقد بأن الإدارة الأمريكية سوف تتخلى عن إسرائيل وأكبر دليل الموقف الأمريكى وخاصة الكونغرس المؤيد للمذبحة الإسرائيلية فى الحرم القدسى الشريف والسعودية نفسها من المذابح الإسرائيلية، ونعتقد بأن الدور الإسرائيلى سيكون كبيراً بحجم تحالفها مع الولايات المتحدة كضرب العراق أو أى كيان عربى إن عاجلا أو آجلا.

نظرة مستقبلية :

يخبىء المستقبل الكثير لدول مجلس التعاون الخليجى ولذا نحاول التوصل إلى استنتاجات للنظرة المستقبلية التى تنحصر فى المادة الاستراتيجية الأولية وهو النفط والطلب المتزايد عليه بعض النقاط أهمها :

١ - الاهتمام العالمى وتركيزه على النفط وخاصة من قبل العالم الرأسمالى والسوفييت ودول أوروبا الشرقية فى المستقبل القريب .

٢ - المنافسة الدولية على الخليج العربى وسوف تتركز بين ثلاثة قوى رئيسية إن لم تكن خمسة وهى :

١ - الولايات المتحدة الأمريكية .

٢ - أوربا الموحدة بزعامة ألمانيا وفرنسا .

٣ - روسيا الإتحادية .

٤ - اليابان والصين وكوريا الموحدة واستراليا (شرق آسيا) .

٥ - البرازيل، الهند، الأرجنتين وبقية دول العالم الثالث .

٣ - احتمال قيام تحالفات عسكرية وأمنية بين دول المنطقة وبين دول العالم الرأسمالى الغربى وخاصة القوات الأمريكية المتواجدة والفرنسية والبريطانية الموحدة حالياً فى السعودية، مما ينتج محور آخر مضاد له من دول المنطقة الكبيرة مثل إيران والعراق واليمن وقد تنضم إليهم دول عربية وأجنبية أخرى مثل روسيا والصين.

قد تكون هذه الاستنتاجات راجعة إلى تزايد الطلب العالمى على نفط الخليج العربى. مقابل تناقص فى أماكن أخرى واحتمال أيضاً توفر عمل أو أماكن تكشف ولكن الأهمية الأولى ستكون للمنطقة ، لكثرة الإنتاج وقلة الاستهلاك وإعادة تدوير عوائد النفط بسهولة ووجود أكبر احتياطى فى العالم.

وتقول التقديرات العالمية بأن النفط سيشكل (٦٪) والغاز الطبيعى (٥٪) من موارد الطاقة التى يتم استيرادها ، إضافة إلى تطور التقدم العلمى يجعل الاستفادة القصوى من كافة منابع النفط ، ومزيد من الاكتشافات وإيجاد البدائل، وقد يبلغ فى عام (١٩٩٦) ذروة الإنتاج العالمى مع انخفاض فى الأسعار مع ازدياد الطلب عليه فى حين تستمر دول المنطقة فى الإنتاج بمعدلاتها الحالية وقد تزيد قليلا بما يعادل أربعة ملايين للإمارات ، وستة ملايين للسعودية ، وستة ملايين للعراق، وما بين مليونين وثلاثة ملايين لكل من الكويت وإيران واحتمال دخول اليمن نادى المنتجين بحوالى مليونين أو أكثر قليلاً، مع وضع كافة الاحتمالات بإيجاد البدائل أو الاكتشافات الجديدة والتطور التكنولوجى للنفط وخاصة نفط سيبيريا وآلاسكا وشمال كندا .

ويؤكد وجـود الإحتيــاط ما لا يقل عن (٥٨٥) مليون برميل فى العالم ما عدا روسيا ، وحصة الأوبك منه ثلاثة أرباع ودول المنطقـة ثلاثـة أخمـاس منها، مع تزايد الاعتماد الغربى على نفـط الخليـج العربـى، وانخفـاض إنتـاج بحـر الشـمال والنرويج(١) ، وإزديـاد أهميـة المنطقـة وتزايـد دور المنتجيـن الرئيسين مثل السعودية والعراق والإمارات ، مع تزايد اعتماد أوروبا الشرقية على نفط المنطقة بعد استقلالها أكثر من الاعتماد على نفط روسيا الذى بدوره يلجأ إلى الاستيراد برغم وجود الإحتياط لديـه إذا مـا استمر فـى التحـولات الاقتصادية إلى النظام الرأسمالى مما يجعله يتقرب أكثر إلـى الخليـج العربـى مما يعنى عودة المنافسة من جديد ولكن ليس بين قوتيـن وإنمـا أكثر وخاصـة بين الولايات المتحدة وأوربا المتحدة وروسيا إن لم تدخل دول أخرى فى هذا الصراع والمرشحة اليابـان والصيـن والبرازيل. وأيضـاً احتمـال قيـام تعـاون إقليمى أو كيان سياسى موحد للجزيرة العربية أو إضعاف الدور الأمريكـى أو إقامـة حلـف برئاستها والاحتمـالين واردين فـى المنظـور القريـب فـى حيـن الاحتمال الأول وارد فى المنظور البعيد .

وتخوف قائم فـى المستقبل من أن يصبح سكان دول مجلس التعـاون الخليجى أقلية مع استمرار تدفق الأجانب إذا لم يوجد حـل لهذه المشكلة، أمـا إذا ما تم إقامة كيان موحد للجزيرة العربية وحتـى عمليـة الاستقطاب الدولـى وخاصة الغربى تكون أقل برغم أنها سوف تمنع ولو بالقوة أية محاولات جادة لإدخال اليمن فى هذا الإتجاه .

---

(١) جون بولوك : نفس المرجع ص٢١٧.

وينظر جون بولوك نظرة متفائلة ولكن متشائمة للعرب لخطورتها على الأمن القومى إذا ما أصبح نظرته حقيقية حيث يقول: " من المحتمل أن تصبح المجتمعات الخليجية أكثر استقراراً وسيزداد الضغط من أجل المساواة فى الحقوق. وفى نفس الوقت سيكون هناك جيل جديد من الحكام عنده قابلية أكثر للإصغاء لصوت الشعب، كل الشعب وستكون النتيجة أن القطرى أو الكويتى أو البحرينى ربما كان أصله من الباكستان أو تايلاند وحتى كوريا - إن التزاوج بين الأجناس المختلفة قد بدأ بالفعل ومن المحتمل أن الخليج عالمى الطابع أكثر من البلدان الأخرى"(١) .

يلعب الغرب الرأسمالى دوراً رئيساً فى التنظيم السياسى بدعمه لإقامة الكيانات السياسية والحفاظ عليه لاستمرار مصالحه، وإذا ما أراد الغرب توحيد تلك الأنظمة والكيانات الحليفة للغرب يجب إقناع وتطمين الولايات المتحدة بأن هذا الاتحاد السياسى والاقتصادى للجزيرة العربية الموحدة، وحماية أمنها الوطنى وبداية حقبة جديدة، ويجب على الغرب فى ظل هذا التغير التخلى نهائياً عن التدخل العسكرى الباهظ التكاليف ذات النتائج العكسية بالاستياء الشعبى لدى أرجاء الوطن العربى، وبدلاً من ذلك إقامة علاقات قوية بتنمية مشاريع اقتصادية تكون المصلحة فيها متبادلة ومتكافئة بين الطرفين مما يزيد الأعباء والالتزامات السياسية والإقتصادية من كاهل الغرب الرأسمالى لفترة طويلة فى المستقبل ، فالتعامل مع دولة قوية إتحادية أفضل بكثير من ستة كيانات مجزأة، وذلك إنطلاقاً من صعوبة اخضاعها لسياسة

---

(٢٦) رياض نجيب الريس : الخليج العربى. رياح التغير ص٨٣.

معينة سواء كانت إقليمية أو دولية تنفرد فى تغير مجرى الأحداث([1]) ودون موافقة جميع الدول الخليجية. وانطلاقا مما سبق ذكره سنضع التصورات المستقبلية الآتية :

١ – اختلاف وجهات النظر حول مفهوم أمن الخليج العربى والجزيرة العربية أدى إلى عدم الإتفاق حتى ولو على الحد الأدنى لإقامة أو وضع استراتيجية مشتركة لأمن المنطقة رغم أهميته الحيوية والقصوى للحفاظ على كياناتها السياسية.

٢ – يجب أن يكون مفهوم الأمن فى المنطقة مفهوما شاملا وليس الجانب العسكرى ويشمل التعاون والخطط فى جوانب التكامل الاقتصادى والثقافى والاجتماعى والتنسيق السياسى بين دول مجلس التعاون الخليجى.

٣ – أن ضياع إيران من دائرة النفوذ الأمريكى بعد الثورة الإسلامية دفع الولايات المتحدة بالتمسك بالسعودية بديلا غير قابل التفريط فيه بعد أحداث الكويت، مما يعنى تحجيم النفوذ الأمريكى وتهديد لمصالحها فى المنطقة، وتواجد قواتها فى السعودية والكويت حالياً يأتى من هذا المنطلق وسوف تستمر لفترة طويلة إن لم تكن دائمة ما لم تواجه بقوة عربية موحدة وبذلك يمثل خطر يوازى خطر إسرائيل فى فلسطين إن لم يكن أكبر.

٤ – برغم ميل روسيا إلى جانب مواقف الولايات المتحدة فى الفترة الحالية نظراً لأزمته الاقتصادية والمشاكل السياسية الداخلية إلا أنه سوف يعود أقوى من ذى قبل فى المستقبل القريب إلى الخليج العربى للحصول على

---

(٢٧) رياض نجيب الريس : نفس المرجع ص٨٣.

مكاسب استراتيجية أو على الأقل شريك الولايات المتحدة فى المنطقة، بعدما تكون الولايات المتحدة قد ثبتت أقدامها بشكل أقوى فى المنطقة، ولهذا يجب على دول وكيانات الخليج والجزيرة العربية أن تعى جيداً للصراعات وسياسات تلك الدول، وتعمل جهدها لأخذ المبادرات الذاتية حول التحديات بالمبادرات الفردية الآتية التى تنصب فى مجرى سياسة الهيمنة للدول الكبرى.

٥ - عدم تقديم التسهيلات للدول الكبرى، أو توقيع اتفاقيات ثنائية معها فى مجالات استراتيجية تؤثر على قدراتها الوطنية وتحجم من استقلالية قراراتها وسيادتها الداخلية والخارجية وتنوع مصادر التسليح إن لم يكن إيجاد قاعدة للصناعة العسكرية العربية حتى لا تقع تحت رحمة تلك الدول.

٦ - نبذ الخلافات الجانبية وعدم التدخل فى الشؤون الداخلية للدول الأخرى.

٧ - سحب الأرصدة والودائع من الدول الرأسمالية الغربية وإيجاد بدائل للتنمية فى الكيانات العربية ودول العالم الثالث.

٨ - نهج سياسة أكثر استقلالية فى التصنيع وخاصة الصناعات الثقيلة والتحكم فى المصادر النفطية والصناعات المشتقة منها، والتنسيق والتعاون المشترك فى اتخاذ القرارات الحيوية.

٩ - تحقيق الأمن الجماعى العربى القومى، وتشكيل قوة الردع العربية، وبناء القدرة الذاتية القادرة على حماية الأمن القومى العربى ولو إقليماً فى الجزيرة العربية كبداية الطريق.

١٠- العمل على إيجاد إستقرار سياسى فى الجزيرة العربية بالمشاركة الشعبية فى اتخاذ القرارات المصيرية بالسماح بالمؤسسات الدستورية والممارسة الديمقراطية.

الخاتمـــة :

وفى الختام أتمنى من الله العلى القدير بأن أكون قد وفقت فى هذه الدراسة لإعطاء القيادة العربية دورهم فى اتخاذ القرار السياسى والقاعدة الشعبية العربية، للاهتمام بالتحديات للأمن العربى فى دول مجلس التعاون الخليجى ذو أهمية استراتيجية دولية قبل العربية، والمفروض أن تكون العكس عربية قبل الدولية، ولكن التمزق والشتات العربى والأنانية القطرية فى كيانات أوجدها الاستعمار الغربى الرأسمالى، كل ذلك جعلنا نهتم بهذه الأمور لنتوصل إلى قناعة تامة بضرورة المشاركة الشعبية لدرء الأخطار واتخاذ القرارات السياسية والمصيرية لمواجهة التحديات الداخلية قبل الخارجية والتوجه بقوة نحو العمق القومى العربى الامتداد الطبيعى للجسد الواحد قبل القطرى والإقليمى.

ولم أقصد بهذه الدراسة إلا محاولة بسيطة الغرض منها كشف المخاطر والتحديات التى تحدق بالأمة العربية والأمن القومى لعلنا نستطيع المجابهة بالواقعية بدلا ومن العاطفة والأنانية الذاتية، ولا أعتقد بأننى توصلت إلى ما كنت أصبو إليه، ولكننى أعتبر هذا بداية المشوار نحو دراسات أكثر شمولية لواقعنا ولرفع معاناتنا الفكرية نحو تمزق الأمة العربية، لتأخذ طريقها بين الأمم التى بدأت بعدنا وأخذت مواقعها أمامنا ولعل انتفاضة شعبنا بفلسطين

وشعوب أوروبا الشرقية ووحدة ألمانيا تكون خير معين وحافز لنا، للوقوف أمام القوى التى تحاول النيل من تجزئة وطننا العربى الكبير وخاصة مشرقه الغنى بالنفط وعوائده. حتى تنهل سيوف الغرب الرأسمالى غنائمه دون إعطاء المجال لأبنائه النهوض من كبوته بالتسلط والتبعية الاقتصادية قبل السياسية .

وأخيراً وليس آخراً أمنياتنا القادمة قيام وحدة أو اتحاد الجزيرة العربية بين جميع كياناتها بما فيها اليمن الغير سعيد بالنفط .

وأختم دراستى بالثناء والحمد لله تعالى وأصلى على نبيه الكريم وعلى آل بيته الطاهرين .

محمد عبد الله بن مسرة
ونزعته المسرية فى الأندلس(*)

دكتور محمد بركات البيلى

كلية الآداب - جامعة القاهرة

تنسب النزعة المسرية إلى أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن مسرة الجبلى(١) الذى يعده البعض " أول مفكر أصيل أطلعه الأندلس الإسلامى "(٢). لكننا لا نبالغ إذا قلنا إن كثيراً من الغموض لا يزال يكتنف ما يعرفه الدارسون عن شخصية محمد بن عبد الله بن مسرة ونزعته المسرية على الرغم من الجهود المشكورة التى بذلها عدد من الدارسين فى هذا الصدد(٣) مما دفعنا إلى تناول هذا الموضوع الشائك أملاً فى الإسهام فى فهم أبعاده وجلاء غوامضه .

(*) من واجبى توجيه الشكر والامتنان للأستاذ الدكتور محمود على مكى على ما بذله من جهد فى مراجعة هذا البحث وقد أفادنى علمه الغزير فى تصحيح هفوات لا تغتفر ولعل تصويبى تلك الهفوات هو التعبير العملى عن امتنانى وعرفانى لفضله .

(١) يكتب البعض تلك النسبة الجيلى بالياء المثناة ويرى د. محمد كمال جعفر (من التراث الفلسفى لابن مسرة ص ٦ - ٧) أن الصواب هو الجبلى نسبة إلى الجبل الذى استقر فيه ابن مسرة وزملاؤه .

(٢) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلس ، ترجمة حسين تونس ص٢٣٦ .

(٣) يأتى فى طليعة تلك الجهود ما كتبه آسين بلاثيوس فى
Asin Palacios : Ibn Massara y su Escuela , Madrid 1914 .

يرجع الغموض الذى يكتنف فكرة الدارسين عن المسرية ومؤسسها ليس فقط إلى قلة ما وصلنا عنهما من معلومات(١) وإنما أيضاًفراغ إلى نوعيه المصادر التى أمدتنا بهذه المعلومات ، فأغلب تلك المصادر متحامل على المسرية ومؤسسها لايهتم ببيان جوانب النزعة المسرية بقدر اهتمامه بذكر مثابها وتحريض الناس ضدها ومن ثم يصعب الركون التام إلى تلك المصادر المتحاملة على الرغم من أنها لا تزال لها أهميتها فى التعرف على المسرية ومؤسسها ولا يغنى عنها أن وصل إلينا مؤلفان من مؤلفات ابن مسرة هما رسالة الاعتبار - أو التبصرة - وكتاب الحروف أو " خواص الحروف وحقائقها وأصولها "(٢) .

ولد محمد بن عبد الله بن مسرة فى قرطبة سنة ٢٦٩هـ / ٨٨٣م ، ونشأ فى أسرة أندلسية يغلب على أفرادها الاهتمام بعلوم الدين ، فقد كان أبوه عبد الله بن مسرة بن نجيح من علماء الأندلس المعدودين فى وقته ، رحل إلى المشرق رحلتان أولاهما كانت فى صغره رفقة أخيه التاجر إبرهيم بن مسرة بن نجيح قبل سنة ٢٤٠هـ(٣) وقد زامله فى تلك الرحلة محمد بن عبد

---

(١) لم ترد فى كتب التراجم المعروفة بالمكتبة الأندلسية إلا ترجمتين مقتضبدتين لمحمد بن عبد الله بن مسرة أولاهما عند ابن الفرضى(تاريخ علماء الأندلس١٢٠٤/٣٩/٢)

(٢) حقق محمد كمال جعفر ونشر رسالتى الاعتبار والحروف عن نسخة فريدة بمكتبة تشستربيتى- دبلن بايرلندا برقم ٣١٦٨ مجاميع وضمهما كتابه " من التراث الفلسفى لابن مسرة " القاهرة /١٩٨٢ .

(٣) ابن الفرضى : تاريخ علماء الأندلس ١١٣٤ / ١٤ / ٢

- يجعل بروكلمان (تاريخ الأدب العربى حـ٤ ص١٥٣) الرحلة المذكورة فى سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤ م متجاهلاً كلمة قبل التى تسبق السنة المذكورة فى نص ابن الفرضى.

السلام الخشنى فاشتركا فى السماع على كثير من البصريين مثل بندار محمد ابن بشار وعمرو بن القلاسى ومحمد بن المثنى الزمن وغيرهم لكن عبد الله بن مسرة أطال مكثه بالبصرة وتردد فيها فأكثر حتى عاد إلى الأندلس فكان لذلك أثره على ميوله العلمية واتهم – رغم فضله ودينه وطويل صلاته – بالقدر أى بالاعتزال لكنه أخفى اعتزاله ولم يصرح به(١) لموقف الأندلسيين المناهض للاعتزال .

ويبدوا أن كتمانه للاعتزال هو الذى جعل كثيراً من الأندلسيين يأخذون عنه دون تحرج مثلما أخذوا عن معاصريه : محمد بن وضاح بن بزيغ ومحمد بن عبد السلام الخشنى وغيرهما ، فكان ممن أخذ عن عبد الله بن مسرة كل من : إسماعيل بن بدر بن زياد(٢) وثابت بن حزم السرقسطى(٣) وقاسم بن أصبغ البيانى(٤) ومحمد بن إبراهيم بن حيون(٥) ومحمد بن عبد الله بن مغيث(٦) ومحمد بن إسماعيل النحوى المعروف بالحكيم(٧) وغيرهم

وكان إبراهيم بن عبد الله بن مسرة الأخ الأكبر لمحمد بن مسرة يميل أيضاً إلى العلم مثل أبيه عبد الله فسمع من أبيه ومن محمد بن وضاح ومحمد

(١) ابن الفرضى : المصدر السابق ٦٥٢ / ٢١٧ .

(٢) نفس المصدر ٢١٦ / ٦٦ .

(٣) نفس المصدر ٣٠٨ / ١٠٠ .

(٤) نفس المصدر ١٠٧ / ٣٦٤ .

(٥) نفس المصدر ١١٦٦ / ٢٦ / ٢ .

(٦) نفس المصدر ١١٨٧ / ٣٤ / ٢ .

(٧) نفس المصدر ١٢٣٢ / ٥٢ / ٢ .

ابن عبد السلام الخشنى وغيرهم ثم رحل إلى المشرق صحبة أبيه الذى رحل إلى المشرق رحلة ثانية - وأخيرة - فسمع إبراهيم بن عبد الله من جماعة بالمشرق لكنه توفى فى رحلته بالإسكندرية (١) فحزن أخوه محمد لوفاته حزناً شديداً يدل على شدة ارتباط محمد بن مسرة بأخيه إبراهيم فى تلك المرحلة المبكرة من حياته قبل أن ينشغل بشئ من نزعته المسرية يلهيه عن الجزع لوفاة أخيه الأكبر (٢) .

مال محمد بن عبد الله بن مسرة إلى العلم مثل أبيه وأخيه الأكبر ، فسمع فى صغره من أبيه قبل أن يرحل أبوه نهائياً عن الأندلس تاركاً كتبه بيد ابنه محمد(٣) وقد تعددت الأقوال فى تبرير رحيل عبد الله بن مسرة عن الأندلس فقيل إنه فر بمذهبه فى الاعتزال بعد أن تكشفت حقيقته نظراً لصداقته لخليل القدرى فضلاً عن شهادة أحد تلاميذه - وهو محمد بن إبراهيم بن حيون - عليه

---

(١) ابن الفرضى : المصدر السابق ٢٣ / ١٤

- يبدو أن وفاة إبراهيم بن عبد الله بن مسرة كانت فى رحلة إيابه بعد أن تردد مدة بالمشرق لأن الشعر الذى رثاه به أخوه محمد أنضج من أن ينظمه طفل صغير لم يكن عمره كبيراً حين رحل إبراهيم إلى المشرق صحبة أبيه .

(٢) أنشد محمد بن عبد الله بن مسرة فى رثاء أخيه إبراهيم أبياتاً منها :

أحقا أيها الناعى السميع أبواسحاق ليس له رجوع

(٣) يذكر ابن الفرضى أن عبد الله بن مسرة مكث بالأندلس حتى كبر ابنه محمد" مع أن محمد بن عبد الله بن مسرة كان صغيراً حين رحل أبوه نهائياً عن الأندلس فى آخر أيام الأمير المنذر بن محمد أى قبل سنة ٢٧٥ هـ بينما كان ميلاد محمد بن مسرة كان سنة ٢٦٩ هـ وعلى ذلك لم يتجاوز السادسة من عمره حين رحل أبوه .

بالقدر ، وقيل إنه فر من الأندلس لدين ركبه(١) لكننا نستبعد هذا هذا السبب الأخير الذى يتنافى مع ما قيل ، عن أن عبد الله بن مسرة ترك لابنه محمد ضيعة جبل العروس من ناحية ، ومن ناحية أخرى كانت رحلة الفرد إلى المشرق تتكلف نفقات باهظة(٢) فأنى له إذا كان مديناً بنفقات رحلته هو وابنه إبراهيم الذى رحل معه .هذا وتشير المصادر إلى أن عبد الله بن مسرة قد أقام بمكة وأصبح له بها جاه عريض حتى وفاته سنة ٢٨٦هـ / ٩٠٠م(٣) .

لم يتسن لمحمد بن عبد الله بن مسرة أن يسمع كثيراً من أبيه قبل رحيله إلى المشرق على الرغم من أن أباه - فيما يبدو - كان يريد أن يعده اعداداً خاصاً(٤) لكنه اضطر إلى الرحيل عن الأندلس قبل أن يشب ولده

(١) ابن الفرضى : المصدر السابق ٦٢٥ / ٢١٧ .

- يرى بروكلمان (المرجع السابق حـ٤ ص١٥٣) أن عبد الله بن مسرة رحل إلى المشرق حين رأى رفاقه فى المذهب يضطهدون بالأندلس .

(٢) لم يستطيع سحنون أن يخرج إلى المشرق للقاء مالك لأنه لم يكن يملك نفقات الرحلة وقتذاك .

(٣) هناك خطأ فى التاريخ المثبت لوفاة عبد الله بن مسرة فى الترجمة المطبوعة لتاريخ الفكر الأندلسى لبالنثيا إذ جاء فيها أنه توفى سنة ٢٩٩هـ / ٩١٢م والصواب ما أثبتناه عالياً .

(٤) كان قاسم بن أصبغ يروى بالأندلس حديثاً " من كان له زويطن فأجمع أن يسميه محمداً رزقه الله غلاماً وما كان اسم محمد فى بيت إلا جعل الله فى ذلك البيت البركة " وسواء كانت رواية قاسم بن أصبغ هذه عن عبد الله بن أبى مسرة أوعن عبد الله بن مسرة فقد كان الحديث معرفاً بالأندلس (العبدرى : الرحلة المغربية ص٢٦٤)

الطوق فسمع محمد بن مسرة من محمد بن وضاح ومحمد بن عبد السلام الخشنى وكان ما أخذه عنهما لايؤدى إلى شىء من النزعة التى نزع إليها فيما بعد والمعروفة بالمسرية ، فابن وضاح والخشنى من رجال الحديث المعدودين،وإذا كان بالنثيا قد ذهب إلى أن عبد الله بن مسرة هو الذى علم ابنه محمداً علوم الدين والفلسفة(١) فلايبدولنا أن محمد بن مسرة كان يستطيع أن يعى شيئاً من الاعتزال وهو لايزال بعد فى تلك السن الصغيرة التى كان عليها حين رحل أبوه ولقد كان أخوه إبراهيم أكبر منه سناً وأولى منه بالتأثر بأبيه لكنه لم يظهر عليه شىء من ذلك قبل رحيله إلى المشرق مع أبيه إذا إطلع ابن الفرضى على بعض كتب سماعه من شيوخه : ابن وضاح والخشنى ومطرف بن قيس وقال عنه إنه " لم يكن كأخيه "(٢) .لكننا إذ نستبعد تأثير عبد الله بن مسرة فى فكر ابنه محمد تأثيراً قوياً مباشراً عن طريق السماع فإننا لا نستبعد تأثيره من خلال كتبه التى تركها بيد ابنه محمد حين رحيله عن الأندلس نهائياً فأغلب الظن أن محمد بن عبد الله بن مسرة قد أقبل على قراءة كتب أبيه بنفسه دون توجيه من أحد فكانت تلك الكتب - فيما يبدو - أحد أهم مصادر ثقافته .

يذهب بعض الدارسين فى سيرة محمد بن عبد الله بن مسرة إلى أقوال ينبغى التحوط منها ، فعلى سبيل المثال يذكر بالنثيا أن محمد بن مسرة حينما بلغ السابعة عشرة من عمره " كان له فى هذه السن المبكرة عدد من التلاميذ وكان يعيش مع أقربهم منه فى معتزل له كان يملكه بجبل قرطبة ولم تلبث

(١) بالنثيا : المرجع السابق ص٣٢٦ .

(٢) تاريخ علماء الأندلس ٢٣ / ١٤ .

الأراجيف أن انتشرت حول طبيعة تعاليمه فقيل إنه كان يلقن تعاليم بدعة الاعتزال - التى تقول بأن الإنسان هو الفاعل الحقيقى لجميع ما يصدر عنه من أعمال وأن عذاب النار ليس عذابا حقيقياً - كما قيل إنه ينشر آراء أبتاذقليس التى تنحو نحو وحدة الوجود وتكاد أن تكون فلسفة الحادية "(١) ويضيف بالنثيا أن تحرج الظروف السياسية والاجتماعية العامة فى الأندلس حينذاك فى إمارة عبد الله بن محمد وخروج كثير من المنتزين على طاعته جعلت الأمير عبد الله يسكت عن ابن مسرة وأتباعه خوفاً فمما قد تؤدى إليه ملاحقته إياه من فتنة جديدة تزيد من سوء الأوضاع فى الأندلس(٢) ويصعب علينا قبول أن يكون لمحمد بن عبد الله بن مسرة فى سن السابعة عشرة تلاميذ يتلقون عنه . وقد ذهب آسين بلاثيوس إلى أن محمد بن مسرة قد أسس قبل رحيله إلى المشرق قبيل ٣٠٠هـ جماعة سرية لخطورة تعاليمه وتجنباً لمعارضة الفقهاء المالكية المتشددين وخشية من تأليبهم السلطة عليه فى وقت مضطرب يبعث على الأخذ بالشبهة والشك فى الولاء(٣) .

يتضح مما سبق أن بالنثيا وبلاثيوس متفقان على أن محمد بن مسرة كان قد أسس جماعة سرية ومذهباً خاصاً به قبل رحيله إلى المشرق على الرغم مما بينهما من تفاوت ، فبالنثيا يجعل اقدام ابن مسرة على تلك الخطوة فى سن السابعة عشرة بينما يؤخرها بلاثيوس إلى بلوغه نحو الثلاثين عاماً . وكان بالامكان تقبل ما ذهب إليه بلاثيوس لولا أن ماكتبه ابن حيان وابن

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسى ص٣٢٧ .

(٢) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(3) Asin Palaciosn ; Ibn Massara y su Escuela pp. 42 - 44

الفرضي ينفي أن يكون لابن مسرة مذهب قبل رحيله إلى المشرق ، يذكر ابن حيان أن محمد بن مسرة " كان قد رحل إلى المشرق فلقى هناك من درسه مذهبه "(١) أى أنه لم يكن بصاحب مذهب قبل رحلته إلى المشرق . ويذكر ابن الفرضي أن محمد بن مسرة " اتهم بالزندقة فخرج فاراً وتردد مدة واشتغل بملاقاة المتكلمين وأصحاب المقالات وأهل الجدل من المعتزلة وغيرهم فحذق أقوالهم ثم انصرف إلى الأندلس فأظهر نسكاً وورعاً واعتزالاً للناس فاغتروا بظاهره واختلفوا إليه وسمعوا منه "(٢) . وهكذا لايثبت ابن الفرضي لمحمد بن مسرة مذهباً ولا جماعة سرية قبل خروجه إلى المشرق لكنه ينقل عن الخطاب بن مسلمه الذى عاصر محمد بن مسرة حيناً من الدهر(٣) أن محمد بن مسرة اتهم بالزندقة ومع أن هذا الاتهام لا يعنى أن يكون محمد بن مسرة زنديقاً بالفعل لكن يبدو أن سبب توجيه هذا الاتهام إليه أنه ردد فى مقتبل حياته بعضاً مما قرأه بنفسه فى كتب أبيه دون توجيه من

(١) المقبس : جـ٥ ، نشر شالميتا ، ص٢٠ .

(٢) تاريخ علماء الأندلس ١٢٠٤ / ٣٩ / ٢ .

(٣) ولد أبو المغرة خطاب بن مسلمة بن بترى سنة ٢٩٤هـ أى أنه كان فى الخامسة والعشرين من عمره حين وفاة محمد بن مسرة واتهام ابن مسرة من قبل الخطاب قد لا يكون صحيحاً لأن الخطاب كان فيما يبدو من مناهضى المسرية واستحق على ذلك أن يصلى علية القاضى محمد بن زرب ومن ثم يبدو أن عداءه للمسرية جعله يكيل الاتهام إلى مؤسسها . وينفى مصطفى الشكعه يهتمة الزندقة عن ابن مسرة لأن القاضى منذر بن سعيد البلوطى كان يقول بالاعتزال مثل ابن مسرة ولو رأى زندقياً ماسكت عنها (مواقف المستشرقين من الحضارة الإسلامية فى الأندلس (من كتاب مناهج المستشرفين فى الدراسات العربية الإسلامية حـ ٢ ص ص ٢٧٣ – ٣٤٣) .

شيخ ولا استاذ فجاء ماتشدق به مما قرأه فى تلك الكتب نوعاً من الأراجيف التــى جعلتــه موضع انتقــاد الفقهاء المالكية فخرج إلى المشرق بزعم أداء فريضة الحج(١) . ولعله كان يضمر لقاء المتكلمين والمعتزلة ليأخذ عنهم ويحذق أقوالهم التى لم يتسن له أن يحذقها قبلاً اعتماداً على كتب أبيه دون توجيه من أحد المتكلمين .

رحل محمد بن عبد الله بن مسرة فى تاريخ يجعله ابن الفرضى "فى آخر أيام الأمير عبد الله "(٢) دون أن يحدد سنه بعينها وإن كان ذلك يعنى أنه رجل قبيل سنه ٣٠٠هـ فى نحو الثلاثين من عمره لكن ابن الآبار يذكر أن "أحمد بن غانم ويعرف بالمدينى رحل مرافقاً أبا عبد الله بن مسرة الجبلى فى وجهته إلى الحج سنة احدى عشرة وثلثمائة "(٣) ويسجل ابن الفرضى أن أبا محمد عبد الله بن مطرف المعروف بابن آمنة " رحل فى سنة احدى عشر وثلاثمائة وكان مرافقاً لأحمد بن سعيد(*) وابن أبى عيسى(**). ومحمد بن

---

(١) قيل إن محمد بن مسره خرج بعد أن كتب أحمد بن خالد المعروف بالجباب صحيفة يتهم فيها رأى ابن مسرة وعقيدته (بالنثيا: المرجع السابق ، ص ٣٢٧) ويرى الدكتور محمود مكى فى ملاحظاته على البحث أن هذا الخبر - وهو منقول أساساً عن أسين بلاثيوس - غير مؤكد إذ لم يذكر أى مصدر من مصادر ترجمة ابن مسرة تاريخ تأليف الصحيوة .

(٢) تاريخ علماء الأندلس ١٢٠٤/ ٣٩/ ٢

(٣) التكملة لكتاب الصلة ٨/ ٢٥

(*) أحمد بن سعيد بن حزم ، ترجم له ابن الفرضى ١٤٢/ ٤٣

(**) محمد بن عبد الله بن أبى عيسى، ترجم له كل من: ابن الفرضى : ١٢٥٣/٥٨/٢ والقاضى عياض:ترتيب المدارك مجلد ٢ ص٤٠٥ - ٤١٢ والخشنى: قضاة قرطبة ص ١١٩

مسرة"(١) ولكنه يذكر فى ترجمته لابن أبى عيسى أنه رحل إلى المشرق سنه ٣١٢هـ(٢) والتاريخ الأخير- ٣١٢هـ- هو ما يذكره كل من الخشنى (٣) والقاضى عياض(٤) وابن كان عياض يذكر أن اجتماع ابن أبى عيسى وابن حزم وابن مسرة(•••) كان فى قفولهم إلى الأندلس. وهكذا نجد أمامنا أكثر من تاريخ لرحلة ابن مسرة إلى المشرق مما يدعونا إلى التوفيق بينها.

أغلب الظن أن محمد بن مسرة قد خرج إلى المشرق قبيل سنة ٣٠٠هـ فى آخر أيام الأمير عبد الله لكنه تردد فى المشرق فترة قبل توجهه إلى الحج فنزل القيروان ومصر والبصرة وغيرها، يروى الخشنى أنه حضر بالقيروان مجلس أحمد بن نصر، ومع أن الخشنى لم يحدد وقت حضوره ذلك المجلس إلا أن عبارة الخشنى تدل على أن ابن مسرة كان فى رحلة ذهابه وأنها كانت قبيل سنة ٣٠٠هـ لا تتأخر عن ذلك إذ روى الخشنى الذى كان يرتاد مجلس أحمد بن نصر" حضرته يوماً ونحن عنده وجماعة من الناظرين فى المسائل والمعنيين بالمناظرة حتى دخل عليه محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبى فسلم وجلس جانباً وأنا لا أعرفه ولا أحد من المجلس فرأيته يقلب بصره فى وجوه المتكلمين ويبدل النظر فيما بينهم فعل من قد رسخ فى

(١) تاريخ علماء الأندلس ٦٩٥/ ٢٢٩

(٢) نفس المصدر، ١٢٥٣/ ٥٨/ ٢

(٣) قضاة قرطبة ص١١٩

(٤) عياض : ترتيب المدارك مجلد ٢ ص ٤٠٥

(•••) جاء فى طبعة المدارك بتحقيق أحمد بكير محمود لفظ "مسرة" مصحفاً إذ رسم (جـ ٢ص ٤٠٥) " مسور " ومسورة " والصواب مسرة .

الصنعة وعرف ما نحن فيه فلم أشك أنه من أهل العلم وما فطن بذلك منه غيرى وغير فتى من أصحابى يعرف بربيع القطان وطال المجلس بناحتى أظهر الشيخ التحرك وأومى إلى القيام وتداعى أهل المجلس إلى النهوض .. قلما خف المجلس تحول إليه أحمد بن نصر فقال له : "يا شاب: جلست منذ اليوم فهل من حاجة تذكرها فاندفع مقتبسا محمد بن مسرة بكلام مصنوع إلاأنه حسن من الكلام جيد فقال أتتك مقتنا من نورك ومستمداً بعلمك إلى ما يشبه هذا من القول وأتى به شبيها بخطبة موجزة ولا عهد لأحمد بن نصر بمن يخاطبه بهذا الضرب من الخطاب فجعل الشيخ ينظر إليه ويفهم عنه حتى أتى ابن مسرة على ما أحب أن يتكلم به" (١).

يتضح من النص السابق أن محمد بن مسرة حينما حضر مجلس أحمد ابن نصر كان شاباً، خاطبه بذلك أحمد بن نصر، وإذا قدرنا أن عمره الذى يحشره فى زمرة الشباب كان نحو الثلاثين عاماً فمعنى ذلك أن حضوره ذلك المجلس كان نحو سنه ٢٩٩هـ وهو تاريخ يتناسب مع القول بأن خروجه عن الأندلس كان فى أواخر أيام الأمير عبد الله بن محمد . ونفهم من النص أيضاً أن محمد بن مسرة كان فى رحلة ذهابه لا رحلة أيابه، إذ يبدو من إندفاعه بكلام مصنوع وتملقه أحمد بن نصر - بأنه أتى إليه مقتبساً من نوره ومستمداً بعلمه - أن محمد بن مسرة كان فى مرحلة التحصيل وطلب العلم لم يصبح بعد صاحب نزعة ولا مذهب يجعله مطلوباً لا طالباً ومعلماً لامتعلما ويبدو صدق هذا القول فى ضوء ما قاله ابن أبى عيسى لمحمد بن مسرة فى قفولهما

(١) طبقات علماء افريقية ص ١٦٠

إلى الأندلس " أما أنت يا أبا عبد الله فأراك تثير بالأندلس فتنة تبقى آخر الدهر.."(١).

لم يكن محمد بن عبد الله بن مسرة بلا رفقة فى رحلته إلى المشرق بل صحبه فى رحلته عدد من الرفاق ذهاباً وإياباً، كان منهم من ينتسب إلى النزعة المسرية معدوداً فى تلاميذ ابن مسرة مثل محمد بن بكر التنوخى المعروف بابن المدينى، كان فيما يبدو ألصق أصحاب ابن مسرة به، إذ يذكر المقرى أنه " صحب محمد بن عبد الله بن مسرة الجبلى قديماً واختص بمرافقته فى طريق الحج ولازمه بعد انصرافه"(٢). ومحمد بن وهب المعروف بابن صيقل(٣) وأبو محمد عبد الله بن مطرف المعروف بابن آمنة(٤) وأحمد بن غانم المعروف بالمدينى الذى التقى بمحمد مسرة بمكة(٥) وأحمد بن سعيد ابن حزم الصدفى ومحمد بن عبد الله بن أبى عيسى اللذان رافقا محمد بن مسرة فى رحلة الإياب إلى الأندلس. وتدل كثرة رفاق ابن مسرة فى ذهابه وإيابه على أن رحلته لم تكن فراراً ولا خفية - كما تصور البعض - وإنما كانت كغيرها من رحلات الأندلسيين المعتادة إلى المشرق لأداء الفريضة وطلباً للعلم .

---

(١) ترتيب المدارك ، مجلد ٢، ص٤٠٥

(٢) المقرى: نفح الطيب، جـ٢ ص ٣٥٤

(٣) بالنثيا : المرجع السابق ص ٣٢٧

(٤) ابن الفرضى : المصدر السابق ٦٩٥/ ٢٢٩

(٥) ابن الآبار : المصدر السابق ٨/ ٢٥

نزل محمد بن مسرة بالقيروان فى طريقه إلى المشرق - كما سبق أن أشرنا - وكانت القيروان حينذاك قد وقعت فى قبضة الشيعة الإسماعيلية ومن ثم يبدو أن محمد بن مسرة لم يقتصر على الأطلاع على الفكر السنى فيها وإنما ألم أيضاً بطرف من الفكر الإسماعيلى(١). وكان من الطبيعى أن يمر محمد بن مسرة بمصر التى تقع على مسار رحلته وإذا كنا نجهل المدة التى مكثها ابن مسرة بمصر والأشخاص الذين التقى بهم فليس من المستبعد أن يكون قد التقى فيها ببعض تلاميذ ذى النون المصرى الاخميمى ونقل عنهم آرائه التى كانت أحد مصادر ثقافة محمد بن مسرة(٢).

يبدو أن محمد بن مسرة قد ذهب إلى البصرة قبل يتوجه لأداء الفريضة التى لم يؤدها إلا فى سنه ٣١١هـ ورافقه فى أدائها أحمد بن غانم المدينى ولم يكتف محمد بن مسرة بحجة واحدة وإنما حج حجتين(٣) أى أنه مكث عامين بين مكة والمدينة يطلب العلم فيهما فالتقى هناك بأبى سعيد أحمد بن محمد بن زياد المعروف بابن الأعرابى الذى كان شيخاً متصوفاً يظهر أنه يروى الحديث على مذهب أهل السنة لكنه يضمر الكلام فى العلم الباطنى ويعلم دقائق أسرار الصوفية وآرائهم الاشراقية(٤) ويبدو أن تأثير ابن الأعرابى فى

---

(١) سالم يغوث : ابن حزم والفكر الفلسفى بالمغرب والأندلس ص ٢٥٤

(٢) يشير ابن الفرضى صراحة (المصدر السابق ١٢٠٤ / ٣٩/ ٢) إلى تأثر ابن مسرة بفكر ذى النون الاخميمى وأبى يعقوب النهرجورى .

(٣) ابن الآبار: المصدر السابق ٨/ ٢٥

(٤) أبى نعيم الأصفهانى: حلية الأولياء، حـ١٠ ص٣٧٥ وبالنثيا: المرجع السابق ص ٣٢٧

محمد بن مسرة كان عظيماً حتى أن ابن مسرة نهج نهجة فى أن يبطن غير ما يظهر. وفضلاً عن ابن الأعرابى يبدو أن ابن مسرة التقى بأبى يعقوب النهرجورى المتصوف الذى جاور فى الحرم المكى حتى توفى سنه ٣٣٠هـ(١). وفى المدينة المنورة أخذ محمد بن عبد الله بن مسرة"يتتبع آثار النبى صلى الله عليه وسلم ودله بعض أهل المدينة على دار ماريه أم إبراهيم سرية النبى صلى الله عليه وسلم فقصد إليها فإذا هى دويرة لطيفة بين البساتين بشرقى المدينة عرضها وطولها واحد قد شق فى وسطها بحائط وفرش على حائطها خشب غليظ يرتقى إلى ذلك الفرش على خارج لطيف وفى أعلى ذلك بيتان وسقيفة كانت مقعد النبى صلى الله عليه وسلم فى الصيف قال – محمد بن حزم – فرأيت أبا عبد الله بعدما صلى فى البيتين والسقيفة وفى كل ناحية من نواحى تلك الدار ضرب أحد البيتين بشبره فكشفته بعد أنصرافى وهو ساكن فى الجبل عن ذلك فقال: هكذا البيت الذى ترانى فيه بنيته على تلك الحالة فى العرض والطول بلا زيادة ولا نقصان "(٢).

وهكذا كان محمد بن عبد الله بن مسرة يترسم خطى النبى صلى الله عليه وسلم – سميه – حتى إذا عاد إلى الأندلس اتخذ لنفسه بجبل العروس بقرطبة دويرة على هيئة الدويرة التى كان النبى صلى الله عليه وسلم قد اتخذها لمارية القبطية أم ولده إبراهيم ، فهل كان محمد بن عبد الله بن مسرة يرنو إلى التأسى بالنبى صلى الله عليه وسلم فيما هو أبعد من ذلك؟!

---

(١) أبى نعيم الأصفهانى : المصدر السابق، حـ١٠ ص ٣٧٦ و
Asin Palacios, op . cit, P. 47

(٢) المقرى: المصدر السابق حـ٢ ص ٣٥٤

عاد محمد بن عبد الله بن مسرة إلى الأندلس فى سنة ٣١٢هـ على ما يبدو بعد أن تردد بالمشرق نحو اثنى عشر عاماً - كما ذكرنا - بذل فيها جهداً كبيراً لاستكمال تكوين هويته الفكرية وخرج من تحصيله العلمى فى المشرق ذو شخصية فكرية متميزة : كثير العلم بالأخبار واسع الروية للآثار، شاعراً مفلقاً وخطيباً بارعاً حاذقاً لعلوم اللسان العربى يمتلك القدرة على التأثير فى مستمعيه أو على حد تعبير ابن حيان " أوتى من عذوبة الكلام ومتانة الحجج والغوص على رقيق المعانى والافتنان فى ضروب العلوم ما يستلب به القلوب ولا يعييه عن صواب "(١) .

كان قفول محمد بن مسرة إلى الأندلس فى إمارة عبد الرحمن الثالث بن محمد الذى تولى إمارة الأندلس بعد وفاة جده عبد الله سنة ٣٠٠هـ وما لبث أن أعلن الخلافة سنة ٣١٦هـ وتلقب بالناصر لدين الله . وإذا كنا قد رجحنا قفول ابن مسرة إلى الأندلس فى سنة ٣١٢هـ فقد برر آسين بلاثيوس عودة ابن مسرة بانتهاج عبد الرحمن الناصر سياسة التسامح وحب العلم وبهدوء الأندلس بعد توليه(٢) . غير أن الواقع التاريخى يظهر أن صدر دولة عبد الرحمن الثالث لم يكن يختلف كثيراً عن آواخر أيام جده عبد الله ، إذ كان الأندلس لا يزال مضطرماً بنار الفتنة والثورات والحروب التى لم تخمد تماماً إلا بعد وفاة محمد بن مسرة نفسه فى سنه ٣١٩(٣) ومن ثم لم تكن عودة ابن مسرة إلى الأندلس لهدوئه بعد تولى الناصر وأنما كانت عودته ليفيد من

---

(١) المقتبس ، جـ٥ ، نشر شالميتا صـ٢١ .

(2)Asin Palacios ; ap . cit . p . 47 .

(٣) لم يستول الناصر على طليطلة كنهاية للفتنة فى عهده إلا فى سنة ٣٢٠هـ .

انشغال الناصر بالفتنة أو على حد قول ابن حيان "أيام شغله بحروب أهل الخلاف المتصله"(١).

اكتمل فكرابن مسرة حين عودته إلى الأندلس وتهيأ لينشر مذهبه فى أهله وكان مذهب ابن مسرة نوعاً من التصوف الفلسفى يجمع فيه بين آراء الصوفية مثل ذى النون الأخميمى وأبى يعقوب النهر جورى من ناحية وكلام المعتزلة وآراء الفلاسفه من ناحية أخرى فقال ابن مسرة بالاستطاعة وبالوعد والوعيد وبضعف أحاديث الشفاعة وبتصحيح الأعمال ومحاسبة النفوس على حقيقة الصدق(٢) ومن ثم اختلفت آراء الدارسين فى مذهب ابن مسرة فمنهم من رأه مذهباً زهدياً صوفياً ومنهم من رآه مذهباً كلامياً لكنه - أغلب الظن - كان مذهباً فى التصوف الفلسفى . وقد أدرك محمد بن مسرة خطورة تعاليمه وتوقع معارضة الفقهاء المالكية الأندلسيين لمذهبة فانتهج خطة محكمة لنشر مذهبه فى سرية وكتمان انتظاراً لاظهاره فى الوقت الملائم ولعله أفاد فى التخطيط لذلك مما درسه عن الحركات السرية فى المشرق(٣) ويمكننا افتراض أن خطة ابن مسرة كانت على النحو التالى :

١ - أظهر محمد بن مسرة أول عودته من المشرق ورعاً وزهداً يتقبله الأندلسيون دون أن يثير حفيظتهم،أوعلىحد قول ابن حيان " توارى فى شعب الزهاد"(٤)فاستهوىبذلك أفئدة بعض الأندلسيين الذين ترددوا عليه واستمعوا له.

---

(١) المقتبس ، جـ٥ ، صـ٢٠ .

(٢) محمد الوزاد : الملامح العامة لشخصية ابن مسرة وآرائه ، مجلة كلية الأداب والعلوم الإنسانية بفاس ، عدد ٦ (٨٢ - ١٩٨٣) صـ٣٣ - ٦٤ .

(3) Asin Palacios ; op . cit . p . 48

(٤) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ٥.ص٢٠ .

٢ – أمعن محمد بن مسرة فى كتمان حقيقة أهدافه مموهاً على ذلك بأن أظهر علماً عميقاً بالفقه المالكى فكان " يسرد مسائل المالكية عمدة السنة سرد القيران ويشققها بالإجتلاب بأوضح برهان حتى يخرج فيها أجزاء مختصرة حسنة لم يزل الاجماع من مخالفيه إلى اليوم واقعاً على أنها أفضل وأوجز وأبسط من كل مختصرة صيغت فيها فبرسوخه فى بسط العلم وتأنيه فى الاستدراج للخصم كان يستهوى العقول ويصيد الأفئدة "(١) .

٣ – انتبذ محمد بن مسرة بمذهبه وأتباعه مكاناً قصياً عن قرطبة فسكن ضيعته بجبل العروس حيث اتخذ لنفسه فيها دويره بناهاعلى منوال دويرة النبى (ص) التى اتخذها لمارية القبطية وكان ابن مسرة يقول ذلك لأتباعه ليؤثر فى نفوسهم وقد " ظل دعاته وأصحابه ينتابونه بمكانه ويتكررون عليه ويأخذون عنه فيمكنه توحده بهم من الاذاعة فيهم بما فى نفسه ممالايمكنه إذاعته بالمصر "(٢) .

٤ – انتهج محمد بن مسرة أسلوباً مميزاً للدعوة إلى مذهبه فكان " يلقى أول من يأتيه مقتبساً من أهل السلامة بالمساهلة إلى أن يختله عن رأيه بالمفاضلة فإذا أصغى إلى عذوبه منطقه وعلق فى شرك حجاجه فلايبعد أن يلفته عن رأيه ويشككه فى اعتقاده فيقلبه إلى اختياره ويحصله فى اتباعه"(٣)، وبعبارة أخرى كان ابن مسرة يتدرج فى بث تعاليمه فى مريديه لا يكشف لهم عن حقيقتها إلا إذا استوثق منهم .

---

(١) نفس المصدر ، جـ٥ صـ٢٠ .

(٢) نفس المصدر ، جـ٥ صـ٢١ .

(٣) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

٥ - نظم محمد بن مسرة دعوته تنظيماً دقيقاً ففضلاً عن أحاطتـه إياها بسياج السرية والكتمان فقد أعد للدعوة جهازاً منظماً من الثقـات من اتباعـه " واتخذ من راسخيهم فى مذهبه دعاة وأئمه ... دخل فى عرضهم رجال من ذوى الفهم والوجاهة وصموا بأتباعه .... ولم يزل يستظهر عليهم بالمواثيق فى الكتمان الإمن الثقات الوثاق العقدة فاكتتم بذلك شأنه إلى أن نما "(١) .

بهذا التخطيط المحكم نجح محمد بن مسرة فى نشر مذهبه بين كثير من الاتباع والمريدين وكان من المقربين إليه من تلاميذه محمد بن حزم المعروف بابن المدينى - كما سبق أن ذكرنا- كما كان منهم حى بن عبد الملك الذى كان قريب الجوار منه يسكن معه الأيام الكثيرة فى متعبده بالجبل وينصرف ثم يعود ولما وضع ابن مسرة كتاب " التبصرة " (*) - ولم يكن يخرج كتاباً حتى يتعقبه حولاً كاملاً - احتال حى بن عبد الملك حتى أخرج إليه دون أذنـه ورأيه وانتسخه ثم صرف الأصل وأتى بالنسخة إلى ابن مسرة فأراه إياها وقال : تعرف : هذا الكتاب ، فلما تصفحه قال . لانفعك الله به " ولم يخرج كتاب التبصرة بعد ذلك إلى أحد(٢) . وكان من تلاميذ ابن مسرة أيضاً أحمد بن منتيل القرطبى ، توفى سنه ٣٤٤هـ(٣) . لكن اتباع محمد بن مسرة لم يكونوا من قرطبة وحدها وإنما كان منهم كثيرون من مختلف نواحى الأندلس

---

(١) نفس المصدر ، جـ٥ صـ٢٠ .

(*) يجزم محمد كمال جعفر (من التراث الفلسفى لابن مسرة ص١٠) بأن عنوان كتاب " التبصرة " هو فى الحقيقة " الاعتبار " وليس التبصرة ويسوق فى ذلك براهين تستحق الاعتبار .

(٢) بالنثيا : المرجع السابق ، صـ٣٢٨ .

(٣) ابن الفرضى : المصدر السابق ١٢٩ / ٤٠ .

يكاتبونه من مواضعهم مثل أبى رجاء عثمان بن سعيد بن هشام بن عبد الرءوف من أهل البيرة ، كان عظيم الجاه فى موضعه ، وتوفى سنة ٣٢٥هـ(١) .

وكان من المتصلين بمحمد بن مسرة أبو بكر أحمد بن عبد الله بن أحمد الأموى المعروف باللؤلؤى من أهل قرطبة ، كان اماماً فى حفظ الرأى على مذهب مالك وأصبح من المشاورين فى أيام قضاء أحمد بن بقى(٢) يقول المقرى إن محمد بن مسرة أرسل إلى اللؤلؤى يستدعيه(٣) لكن القاضى عياض يذكر عن اللؤلؤى أنه " كتب فى بعض أيام الشتاء إلى محمد بن مسرة - وكان من وجوه تلامذته يستدعيه للمذاكرة(٤) وهكذا نجدنا أمام روايتين تجعل أحداهما ابن مسرة داعيا وتجعله الأخرى مدعواً وتلميذاً لأبى بكر اللؤلؤى وبتمحيص الروايتين نجد أن إضافة ياء إلى حرف الجر إلى فى عبارة عياض لتقرأ " كتب .. إليه محمد بن مسرة " يزيل ما بين الروايتين من خلاف ويجعل من ابن مسرة داعياً وأستاذاً لأبى بكر اللؤلؤى(٥) إلا أن ذلك

---

(١) نفس المصدر ٨٩٩ / ٣٠٥ .

(٢) نفس المصدر ١٢٢ / ٣٩ .

(٣) نفح الطيب ، جـ٥ ص٩٧ .

(٤) ترتيب المدارك ، مجلد ٢ صـ٤١٥ - ٤١٦ .

(٥)ذكر كل من المقرى وعياض أبياتاً على لسان الداعى لكن الأبيات التى أوردها عياض أو فى وأنسب وهى:

هلم إن اليوم يوم دجن ... إلى محل مثل الضمير المكن

ساكنه كطائر فى وكن ... لعلنا نحكم أدتى فن

فى مجلس مرفوف ذى كن ... فأنت عند الظن أمشى منى

وأنت فى ستك دون سنى

يثير قضية أخرى ، فقد كان اللؤلـؤى - كمـا ذكرنا إمامـاً فـى فقـه مـالك وكـان أستاذاً لمحمدبن يبقى القاضى أشهر من ناهض المسـرية فهـل يعنـى ذلـك أنـه محمد بن مسرة كان له تلاميذ لم ينزعوا نزعتـه المسرية ؟! أغلـب الظـن أن ذلك ليس بمستبعد لاسيما وأن محمد بن مسرة كـان ضليعـاً فـى الفقـه المـالكى وكان له فيه مختصر فريد فى بابه قيل إنه قلمـا وجـد مثيلـه فـى تبسـيط الفقـه المالكى،ولعل محمد بن مسرة كان يسـتدعى تلميذه اللؤلـؤى إلـى دويـرة جبـل العروس محاولاً اجتذابه إلى المسرية لكن اللؤلؤى - فيما يبدو - لم ينخرط فيها .

وذاعت النزعة المسرية فى الأندلس ولم تعد خافية علـى أهـل الأندلـس واختلف الأندلسيون فى ابن مسرة وانقسـموا إلـى فرقتيـن فرقـة تبلـغ بـه مبلـغ الإمامة فى العلم والزهد وفرقة تطعن عليـه بـالبدع لمـا ظهـر مـن كلامـه فـى الوعد والوعيد وبخروجة عن العلوم المعلومة بـأرض الأندلـس الجاريـة علـى مذهب التقليد والتسليم "(١) .

ولقد توفى محمد بن مسرة فى سنة ٣١٩هـ دون أن يمسه أحد بسوء فى الوقـت الـذى أوشـك فيـه النـاصر لديـن اللـه أن يعيـد إلـى الأندلـس الهـدوء

وواضح أن الأبيات تشير إلى مكان منعزل تنطبق أوصافه على دويرة جبل العروس التى اتخذها محمد بن مسرة مقراً له وتشير الأبيات إلى أن الداعى كان أسن من المدعو ، وقد توفى أبو بكر اللؤلؤى وفقاً لعياض نفسه فى سنه ٣٥٠ أو ٣٥١ أى بعد وفاة ابن مسرة بنحو احدى وثلاثين عاماً كما أنه لم يصبح من المشاورين إلا قبل وفاة محمد بن مسرة بأقل من خمس سنوات إذا كان قد أصبح منهم بعد تقلد أحمد بن بقى القضاء مباشرة ولم يتأخر عن ذلك بضع سنوات أخرى و يستشف من ذلك كله أن محمد بن مسرة كان أسن من اللؤلؤى ومن ثم يكون هو أستاذ اللؤلؤى .

(١) ابن الفرضى : المصدر السابق ١٢٠٤ / ٣٩ / ٢ .

والاستقرار وأن يقضى على آخر جيوب التمرد على الحكومة المركزية فى الأندلس وأن طد أركان خلافته التى كان قد أعلنها قبل ذلك بثلاث سنوات فقط. وعلى الرغم من أن الخلافة الأندلسية كانت قد فرغت من مشاكلها السياسية تدريجياً وأصبح بإمكانها أن تلتفت لمشاكل أخرى من قبيل النزعة المسرية فقد انتشرت الدعوة المسرية فى حياة مؤسسها وبعد وفاته دون مقاومة تذكر من جانب الدولة أو مشيخة الأندلس(١) ساعد على ذلك أن مشيخة الأندلس المالكية كانت تعانى فى تقلصاً نفوذها السياسى منذ النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى بعد أن فشل شيوخها فى الإيقاع ببقى بن مخلد من ناحية ومن ناحية أخرى خلو الساحة من الشيوخ الكبار ذوى المكانة والنفوذ مثل يحيى بن يحيى الليثى وعيسى بن دينار وأقرانهما فكان تلقص النفوذ السياسى للمشيخة المالكية عاملاً مواتياً لذيوع الدعوة المسرية حتى أن محمد بن مسرة لم يجد من يتصدى له قبل موته إلا قليلاً منهم مثل أحمد بن خالد الجباب الذى كتب صحيفة فى الرد على ابن مسرة(٢) وفضلاً عن هذا فقد كان للكتمان الذى أحيطت به تعاليم المسرية أثره فى خفوت معارضتها لوقت طويل ولذلك مضت أعوام طويلة قبل أن تصل أصوات أهل السنة المعارضين إلى أهل الدولة ولم تتصد الدولة للنزعة المسرية إلا بعد مضى أكثر من عشرين عاماً على وفاة مؤسسها(٣) .

لم تفت وفاة محمد بن مسرة فى عضد النزعة المسرية على الرغم من خسارتها الكبيرة بفقدانه ولم " يلبث دعاته مع انتشارهم فى البلاد أن تلبثوا

(١) محمد البيلى : الزهاد والمتصوفة فى بلاد المغرب والأندلس ص١٨٥ .
(٢) نفس المرجع ، ص١٨٠ .
(٣) محمد بن عبد الله عنان : دولة الإسلام فى الأندلس ، الكتاب الثانى ص٤٣٢

بعده بما أوعزهم من مكنون علمــه وأخذ عليهم مـن بثـه .... وصغت إليهم أفئدة جماعة من الناس من خاصة وعامة أذاعوه سراً وأفشوا مذهبـه وغبطـوا من فاء إليه واعتقده فانتشر فـى قرطبـه وطـراً إلـى بـلاد سـواها "(١) وهكذا أصبح للمسرية - رغم وفاة مؤسسها - اتبـاع فـى مختلف أرجـاء الأندلس ، يدل على ذلك أن الخليفة الناصر لدين الله حين قرر التصدى للمسرية أرسل كتبه إلى مختلف آفاق دولته منفراً من المسرية ومندداً بدعاتها(٢) .

وإذا كان المدى المكانى للمسرية قد اتسع ليشمل الأندلس كله فيما يبدو فإن المدى الزمانى لها قد طال حتى القرن الخـامس الهجرى ولـم تختـف مـن الأندلس على الرغم من كثرة مانزل بها من نكبات .

وكانت أول النكبات التى نزلت بالمسـرية - بعـد وفـاة مؤسسـها - تلك الحملـة الضاريـة التـى شـنها الخليفـة النـاصر لديـن اللـه ضـد المسـرية فـى سنة ٣٤٠هـ بعد وفاة ابن مسرة بأكثر مـن عقدين كـاملين - كمـا ذكرنـا - لـم تواجه المسرية فيهما إلا بمعارضة خافتة فى الأندلس حتـى كـان المشـارقة - فيمـا يبـدو - أنشـط فـى الـرد علـى ابـن مسـرة مـن الأندلس(٣) لكـن خفـوت المعارضة الأندلسية للمسرة لم يستمر طويـلاً خاصـة بعـد أن قـرب الخليفـة الناصر لدين الله إليه الفقهاء المشاورين - شيوخ العصر - لينال بقربهـم منـه

(١) ابن حيان : المقتبس ، جـ٥ ص٢١ .

(٢) نفس المصدر ، جـ٥ ص٢٥ .

(٣) يدل على ذلك أن ابن الفرضى ذكر فى ترجمته لابن مسرة أنه قام بالرد عليه " جماعة من اهل المشرق منهم : أحمد بن محمد بن زياد الأعرابى وأحمد بن محمد بن سالم التسترى ولأحمد بن خالد فى الرد عليه صحيفة" .

وتأييدهم له رضى العامة فاستعادت مشيخة الأندلس بعضاً من نفوذها المفقـود ولم ترض أن تسلبها المسرية المتنامية نفوذها المستعاد فـأخذ الفقهـاء المالكيـة ينبهون الخليفة الناصر لدين الله إلى خطورة النزعة المسرية ويصورونهـا لـه على أنها فتنة سياسية ومذهبية يجب القضاء عليها(١) .

استجاب الخليفة الناصر لدين الله لتحريـص الفقهـاء إياه ضد المسـرية لاسيما وأنه لم يكن علـى استعداد لقبـول أن يشـاركه أئمـة المسـرية فـى ولاء رعيته له أو أن يشاركوه فى سـلطانه بعدمـا بذلـه مـن جهـد شـاق فـى توطيـد أركانه وتثبيت دعائمه فقرر الخليفة الناصر التصدى للمسرية وملاحقة أئمتهـا ودعاتها وعهد بتلك المهمـة إلـى الوزيـر صـاحب المدينـة عبـد اللـه بـن بـدر "وأمره بالتنقير عنهم والقصد لآثارهم وطلب الدلائل عليهم والايقاع بمن صـح لديه أنه منهم أو متول لهم فتجرد ابن يدر لهم فشدد فى تخويفهـم وأغلـظ لمن عز عليهم منهم فجرت لهـم مـن ذلـك خطـوب "(٢) .وفـى يـوم الجمعـة لتسـع خلـون مـن ذى الحجـة – يـوم عرفـة – سـنة٣٤٠ هـ قـرىء علـى المنـابر بالمسجدين الجامعين بقرطبة والزهراء كتـاب النـاصر لديـن اللـه إلـى الوزيـر صـاحب المدينـة ينكـر فيـه النزعـة المسـرية باعتبارهـا بدعـة وخـروج علــى الدين(٣) .

لم تكن خطورة الدعوة المسرية فى آرائها فقط وأنها أيضاً لكونها دعـوة منظمة تنظيماً يجعل منها ارهاصة بالطرق الصوفية الأخوانية التى يلتف فيهـا

(١) حسين مؤنس ، شيوخ العصر ، ص٩٧ .
(٢) ابن حيان : المصدر السابق جـ٥ ص٢٤ .
(٣) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ٥ ص٢٥ .

المريدون حول شيخ أو إمام يدينون له وحده بالولاء ويلتزمون بأقواله وتعاليمه دون غيرها ومن ثم صور الفقهاء الذين أفزعهم تهديد المسرية لنفوذهم - تلك الدعوة على أنها بدعة دينية ومشكلة سياسية تهدد وحدة الأندلس(١) . ولم يقتصر تعقب الخليفة الناصر لدعاة المسرية وأتباعها على قرطبة وأنما أمر بملاحقتهم فى كافة نواحى الأندلس وأنفذ لذلك كتباً إلى سائر النواحى من إنشاء الوزير الكاتب عبد الرحمن بن عبد الله الزجالى الذى نسب إلى المسرية القول بخلق القرآن والتأويل وتكذيب التوبة وبطلان الشفاعة وأمر عمال النواحى بالضرب على أيديهم(٢) فتمادى الطلب للمسرية وتخويفهم وتحذير الناس من الاستماع لهم ولاحقهم رجال الخليفة الناصر فى كل مكان بقية أيام الناصر لدين الله فكانت نكبة شديدة نزلت بالمسرية لكنها لم تقض عليهم وما لبثوا أن عاودوا الظهور على الساحة الأندلسية من جديد مستفيدين فى ذلك من التسامح الذى أضفاه الحكم المستنصر على الحياة الفكرية فى الأندلس أول توليه الخلافة بعد وفاة والده الناصر لدين الله سنة ٣٥٠هـ / ٩٦١م (٣) .

ظل تلاميذ ابن مسرة يتمسكون بتعاليم أستاذهم ولا يكتمون مذهبهم نعرف منهم طريف الروطى الذى كان مولى للوزير أحمد بن محمد بن حدير(٤) . ومحمد بن مفرج بن عبد الله المعافرى الذى كان يعرف بالفنى ،

---

(١) محمد البيلى : المرجع السابق ، ص١٨٨ .
(٢) ابن حيان : المصدر السابق ، جـ٥ ص ص ٢٩ - ٣٠ .
(٣) بالنثيا : المرجع السابق ، ص٣٣٠ .
(٤) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

قرطبى سمع من قاسم بن أصبغ تلميذ عبد الله بن مسرة ، ورحل إلى المشرق فسمع من ابن الأعرابى الذى أخذ عنه محمد بن عبد الله بن مسرة ، وسمع بمصر من أبى جعفر النحاس وأدخل كتبه إلى الأندلس لأول مرة وهى فى إعراب القرآن والناسخ والمنسوخ وفى المعانى لذلك لم يكن غريباً أن يكون من تتلمذ على هؤلاء من أهل النظر وأن يعتقد مذهب ابن مسرة ويدعو إليه، توفى سنة ٣٧١هـ (١) . وأبو القاسم رشيد بن فتح الدجاج من أهل قرطبة ، سمع بالأندلس من أحمد بن خالد ثم رحل إلى المشرق فسمع من كثيرين ، ومن الملاحظ أنه تتلمذ على الجباب أحد مناهضى ابن مسرة ثم اتهم باتباع مذهب ابن مسرة لكن الغريب أن يصلى عليه محمد بن يبقى بن زرب القاضى حين توفى سنة ٣٧٦هـ (٢) فهل معنى ذلك أنه رجع عن مذهب ابن مسرة ؟ أو أن الأندلس كان لا يزال به من حرية الفكر ما يسمح بأن يصلى ابن زرب على أحد المسرية فى مقابل أن يتتلمذ غير السرية – مثل أبى بكر اللؤلؤى – على محمد بن مسرة !

ونعرف من تلاميذ ابن مسرة – الذين ظلوا على نزعته بعد النكبة التى تعرضت لها المسرية آخر أيام الناصر لدين الله – أبا عمر أحمد بن وليد بن عوسجة الأنصارى الذى يعرف بابن أخت عبدون ، من أهل بجانة ، ان ينسب إلى مذهب ابن مسرة وكان أحد النفر الذين استتابهم القاضى محمد بن يبقى بن زرب ، وكانت وفاته سنة ٣٧٦(٣). وكان منهم أبو الوليد أبان بن

(١) ابن الفرضى :المصدر السابق ١٣٣١ / ٨١ / ٢ .
(٢) نفس المصدر ٤٣٩ / ١٤٧ .
(٣) ابن الفرضى / المصدر السابق ١٨١ / ٥٣

عثمان اللخمى ، من أهل شذونة ، سمع بالأندلس من قاسم بن أصبغ وغيره ، كان نحوياً لغوياً لطيف النظر جيد الاستنباط بصيراً بالحجة متصرفاً فى دقيق العلوم ، ينسب إلى اعتقاد مذهب ابن مسرة ، وتوفى سنة ٣٧٧(١)هـ . وأبوعبد الله محمد بن أحمد بن حمدون الخولانى ، يعرف بابن الإمام ، من أهل قرطبة ، كان حافظاً للأخبار والأنساب عالماً باللغة بليغاً لسناً ، مشهوراً باعتقاد مذهب ابن مسرة ، لا يتستر بذلك مولعاً بالتشريق فى صلاته ، توفى سنة ٣٨٠(٢)هـ . وأبو الأصبغ عبد العزيز ابن حكم الأموى حفيد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، قرطبى ، كان عالماً بالنحو والغريب والشعر شاعراً مائلاً إلى الكلام والنظر وشهر بانتحال مذهب بن مسرة مما يدل على تغلغل الدعوة المسرية حتى داخل البيت الأموى الأندلسى لكن اعتقاده للمسرية غض من شأنه فى ضوء معارضة الحكم الأموى للنزعة المسرية توفى سنة ٣٨٧هـ(٣) . وأبو عبد الله محمد بن عمر بن خير القيسى ، قرطبى أصله من جيان ، سمع بالأندلس من أحمد بن خالد وقاسم بن أصبغ وغيرهما ورحل إلى المشرق فسمع من ابن الأعرابى ، كان ينسب إلى مذهب ابن مسرة واعترف بذلك لأبى المغيرة بن بترى الذى قال " أتانى أبو عبد الله بن خير وأشهدنى أنه معتقد لشىء من مذهب ابن مسرة والله يجازيه بنيته . وقد كان ظاهره ظاهر إيمان وسلامة " ويبدو أن اعتقاده لمذهب ابن مسرة قد عرف عنه فعزف أصحاب الحديث عن الكتابة عنه ، توفى سنة ٣٨٢هـ(٤) .

---

(١) نفس المصدر ٥٤ / ٢٢ .

(٢) نفس المصدر ١٣٦١ / ٩٣ / ٢ .

(٣) ابن الفرضى : المصدر السابق ٨٣٦ / ٢٧٩ .

(٤) نفس المصدر ١٣٦٦ / ٩٦ / ٢ .

لم تطل فترة التسامح التى نعمت بها المسرية فما لبثت أن تعرضت لنكبة أخرى تمثلت فى حملة ضاربة شنها خصوم المسرية ومناهضوها بعد أن جنحت السلطة السياسية إلى التزمت والتشدد منذ أواخر أيام الحكم المستنصر وفى أيام المنصور محمد بن أبى عامر من ناحية ومن ناحية أخرى نشاط الفقهاء من خصوم المسرية فى مناهضتهم إياها مثل أبى بكر الزبيدى النحوى وأبى عمر بن لب الطلمنكى ومحمد بن يبقى بن زرب خاصة بعد أن اعتلى الأخير منصة القضاء منذ سنة ٣٦٧هـ(*) (١) وقد كتب محمد بن يبقى صحيفة فى الرد على محمد بن مسرة واشتد فى تعقب اتباعه واضطر بعضهم إلى إعلان التوبة والبراءة من المسرية مثل ابن خت عبدون الذى أشرنا إليه أنفاوأحرق كتبهم(٢) ونتيجة لتزايد الحملة التى قادها القاضى محمد ابن يبقى ضد المسرية اضطر بعد اتباعها إلى كتمان مذهبهم آخذين بالتقية مثل ابن خير القيسى الذى " كان ظاهره ظاهر إيمان وسلامة " كما ذكرنا أنفاً

(*) قد يبدو أن هناك تناقضاً بين ذكر اسماء ثلاثة من الأندلسيين عارضوا المسرية وبين ما ذكر فى (ص ١٦) عن أن المشارقة كانوا من الأندلسيين فى معارضة ابن مسيرة – كما " لاحظ الدكتور مكى – لكن يزول التناقض إذا كان المقصود من العبارة فى ص ١٦ ، هو معارضة ابن مسرة فى حياته أما من ذكروا فى ص ١٩ فقد عارضوا المسرية بعد وفاته .

(١) بالنثيا : المرجع السابق ص ص ٣٣٠ – ٣٣١ .

(٢) النباهى : المرقبة العليا ، صـ٧٨

– جاء فى النسخة المطبوعة فى بيروت أن القاضى ابن زرب استتاب فى سنة ٣٥٠هـ جملة جيء بهم إليه من اتباع ابن مسرة وفى هذا التاريخ خطأ واضح لأن ابن زرب لم يكن قد تولى القضاء بعد .

بل أقدم بعض المسرية على الرحيل عن الأندلس فيما يمكن أن نسميه نفياً اختيارياً خشية الاضطهاد مثل عبد الرحمن المهندس(١) ورشيد بن فتح الدجاج الذى رحل إلى المشرق بعضاً من الوقت ليخفى حقيقة مذهبه ولعله نجح فى ذلك حتى أن القاضى ابن زرب صلى عليه حين وفاته .

وكما فشلت النكبة التى نزلت بالمسرية فى آخر أيام الناصر لدين الله فى اقتلاعها من الأندلس فقد فشلت أيضاً النكبة التى أنزلها بالمسرية القاضى ابن زرب فى اقتلاع المسرية من الأندلس فظلت المسرية قائمة ولها اتباعها وكان على رأسهم فى أيام ابن حزم رجل يدعى إسماعيل بن عبد الله الرعينى كان كاتماً لمعتقده آخذاً بالتقية متخفياً حتى أن ابن حزم لم يلتق به على الرغم من أنه سكن وإياه بعضاً من الوقت فى مدينة واحدة هى بجانة(٢) وكان أهل بيت الرعينى كلهم من المسرية رجالاً ونساء . فقد كانت ابنته التى يلقبها الناس بالمتكلمة من المسرية(٣) وكان زوجها - هو طبيب يدعى أحمد - من المسرية أيضاً ، وكذلك كان ابنها يحيى بن أحمد . لكن انشقاقاً فى البيت الرعينى مالبث أن فرط عقده وخالف الطبيب أحمد وابنه يحيى رأى إسماعيل الرعينى بينما ثبتت المتكلمة على رأى أبيها مخالفة بذلك زوجها وابنها(٤) .

كان إسماعيل بن عبد الله الرعينى فيما يبدو زعيم المسرية فى وقته لكنه أحدث فيها بعض الأقوال التى لم تلق قبولاً عند بعض المسرية وأدى

(١) بالنثيا : المرجع السابق صـ٣٣١ .

(٢) ابن حزم : الفصل فى الملل والنحل جـ٤ ص٨٠ .

(٣) نفس المصدر ، جـ٤ ص ١٩٩ .

(٤) ابن حزم : المصدر السابق حـ ٤ ص ١٩٩

ذلك إلى انقسام المسرية فى وقته على نفسها انقساماً ظهر أثره بوضوح فى صفوف المسرية بمدينة ألمرية التى كانت حينذاك أهم معاقل المسرية فى الأندلس فخرج على إسماعيل الرعينى بعض أهله مثل صهره وحفيده – كما أشرنا – وتبرأ منه بعض كبار المسرية مثل الحكم بن منذر بن سعيد البلوطى وإبراهيم بن سهل الأريوانى وجماعة من ألمرية بينما ظل آخرون على رأى الرعينى وانقادوا له . وأحدث هذا الانقسام شرخاً عميقاً فى المسرية صعب أن يلتئم فيما بعد وكان له أشدد الضرر على مستقبل المسرية فى الأندلس فانصرف الناس عنها وقل اتباعها حتى أن ابن حزم رأى قول الرعينى والمسرية فى أيامه غريباً ولاحظ " قلة القائلين به بين الناس "(١) .

ضعفت النزعة المسرية وقل أتباعها لكنها لم تندثر تماماً بل ظلت آراء ابن مسرة ملموسة الأثر وتردد صداها فيما تكلم به متصوفة المرية التى أصبحت مركزاً رئيسياً للصوفية فى الأندلس(٢) ولم تتلاش التأثيرات الصوفية لمذهب ابن مسرة بل ظلت تؤثر فى الفكر الأندلسى خلال القرون التى تلت وفاة بان مسرة(٣) ولعله مما يدل على بقاء المسرية وعدم اندثارها أن يكتب كاتباً طليطلياً سكن قرطبة ويدعى عبد الله بن نصر بن أبيض فى الرد على محمد بن مسرة عند نهاية القرن الرابع الهجرى(٤) .

(١) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٢) بالنثيا : المرجع السابق ص٣٣٢ .

(3)Asin Palacios . op cit . P 143 .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ، جـ١ ص٢٤٩ .

- توفى ابن أبيض فى سنة ٣٩٩هـ .

لقد كانت الدعوة المسرية خطوة واسعة على طريق التصوف الإسلامى فى الأندلس ولعلها تحتل موقع الأساس بالنسبة للتصوف الفلسفى هناك والذى أرسى دعائمه فيما بعد أبو العباس بن العريف الصنهاجى المتوفى سنة ٥٣٦هـ متأثراً فى ذلك بتعاليم ابن مسرة . ولقد وصلت آراء ابن مسرة أيضاً إلى الصوفى الأندلسى المشهور محيى الدين بن عربى وعن طريقه - فى رأى بالنثيا - انتقلت تلك الآراء إلى المشرق(١) وإن كان من الملاحظ أن آراء ابن مسرة قد عرفت فى المشرق قبل ذلك بزمن طويل وقام بالرد عليه - كما ذكرنا آنفاً - بعض المشارقة مثل ابن الأعرابى وابن سالم التسترى . وعلى أى حال فقد ظل لآراء ابن مسرة تأثيرها فى فكر اللاحقين فتأثر بها بعض فلاسفة اليهود مثل ابن جبيرول(٢) ويهوداً هاليفى الطليطلى وموسى بن عزرا الغرناطى ويوسف بن صديق القرطبى وغيرهم(٣) كما تأثر بها بعض النصارى مثل دومنجو جونزالز أسقف شقوبية وريموند لوليو وروجر بيكون(٤) .

أما عن فكر المسرية فقد كان نوعاً من التصوف الفلسفى - كما ذكرنا - يجمع بين التصوف والفلسفة ويمزج بينهما على نحو لم يحدث قبلاً فى الأندلس ومن ثم فإن التعرف على فكر المسرية يستوجب التعرف على كيفية جمع المسرية بين هذين الإتجاهين على الساحة الأندلسية .

---

(١) تاريخ الفكر الأندلسى ، ص٣٣٢ .

(٢) نفس المرجع ، ص٤٩٣ .

(٣) ألفرد جيوم : الفلسفة والإلهيات (من تراث الإسلام) ص٢٨٧ .

(٤) بالنثيا : المرجع السابق ص٤٩٣ .

كان التصوف قد ظهر فى الأندلس نحو منتصف القرن الثالث الهجرى تطوراً عن الزهد بعد أن تصاعدت العوامل المسببة له على الساحة الأندلسية: سياسية كانت أو اجتماعية أو فكرية . ولقد كان التصوف فى أوله بالأندلس فردياً يمثل مرحلة انتقالية بين الزهد والتصوف الجماعى الأخوانى ، لكن هذا التصوف الفردى شهد منذ بداية القرن الرابع الهجرى طفرة حقيقية وقفزة كبيرة نحو التصوف الجماعى الأخوانى وكانت تلك القفزة ممثلة فى النزعة المسرية(١) .

كان الجانب الصوفى فى فكر ابن مسرة مأخوذاً عن الزهاد والمتصوفة الأندلسيين من ناحية وعن متصوفة المشرق الذين التقى بهم ابن مسرة ابان رحلته إلى المشرق من ناحية أخرى ، ففى المشرق أخذ ابن مسرة عن ابن الأعرابى وعن النهر جورى ، وعن طريق الأخير وصلت تعاليم ذى النون الاخميمى إلى محمد بن مسرة(٢) وكان فكر ذى النون الأخميمى مزيجاً من العلم والدين والتصوف تتداخل فيه العناصر السنية الإسلامية بالعناصر الفلسفية خاصة الأفلاطونية المحدثة ، لذلك كان ذو النون متصوفاً متصلاً بالفلسفة الغنوصية وممارساً للصنعة (السيمياء) التى كانت تهتم بتحويل الطبائع ، وتمويل الطبائع هذا تطلب معرفة الأرواح العلوية ولذلك اقترنت السيمياء بالتصوف لدى كثير من المتصوفة مثل جابر بن حيان وذى النون الاخميمى .الذى كان من أوائل من بذروا الغنوص المستمد من الأفلاطونية المحدثة فى التصوف(٣) وقد تأثر محمد بن مسرة بفكر ذى النون الأخميمى

(١) محمد البيلى : المرجع السابق ص ص ١٧٤ - ١٧٩ .

(2) Cruz Hernandez ; La Filosofia arabe , P 152 .

(3) Anawati et 2. Gardet ; Mystique musulmanane , P. 27. G.

الذى تلقاه عن النهرجورى من ناحية وعن تلاميذ ذى النون المصريين من ناحية أخرى فكان – على حد قول ابن الفرضى – " يدعى التكلم على تصحيح الأعمال ومحاسبة النفوس على حقيقة الصدق فى نحو من كلام ذى النون الأخميمى وأبى يعقوب النهر جورى "(١) ومن ثم كان فريق من أهل الأندلس يعجبه هذا الجانب الصوفى فى فكر ابن مسرة فيعدونه إماماً فى العلم والزهد(٢) .

أما الجانب الفلسفى فى فكر محمد بن مسرة فقد كان مزجاً بين الفلسفة والدين(٣) والواقع أن الفكر الفلسفى عموماً لم يظهر على الساحة الأندلسية صريحاً مكشوفاً مثلما ظهر فى المشرق وإنما اتخذ فى الأندلس طريقاً ملتوياً غامضاً خوفاً من تشدد السلطة السياسية من ناحية وتزمت الفقهاء المالكية من ناحية أخرى بغية الحرص على السنة باعتبارها حصناً منيعاً فى وجه البدع والخلافات المذهبية التى يمكنها تهديد وحدة الأندلس وهو أحوج ما يكون للوحدة والبعد عن الشقاق والخلافات نظراً لظروفه التاريخية والسياسية والاجتماعية فى أقصى الطرف الغربى للعالم الإسلامى(٤) .

لاخلاف بين الدارسين على أن الفكر الفلسفى لمحمد بن مسرة كان يتمحور حول آراء أنباذقليس المنحولة(٥) بينما يرى بعض الباحثين أن فكر

---

(١) تاريخ علماء الأندلس ١٢٠٤ / ٣٩ / ٢ .

(٢) نفس المصدر ، نفس الصفحة .

(٣) ألفرد جيوم : المرجع السابق ص٢٨٤ .

(4) Asin Palacios ; op . cit . pp . 17 - 27

(٥) بالنثيا : المرجع السابق ص٣٢٩ .

ابن مسرة كان ذو طابع شيعى مشوب بالاعتزال والغنوص(١) .فضلا عن الفكر السنى .

ومن ثم يمكن القول إن الفكر الفلسفى لمحمد بن مسرة كان مستمداً من مصادر أربعة هى : آراء أنباذقليس المخولة والاعتزال والتشيع والغنوص .

أما عن الأنباذ قلية المنحولة فهى منسوبة إلى الفيلسوف اليونانى أنباذقليس مع أنه منها برىء ، إذ هى خليط من آراء لآخرين(٢) . وأنباذقليس الذى تنسب الأنباذ قلية المنحولة وفقاً للتصور الإسلامى أقدم الحكماء اليونان الخمسة الكبار(*) ، يرجعونه إلى زمن داود عليه السلام ، وقيل إنه أخذ الحكمة عن لقمان الحكم بالشام ثم انصرف إلى بلاد اليونان فتكلم فى خلق العالم وأخذت طائفة من الباطنية بأقواله وزعمت أن له رموزاً قلماً يوقف عليها(٣) لكن القفطى رأى أن تلك الرموز ما هى إلا ايهامات يدعونها وجزم أنه لم ير شيئاً منها فى كتاب الأنباذقليس أطلع عليه فى بيت المقدس مع أنه وجد على هذا الكتاب تعليقات وردود لأرسطو طاليس(٤) . وقيل إن أنباذقليس كان أول من ذهب إلى الجمع بين معانى صفات الله تعالى وأنها تؤدى جميعاص إلى شىء واحد وأنه إن وصف بالعلم والجود والقدرة فليس هو ذو معان متميزة تختص بهذه الاسماء المختلفة بل هو الواحد بالحقيقة لا يتكثر

(١) سالم يقوت : ابن حزم والفكر الفلسفى بالمغرب والأندلس ص٢٥٤ .

(٢) بالنثيا : المرجع السابق ص٣٢٩ .

(*) هؤلاء الخمسة هم أنباذقليس ثم فيثاغورس ثم سقراط ثم أفلاطون ثم أرسطو .

(٣) صاعد : طبقات الأمم ، ص٢٢ وابن أصيبعة : عيون الأنباء ص٦١ .

(٤) تاريخ الحكماء ص١٥ .

بوجه ما أصلاً خلاف سائر الموجودات المعرضة للتكثر وذات البارى متعالية عن هذا(١) .

وإذا كان محمد بن مسرة قد تأثر بتلك الآراء المنحولة لأنباذقليس فكيف وصلته تلك الآراء ؟! يرى بروكلمان أنه من المتعذر معرفة كيفية وصولها إليه(٢) لكننا نستطيع القول إنه تلقى بعضاً منها فى صغره من خلال كتب أبيه التى تركها بيده حين رحل نهائياً عن الأندلس ، وقد سبق أن ذكرنا أن ترديده لبعض ما فى تلك الكتب فى صغره قد اعتبر نوعاً من الأراجيف اتهم بسببها بالزندقة ، ولعل هذا يتفق من بعض الوجوه مع ما ذكره القفطى من أن ابن مسرة كان كلفا بفلسفة أنباذقليس ملازما لدراستها حتى أنه اتهم بالزندقة لإكثاره من النظر فيها ولهجه بها(٣) . وقد استكمل محمد بن مسرة معرفته بالأنباذ قلية المنحولة أثناء رحلته بالمشرق ومن المحتمل أنه أدخل إلى الأندلس حين عودته من المشرق بعض مؤلفات الأنباذقلية المنحولة التى يعتقد "مونك " Munk أنها أدخلت إلى الأندلس منذ مطلع القرن العاشر الميلادى / الرابع الهجرى(٤) .

ويرى بعض الدارسين أن الأنباذقلية المنحولة هى نفسها الهرمسية المنسوبة إلى هرمس ، فاعتبار الصفات هى عين الذات الذى يعد من آراء الأنباذقلية المنحولة هو فى الأصل من الفلسفة الهرمسية التى تسربت إلى

(١) صاعد : المصدر السابق ، ص٧٣ .

(٢) تاريخ الشعوب الإسلامية ، ص٣٠٠ .

(٣) القفطى : المصدر السابق ، ص١٦ .

(4)Munk ; Melanges de Philosophie Juive et arabe . pp . 241 - 242 .

التصوف الإسلامى على يد ذى النون الأخميمى وقد ذهبت الهرمسية إلى ان معرفة الذات الإلهية لا تتم إلا بتخطى مستوى العقل عن طريق التطهر الذاتى وأخذت بتصور كوزمولوجى للكون يقول بوحدة العالم ، فليس العالم مجرد مسرح للأعمال الإنسانية وإنما هو مؤلف من رموز يعد إدراكها مرحلة على السبيل الصوفى يقطعها العارف فى سفره نحو الله(١) . وقد وصلت الهرمسية إلى محمد بن مسرة عن طريق دعاة التشيع والباطنية الفيضية سواء فى داخل الأندلس أو فى خارجه وأيضاً عن طريق مؤلفات أبى بكر الرازى التى دخلت الأندلس بواسطة محمد بن فصلت وهو أحد التجار المشارقة الذين وفدوا على الأندلس(٢) ، وكان للأندلسيين إطلاع كبير عليها ينعكس على انتقاد القاضى صاعد للمنحى العام لفكر الرازى وعلى الانتقادات التى وجهها إليه ابن حزم حتى أنه خصص أحد مؤلفاته للرد على كتاب الرازى " فى العلم الإلهى ".

أما عن التشيع كأحد مصادر فكر ابن مسرة الفلسفى فقد كان معروفاً فى الأندلس ، ليس فقط فى صورته السياسية وإنما أيضاً فى صورته العقيدية والفلسفية ، فعلى الرغم من حرص السلطة الأموية على وقاية الأندلس من الخطر الشيعى إلا أن ذلك لم يحل دون نشوب بعض الثورات الشيعية كان منها معاصراً لابن مسرة ثورة أحمد بن معاوية القط التى اندلعت سنة ٢٨٨هـ وقت أن بلغ ابن مسرة من العمر تسعة عشر عاماً(٣) بينما دخلت كتب الشيعة

---

(١) سالم يفوت : المرجع السابق ص٢٨٤ .

(2)Cruz Hernandez ; op . cit . p. 151 .

(٣) محمود على مكى : التشيع فى الأندلس ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ، عدد ١ - ٢ (١٩٥٤) ، صص ٩٦ - ١٠٣ .

إلى الأندلس قبل ذلك منذ آواخر القرن الثانى الهجرى على يد ابن عيسى القرطبى المعروف بالأعشى(١) .

من المرجح أن محمد بن مسرة قد تأثر بالفكر الشيعى فى داخل الأندلس وخارجه وقد مر بالقيروان وقت خضوعها للحكم الشيعى ولعله قد التقى حينذاك بإسحاق بن سليمان الإسرائيلى الذى كان يعمل فى خدمة العبيديين ويعده البعض أول فيلسوف أفلاطونى محدث ظهر فى القيروان(٢) وتقوم فلسفته على محاولة التوفيق بين اليهودية والفلسفة اليونانية خاصة الأفلاطونية المحدثة(٣) وتمتزج نظريته فى الخلق بنظرية الفيض إذ يرى أن الله خلق العقل الذى فاضت منه كل المخلوقات الأخرى ، وفى رأى البعض أن مصادر فلسفة اسحاق بن سليمان الإسرائيلى توجد فى الفلسفة الإسماعيلية الشيعية(٤) . لذلك فإن محاولة رد بعض أصول الباطنية فى فكر ابن مسرة إلى إسحاق بن سليمان الإسرائيلى محاولة لاغبار عليها(٥) مع ملاحظة أنه لم يكن المصدر الوحيد للتشيع فى فكر ابن مسرة . ومثلما كان اسحاق بن سليمان الإسرائيلى أفلاطونياً محدثاً وإسماعيلياً فيضياً فقد كان أيضاً غنوصياً يلتقى فكره مع فكر أبى بكر الرازى فى الأفلاطونية المحدثة والغنوصية ويلتقى فى ذلك أيضاً مع الهرمسية والأنباذ قلية المنحولة ولقد انعكس ذلك كله على ما تلقاه ابن مسرة من فكره سواء كان قد التقى به نفسه أو التقى ببعض من أخذوا عليه .

---

(١) ابن الفرضى : المصدر السابق ١١٠٢ / ٥ / ٢ .

(٢) على سامى النشار : الفكر اليهودى وتأثره بالفلسفة الإسلامية ص١٢٢ .

(٣) نفس المرجع ، ص١٢٣ .

(٤) محمد عابد الجابرى : نحن والتراث ، ص٢٤٤ .

(٥) سالم يفوت : المرجع السابق ، ص ٢٧٣ .

أما عن الاعتزال فى فكر محمد بن مسرة فقد وصل إلى علمه منذ صباه بالأندلس ، إذ كان الاعتزال معروفاً فى الأندلس منذ أدخل أبو بكر بن سلام بن فرج كتب الجاحظ إلى الأندلس(١) . وقد أخذ بالاعتزال كثير من الأندلسيين .كان منهم عبد الله بن مسرة والد محمد بن مسرة ، وقد كانت كتب عبد الله التى تركها بيد ولده منهلاً نهل منه محمد بن مسرة الاعتزال وغيره ، ولذلك كان محمد بن مسرة يأخذ ببعض أقوال المعتزلة " وكان يقول بالاستطاعة وإنفاذ الوعيد "(٢) ، ويذهب مثلهم إلى أن الصفات هى عين الذات وهى مقولة يلتقى فيها الاعتزال مع الهرمسية والأنباذ قلية المنحولة وكان يقول بها أيضاً أبو الهذيل العلاف المعتزلى(٣) .

جملة القول إن محمد بن عبد الله بن مسرة قد استقى فكرة من مصادر متعددة قد تتعارض فى بعض مواقفها الفكرية لكنها تلتقى فى بعض نقاط الاتفاق الذى تظهر بوضوح فى جمع ابن مسرة فى مذهبه الفكرى ونزعته المسرية ومن ثم لا ينبغى تصنيف فكر ابن مسرة على أنه ينتمى إلى أى منها وإنما يجب النظر إليه كصاحب نزعة خاصة متميزة هى النزعة المسرية التى قد تتفق فى بعض آرائها مع الاعتزال او مع الغنوص أو مع الأنباذ قلية المنحولة أو غير ذلك ولكنها أبداً لا تصنف فى أى من تلك المذاهب الفكرية وإنما هى مذهب خاصة أو نزعة خاصة فى التصوف لا يمكن تصنفها إلا بأنها النزعة المسرية .

---

(١) بالنثيا : المرجع السابق ص٣٢٤ ،

Cruz Hernandez ; op . cit . p. 149

(٢) ابن الفرضى : المصدر السابق ١٢٠٤ / ٣٩ / ٢ .

(٣) القفطى : المصدر السابق ص١٦

وابن أبى أصيبعة : المصدر السابق ص٦١ .

مراجع البحث

١ - ابن الآبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعى .

التكملة لكتاب الصلة : تحقيق إبراهيم الأبيارىالقاهرة/ بيروت /١٩٨٩

٢ - ابن أبى أصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد .

عيون الأنباء فى طبقات الأطباء .تحقيق نزاررضا بيروت ١ .

٣ - أبو نعيم الأصفهانى : الحافظ أحمد بن عبد الله

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء القاهرة / ١٩٨٧

٤ - ألفرد جيوم :

الفلسفة والإلهيات - من تراث الإسلام القاهرة / ١٩٢٦

٥ - بالنثيا : أنخل جنثالث

تاريخ الفكر الأندلسى : ترجمة حسين مؤنس القاهرة / ١٩٥٥

٦ - بروكلمان كارل :

- تاريخ الشعوب الإسلامية ترجمة بنية فارس وزميله بيروت/١٩٦٥

- تاريخ الأدب العربى : ترجمة عبد الحليم النجار القاهرة /دار المعارف

٧ - ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك .

الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس القاهرة / ١٩٦٦

٨ - ابن حزم : أبو محمد بن أحمد الظاهرى

الفصل فى الملل والأهواء والنحل القاهرة ١٣١٧هـ

٩ - حسين مؤنس :

شيوخ العصر فى الأندلس القاهرة / ١٩٦٥

١٠ - الحميدى : أبو عبد الله محمد

جذوة المقتبس فى ذكر ولاة الأندلس القاهرة / ١٩٦٦

١١ - ابن حيان : أبو مروان حيان بن خلف القرطبى .
المقتبس ، حـ ٥ نشر شالمتيا مدريد / ١٩٧٩
١٢ - الخشنى : أبو عبد الله محمد بن حارث القيروانى
قضاة قرطبة القاهرة / ١٩٦٦
١٣ - سالم يفوت :
ابن حزم والفكر الفلسفى بالمغرب و الأندلس الدار البيضاء/١٩٨٦
١٤ - صاعد الطليطلى :
طبقات الأمم : تحقيق حياة بوالوان بيروت / ١٩٨٥
١٥ - الضبى : أحمد بن يحيى بن عميره
بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس القاهرة / ١٩٦٧
١٦ - على سامى النشار :
الفكر اليهودى وتأثره بالفلسفة الإسلامية الإسكندرية/١٩٧٢
١٧ - عياض :القاضى أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبى
ترتيب المدارك وتقريب المسالك : تحقيق أحمد بكر محمود بيروت/
١٨ - ابن الفرضى : أبو الوليد عبد الله بن محمد الأزدى
تاريخ علماء الأندلس : القاهرة / ١٩٦٦
١٩ - القفطى : جمال الدين أبو الحسين على .
أخبار الحكماء ليبزج / ١٩٠٨
٢٠ - محمد ألوزاد :
الملامح العامة لشخصية ابن مسرة ورآئه ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بقاس عدد ٤ - ٥ (٨٠ - ١٩٨١) ص ص ١٤٨ - ١٧٨

٢١ – محمد بركات البيلى :
الزهاد والمتصوفة فى بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجرى القاهرة / ١٩٩٣
٢٢ – محمد عابد الجابرى :
نحن والتراث بيروت / ١٩٨٢
٢٣ – محمد عبد الله عنان :
دولة الإسلام فى الأندلس – اللكتاب الثانى القاهرة / ١٩٨٨
٢٤ – محمد كمال جعفر :
من التراث الفلسفى لابن مسرة القاهرة / ١٩٨٢
٢٥ – محمود على مكى :
التشيع فى الأندلس صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد مجلد ٢ (١٩٩٤) ص ص٩٣ – ١٤٩
٢٦ – مصطفى الشكعة :
مواقف المستشرفين من الحضارة الإسلامية فى الأندلس . من مناهج المستشرفين فى الدراسات العربية الإسلامية جـ ٢ ص ص ٢٧٣ – ٢٤٣ الرياض / ١٩٨٥
٢٧ – المقرى : أحمد بن محمد التلمسانى
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب تحقيق يوسف الشيخ البقاعى ، بيروت / ١٩٨٦

28 Anawati.G.& L.Gardet;
Mystique Musulmane . Paris 1976
29 - M . Asin Palacios ;
Iben Massara y su Escuela Origines de la Filosofia his pano Musulmana . Madrid , 1914
30 - M . Cruz Her nandez ;
La Filosofia Arabe . Madrid , 1960
31- Munk , S.
Melonges de Philosophie Juivre et Arabe . Paris , 1955

a new agrarian system dominated by flax for an expanding textile industry. Social disorder was replaced by relatvie social stability, and the recovery of the Egyptian economy in the later ninth century is associated with the emergence of families of tax guarantors living in Egypt who organized and ran the linen industry. By the late ninth century Egypt was exporting linen instead of wheat.(1)

It ought to be possible to use the results of archaeology to show similar differential changes among craft products. Such an approach can yield a more complex and dynamic understanding of economic change in early Islamic times. At the sam time it must be admitted that these economic processes are only isolated topically for the purposes of discussion and analysis, that in real life they can be expected to have been interrelated, and that they were subject to non-economic constraints in the from of religious ideologies, social norms, and the exercise of govermental and military power. One should also pay attention to what the written and material evidence actually shows, use terminology that is as neutral and descriptive as possible, and try to understand economic circumstances from the point of view of the people who experienced them.

---

(1) G. frantz-Murphy, "A New Interprtation of the Economic History of Medieval Egypt, the Role of the Textile Industry 254-567/868-1171," Journal of the Economic and Social History of the orient , 24, pp. 274 -247.

system continued to operate: the grain-tax levied on each village as a unit was taken as a percentage of the wheat harvest from the threshing floor. Muslim soldiers were paid mothly rations of wheat and clothing, and the surplus grain was shipped to the Hijaz.

By the late seventh century conditions began to change. A period of agrarian and social instability began that lasted for over century, during which a set of parallel, interrelated processes transformed the countryside. One process was the reduction of the coptic agrarian population as the result of a series of rebellions that lasted until 832, conversion to Islam, and replacement by Arab settlement in the countryside. Another was a shift from grain to crops that provided raw materials for industry. sugar was introduced in Egypt by the early eighth century, and flax spread (possibly at the expense of grain) to serve a growing linen textile industry. Third, these processes were accompanied by fiscal oppression and administrative centralization at Damascus and Baghdad. By the early eighth century Egyptian revenues had become more important as a source of income for the Islamic state than as grain shipments to the Hijaz. Increasing fiscal pressure may have served to depress the grain sector of the agrarian economy. By the late eighth century a change in the tax system from group to individual land tenure and tax liability contributed to the transfer of land and the breakup of villages and to the emergence of tax guarantors who collected taxes and rents from individual tenants. The last, greatest rebellion of the coptic rural population associated with the grain sector was in Bashmur in 832 and left that region depopulated. Theoretically depopulated rural districts would have been ideal places to introduce different crops and techniques along with a new labor force. In any case' since the copts never rebelled again, this marks the end of the transition to

by giving them land grants or by collecting the income separately to by spent at the discretion of the ruler. By the eighth century state domain was spreading at the expense of private estates belonging to the older regime at the same time that it was being alienated to a new group of landlords. As development reached the point of diminishing returns towards the end of the eighth century,investment in reclamation declined.

Although the new agriculture provided the surplus food and raw materials for the growing urban population and economy of lower Iraq in the first and second centuries, the ability of the new agriculture to expand without increasing the " **kharaj**" tax base was part of the reason for the fiscal crisis of the Marwani period. This, in turn. aggravated the distress in areas under the older regime where heavy taxtion and labor flight led to rural depression affecting those, especially at kufa, whose stipends were tied to the " **kharaj**" from these areas.(1)

Likewise, the agrarian history of early Islamic Egypt may be seen in terms of a changing balance between grain and flax. Grain was the major crop in late Byzantine Egypt. It was grown on large estates controlled by a rural elite of Greek and coptic landlords; the church itself was a major landholder. Surplus grain was exported to constantinople. This agrarian system survived the Muslim conquest with almost no change in its nature. The Greek landlords and officials left, but the native coptic landlords ran the local, rural administration as dukes and pagarchs, while coptic clerics and monks took over the ecclesiastical structure, church buildings, and property of the Melkites. The Byzantine

(1) M. Morony, "Grundeigentun im fruislamischen Irak," Jahrbuch fur Wirtschaftsgeschichte, sonderband 1987, Das Grandeigentum in Mesopotamien, ed. B. Brentjes (1988), 135-47; idem, "Landholding and Social change: Lower al-clraq in the Early Islmic period, "in Land Tenure and Social Transformation in the Middle East, ed. T. khalidi (Beirut, A.U.B., 1984), p. 210.

between one-third and one-half of their crop to the state, or were slaves. Private estates were created from reclaimed land aroun Basra, were worked by renting tenants and the owners were subject to the tithe. Both kinds of new land were ideal for innovation. The need to import labor facilitated the introduction of new from of organization, techniques, and labor intensive crops such as cotton, sugar, and rice. The best example is the expansion of rice growing by Indians (zutt) with water buffaloes who were settled by al-Hajjaj on the reclaimed land around wasit.(1) There were also zanj from East Africa in the countryside around Basra by the late first century, although it is unclear how they were employed. It is also possible that captives taken in warfare were employed as agricultural slave labor. The new agriculture thus developed as a more efficient, specialized market-oriented monoculture on plantation estates.

Investment which usually involved the cost of labor for new canals or for draining swampland was attractive because the tax differential between tithe and "**kharaj**" land meant a more lucrative return for private developers and because the income from state land was separate from the "**kharaj**". Under ᶜUmar I the income from state lands amounted to 4,000,000 "**dirhams**" .(2) by the time of Muawiya the income from the state lands was equal to almost half the amount of the "**kharaj**" (100 million "**dirhams**" compared to 235 million "**dirhams**") of all of Iraq or almost equal to the "**kharaj**" from the "**sawad**" alone (13o million "**dirhams**").(3) This increased income from state land was not used to pay salaries but for patronage: to reward and maintain members of the ruling family and their supporters either

(1) Ibid., 375.

(2) Yahya ibn Adam, kitab al-kharaj (tr. ben shemesh, I),54.

(3) yacqubi, Ta'rikh, II, 277.

which is generally seen in terms of a shift in emphasis from agriculture to commerce. But it is also necessary to consider changes in the nature of agriculture (including changes in the relative dominance of different crops), its degree of rational exploitation, and its relationship to the market. This can be shown by examples from Iraq in the seventh and eighth centuries and Egypt in the eighth and ninth centuries.

Changes in the agrarian economy of lower Iraq in the seventh century are most usefully discussed in terms of a changing balance between two systems differing in geographical location, nature of production, from of labor, from of taxation, and use of revenue. The first type of system was formed during late antiquity and consisted of the agriculturally diversified, relatively selfsufficient village estates of local notables worked by servile renting tenants who paid a land tax proportional to the unit area" **kharaj** ". These estates, which predominated in the " **sawad** " of kufa and along the lower Tigris served as economic, administrativ, and fiscal units, and the taxes from them were used by the state for administrative and military expenses. This regime remained relatively stable in the first century after the Muslim conquest, was worked by the same peasant population, was held by native landlords although some estates were acquired by Muslims, and was a main source of stipends and salaries for the early Muslim army and administration in Iraq.

The second regime is associated with state land and private reclaimed land the extenion of which in the first century meant the expansion ofa new form of agriculture. Although state land was scattered throughout the "**sawad**", it was increased mainly by reclamation from the swamps around kaskar (later wasit). (1) The tenants on state land were sharecroppers who turned over

(1) Baladhuri, kitab futuh al-buldan, pp. 290, 295.

expansion. Political and cultural frontiers may not coinicde with exchange networks as the large numbers of Islamic coins in scandinavia show. Likewise the development of Muslim sea tread to china and of trans-Saharan trade by Ibadi merchants occurred outside the borders of the Islamic empire. Regions within the early Islamic empire may have experienced economic change at different rates and at different times. The economy of Iraq, for instance, appears to have expanded earlier, continuing late Sasanian trends, and then retracted earlier, by the ninth century, when the economy of regions such as Egypt, Khurasan, and Ifriqiyya appear to have been expanding.

A more useful theortical framework for economic history, then, would be one concerned with the expanion, retraction, and /or stability of the processes of production, consumption, and exchange. Just as these six variables might be expected to differ from one region to another, they should also be capable of variation among the different sectors of the economy of a particular region, and we should not assum that all of the sectors of a particular economy expand or retract at the same rate. It is possible for different crops and craft products to experience simultaneous expansion, contration, or stability within the same economy, and for differential change to occur per commodity.

For instance, the agricultural sector in the regional economies of western Asia and North Africa in early Islamic times has tended to be treated as though the mere extent of land under cultivation was all that mattered. To a certain extent this has been encouraged by the importance of taxes on agricultural land for administrative and military structures, although the tax base did not always necessarily expend or contract in direct relationship to the extent of cultivation. Assumptions of this type have been particularly popular in dealing with questions of economic change from late antiquity to the early Islamic period,

affected by rural depopulation because rural labor was drawn to towns by the opportunities there and to escape conditions on large estates, while overtaxation and the threat of confiscation by irresponsible officials discouraged development and maintenance. Perennial irrigation resulted in erosion, silting, and salinization. The decrease in agricultural production was related to an absolute reduction in population, further reduced by disease epidemics. The "feudalization" of agriculture under absentee landlords and with the rapid rotation of **iqta'** holders is said to have undermined the monetary and mercantile economy. Trade declined because of political fragmentation, insecurity, and pastoral invasions by Arab bedouin in North Africa and Turkmen and Mongols in western Asia that disrupted commerce, cut off the sources of gold, ruined irrigation, and expanded pastoralism at the expense of agriculture. Manufacturing was undermined by competition from the government sector, interference, controls, confiscation, and forced sales and by competition from western Europeans who had adopted Islamic techniques and had greater resources of water, timber and metals. As the economy retracted there was less surplus to support instititions of learning, leanding to a cultural decline.

Although mony of the items in this presentation are debatable, the point here is that in this scheme the premodern Islamic economy is treated as a unitary system that rose and declined together. It tends to overlook regional variations, and it exaggerates the extent of interregional connections, the degree of development and of the subsequent retraction or changes. The roots the changes identified with an " Islamic" economy may be sought in the period before the rise of Islam(*) empire may have been a partial result of an expanding Arabian economy at the end of late Antiquity rather then being a cause of economic

(*) The creation of an Islamic

> The expansion of Islam created conditions favorable to a commercial revolution of gigantic proportions by linking sources of raw materials to centers of production, and these to centers of consumption, and by joining together areas of specic surplus with those of deficit.(1)

Apart from the questions of cause and consequence that are thus raised, there is also the question of why the "Islamic Market" system peaked where it did. This tends to be put in terms of why it " failed" to develop beuond a certain point. Explanations include of the attitude the merchants who were concerned with short - term profits which would be greater from speculation, so they invested their profits in acquiring commodities for resale rather then re-investing in improvements in technology for production. Long term accumulation is said to have been prevented by the way Islamic inheritance law broke up estates. Although this could be avoided by establishing endowments for religious institutions, that withdrew capital from economic activity and invested it in culture. The resource base in metals, water, and timber proved inadequate for unlimited expansion, with the consequences of deforestation being felt by the eleventh century. The use of irrigation set an absolute limit to the expansion of agriculture, and therefor to the vegetal food supply, setting an upper limit to demographic increase. Above all the system itself was fragile, being based on a balance among irrigation agricultur, long-distance trade to offset the lack of local resources, a monetary economy based on a constant influx of gold, and urban growth.

Various reasons are then given for the economic retaction of this system from about the eleventh century. Agriculture was

(1) Ibid . p. 155.

commercialization of agriculture may be reflected in the change in land tenancy from contracts based on debt to contracts based on partnership.

According to Lombard :

> The diversification of methods of payment, the intensive minting of currencies and their more rapid circulation, the extension of credit and banking operaions, the consumer demand resulting from the development of the great metropolises, all led a speeding up of commercial activty, a revival of agricultural and craft production, a drop in the value of precious metals, and a long-term rise in prices, maintained by the constant influx of money metals greater than the increase in volume of production,despite the progress achieved in this latter area.(1) .

Or, as expressed succinctly by Glick :

> In the Islamic world the process of conquest and colonization jolted stagnant local economies, put money into circulation again, and caued a price rise that provided a real spur to the development of craft trades and thus to urbanization. The beneficiaries of the development, the urban merchant class, were soon able to purchase land in the surrounding countryside and thus to establish a real dominance of the towns over the countryside.(2)

---

(1) Ibid ., p. 147

(2) T. Glick, Islamic and christian Spain in the Early Middle Ages (princeton, 1979) , pp. 69 - 70 .

development and expansion of commerce that occurred after the Islamic conquested created an empire was based on several factors. First, by eliminating former political boundaries (primarily the one between Byzantine and Sasnian Mesopotamia) and abolishig transit tolls, the conquests combined former Sasanian and Byzantine territories into a single bi-metallic system of currency, a single commercial language (Arabic), and access to the Mediterranean. This region was at first co-extensive with the Islamic empire and later with Muslim world. Second, the conquests put a greater amount of precious metals into circulation through dethesaurization, the acquisition of gold and silver producing regions, and the payment of military stipends in cash. Third, political unity encouraged commercial exchange throughout the region, the spread of techniques in agriculture and industry, and reqgional spescialization in agriculture, raw materials and manufacturing that created long distance interdependence. this economic development is said to have been mainly accomplished through private investment by merchants with connections to the " ulama " responsible for the elaboration of Islamic law and other religious sciences who provided a religious sanction for commercial activity. The rise in income and prices created a demand for skilled labor which was concentrated in towns at the expense of the agricultural sector, so that both landlords and agricultural labor were worse off. Fourth, these circumstances were accompanied by demographic growth. Cities were larger and their concentrated mass markets stimulated the production of consumer goods and the provision of services in greater quantity and quality. This is said to have been fueled by the demand of the ruling elites and wealthy people for luxury goods and the availability of cheap unskilled labor. Fifth, there was a change in the relationship of agriculture to industry and commerce in which agriculture supplied raw materials and food for growing urban production centers.The

and consequences of peasant and slave revolts. Modern issues, interests, and terminology are retrojected into the past in an anachronous way even though they do not necessarily have absolute validity.

Matters also tend to be explained in terms of an Islamic dimension to economic behavior. Economic changes following the rise of Islam and the creation of an Islamic empire are said to have been "caused" by Islam, to have been the result of what Islamic law encourages or discourages. These changes are rarely discussed in secular terms, and the argument could be reversed; Islamic law could be seen to reflect the interests of the people who developed it.

A common framework for the interpretation of the economic history of western Asia and North Africa in early Islamic times exists in the thesis an "Islamic Market" system that was created by the Muslim conquests. Its difference from the economy of late Antiquity is seen in terms of the extent of specialization vs. self-sufficiency, the relationship of production to the market, and the degree of government regulation. The economy of late Antiquity is characterized by the relative importance of agriculture as a tax base for local elites whose estates tended to be self-sufficient. Government regulation of labor tied people to their family occupations by law and tied farmers to land, which may be an indication of a retracting economy. Commerce was mainly in luxuries such as spices, pearls and silk.

In contrast the economy of early Islamic times is seen to be more specialized, With a greater degree of production related to the market, and less government regulation. As popularized by Lombard,(1) and ultimatelybased on Ibn khaldun,the economic

(1) M. Lombard, The Golden Age of Islam (Amsterdam, 1975)

A FRAMEWORK FOR THE UNDERSTANDING OF EARLY ISLAMIC ECONOMIC HISTORY

BY

Michael G. Morony

Department of History

University of California, Los Angeles

A definitive treatment of the economic history of western Asia and North Africa before modern times would still be premature . Nevertheless it is possible to discuss this subject, to define the issues, and to develop methods for treating it. The scholarship on the economic history of Islamic regions has consisted mainly of descriptions of the economy of particular places at particular times in the past with little attention to process or change. The latter are difficult to discuss in non-quantitative terms and may require methods and concepts somewhat different from theoretical economics .

How can economic history be done without reliable statistics ? The availability of quantifiable information imposes a cut-off date for econometric methods. Before such information survived from early modern times one must apply non-quantifying methods. However, such methods tend to be "impressionistic". The validity of conclusions depends on how significant or representative specific examples are claimed to be. There is a tendency to generalize from one or two examples, or with none at all based on deducitive or a priori arguments.

Explanations are often self-serving. The "lessons" of history are used as part of some modern argument : for the benefits of free trade, the evile of state intervention, or the causes

All Correspondence to be directed to:

Editor - in Chief: PROF. S. A. EL - NASSERY,

Cairo University, Faculty of Arts,

Orman, Giza, A. R. E.

رقم الإيداع : ٨٨/٧٣١٧

الترقيم الدولى ٩ - ٠٢٦ - ٢٣٨ - ٩٧٧

Cairo University
Faculty of Arts

THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF
THE DEPARTMENT OF HISTORY

Editor - in - Chief: Porf. S. A. EL - NASSERY

Volume 15 (JULY 1995)

Cairo University
Faculty of Arts



THE EGYPTIAN HISTORIAN

STUDIES & RESEARCHES IN HISTORY & CIVILIZATION

A BIANNUAL PUBLICATION OF THE DEPARTMENT OF HISTORY

Volume 15 (JULY 1995)

محتوى العــدد